الطبعة الثانية

أشرف الخمايسي

منافي الرب

رواية

الدار المصرية اللبنانية



رواية

الخمايسي، أشرف.
منافي الرب: رواية / أشرف الخمايسي .- ط2.-
القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، 2014.
408 ص؛ 20 سم.
تدمك: 0 - 930 - 427 - 977 - 978
1- القصص العربية.
أ- العنوان 813
رقم الإيداع: 17976/ 2014

الدار المصرية اللبنانية
16 عبد الخالق ثروت القاهرة.
تليفون: 23910250 202 +
فاكس: 23909618 202 + - ص. ب 2022
E-mail:info@almasriah.com
www. almasriah.com

الطبعة الأولى: المحرم 1436 هـ - نوفمبر 2014م
الطبعة الثانية: نوفمبر 2014م

أشرف الخمايسي



رواية

الدار المصرية اللبنانية

إلى الإنسان

علـى الرّغم مـن أن المـوت كان يتعمّد أن يطل على الإنسـان من كل ناحية في حياته، ويصدر صخبًا مثل صدىً لا ينتهي تردُّده، إلا أن الإنسـان عاش حياته يتمتّع بأبهج ماأُتيح له منها، وكانت قمة انتصاره على الموت، أن حوّله إلى ملاذ أخير يسعى إليه إذا قست عليه الدُّنيا.

1

الـرُّؤيَا

الجـو ضبابـي، ليس واضحـا تماما إن كان الوقت نهـارا أم ليلا، لكن الـذي اتَّضح تماما لـ«حجيزي» أنه يجلس مسـتندا إلى ناقته المنيخة، في صحـراء تحفُّها بسـاتين نخيـل متفرقة، وأنه يـأكل أول تمـرة من تمرات ثلاث كانت في كف يده اليسرى.

وفور أن انتهى من أكل التَّمرات الثَّلاثة، سمع صوت «سعدون» يعلو من فوق سـطح المسجد بأذان الفجر، فصحا من النَّوم، وحلاوة التَّمرات مازالت عالقة في فمه.

همس فرحا: هل عاد «سعدون» ليؤذِّن للصَّلوات مرَّة أخرى؟

وهمـس: عمومـا هـذه رؤيـا حق، طالمـا أنها لامسـت الفجـر، ولها تفسير.

اندهش عندما رأى نفسـه يخرج من بيته، فالأيام أيام صيف، وهو في الصَّيف ينام غالبا على المصطبة الصَّخرية أمام البيت، ليس بداخله، لكنَّه لم يهتم بالأمر طويلا، لأن تفسـير الرّؤيا شـغل عقله، حتى أنه بدلا من أن

يذهب إلى المسـجد كعادته ليصلِّي الفجر جماعة، انطلق إلى الصَّحراء، ومشـى فيها طويلا، وراعه أنه عادة بعد الفجر بقليل، يبدأ نور الصباح في إضاءة الدنيا، لكن ها هو قد مشـى طويلا طويلا في الصَّحراء، وما زالت الدنيا عتمة، وكأنها ظلام قلب الليل.

ووصـل إلى جبل ضخم، في سـفحه تراصَّت أشـجار فواكه مختلفة، بينمـا ارتشـقت فيـه العديـد مـن الكهوف، أمـام أحدهـا وقـف الرَّاهب «يوأنَّـس» في فتحـة مدخله، طويلا، عجوزا، تنسـال لحيتـه البيضاء مثل حرير، ويُرقِّص الهواء الشُّـعيرات النَّابتة في صلعته اللَّامعة، يقف مستندا إلى عصاه التي اتَّخذها من أغصان شجرة، كأنه ينتظر قدومه.

ارتفـع صـوت الراهـب «يوأنَّـس»، عميقـا، جَهْوريا: يـا «حجيزي»، أكلـت آخر ثـلاث تمرات من زادك، يبقى لك من أيَّـام حياتك ثلاثة أيَّام، وتموت.

وارتفع صوت «مزيد» بأذان الفجر، قويًّا ومشرقا، فانتفض «حجيزي» فـي فراشـه، لكنَّه اعتدل كمـا يعتدل أي رجل عجوز، ببـطء وحذر، بينما عيناه تلمعان بما رأى في منامه، وقلبه يدق بعنف.

هـذه رؤيا عجيبة، وقاسـية، لم تتـرك أيَّة فرصة للتفسـير، أو لمحاولة تأويلهـا بشـكل يسـاعد «حجيزي» على الهـروب من هـذا المصير الذي رسمته له، الموت.

* * *

كان نائمـا علـى المصطبـة الصَّخريـة أمام البيـت عندمـا داهمته هذه الرّؤيـا، يُفضِّـل النوم على هـذه المصطبة في ليالي الصيـف، وفي بعض الليالـي يرغـب في النـوم على حصيـر مغطَّى ببشـكير قطني فـي الخلاء وراء البيـت، ومـرَّات قليلة جدًّا يصعـد الدَّرج الضَّيق إلى السـطح، لينام على الدِّكَّة التي تعلوها سـقيفة صغيرة من جريد النخيل المجفَّف بحرارة الشمس.

وفـي داخل البيت لـه غرفة نوم، ينـام فيها مع زوجته «سـريرة»، لكنَّه هجر هذه الغرفة منذ أعوام لا يعرف عددها.

لذلك إذا حل الصَّيف ينام في هذه الأماكن.

وفي الشِّـتاء لـم يكن متوفِّرا له سوى مكان واحد، "الدِّكَّة» التي خلف بوَّابـة البيـت، حيـث المـكان متسـع، لكنَّـه رغـم اتِّسـاعه محكـم الغلق، ومسـقوف جيِّـدا، ثم إنه دائما يكـون دافئا، إثر النَّار التي كانوا يشـعلونها للتدفئـة في «قروانـة» خُصِّصت لهذا الأمر، فلمَّا تخبو في نهاية السَّـهرة، لا يخبو دفؤها، ويتغطَّى «حجيزي» ببطَّانية ثقيلة، وينام.

لكن لمَّا داهمته هذه الرّؤيا القاسـية، كان الفصل صيفا، والليلة حارة، وكان نائما على المصطبة الصَّخرية أمام البيت.

..... عينـاه هما اللتان اسـتجابتا لهول الرّؤيا بسـرعة بالغـة، فانفتحتا من نومهما بسـرعة ونشـاط، ومن دون التكاسـل المعتاد لعينين تنفتحان بعد استيقاظ عادي، لكن بقيَّة جسده لم يكن يملك المواصفات المناسبة التـي تمكِّنـه من هبَّة سـريعة تتناسـب مـع هول هـذه الرّؤيا، كان جسـده عجوزا، وقديما جدا.

ويتباهى «بكير» لأن آباء كثيرين أعمارهم أقل من سبعين سنة، ومع ذلك رقدوا في البيوت من غير حركة، واستسلموا لأنواع شتَّى من الأمراض الخسيسة التي يحلو لها اصطياد هؤلاء العواجيز الضُّعفاء.

لكن «حجيزي» عمره مائة عام، ومازال قادرا على رعي الأغنام، والمشي بها إلى المراعي البعيدة في الصَّحراء، بل وما زال يستطيع ركوب الجمال، والسَّفر إلى «موط» في رحلة ذهاب وعودة قد تستغرق أياما طويلة.

ورغم كل ذلك، لم يكن هذا الجسد القديم مستعدا لِهبَّة سريعة إثر استفاقة خاطفة بسبب رؤيا قاسية.

لذلك اعتدل «حجيزي» ببطء وحذر.

صوت «مزيد» صافيا وهو يكمل الأذان: الصَّلاة خير من الموت، الصَّلاة خير من الموت.

اندهش «حجيزي»، وشعر أنه ما زال يكمل أحداث الرّؤيا، وإلَّا لماذا يقول «مزيد»: الصَّلاة خير من الموت؟! أنا أسمعه في كل فجر يقول الصَّلاة خير من النَّوم!

صياح الديوك على أسطح البيوت في «الوعرة» يتردَّد مع أذان «مزيد»، وكذلك نباح ممدود لكلاب ناعسة يشبه عواء ذئاب، كما أن عصافير قليلة بدأت تشقشق في شجرة «الجميز».

أمسك «حجيزي» بعمامته ووضعها متهالكة على رأسه الأصلع، وكان يقول لنفسه: أنا مستيقظ الآن أم أنا نائم؟

ظهرت الحيرة على وجهه. وتمنَّى في قرارة نفسه لو أنه ما زال نائمًا، وأنه يحلم، حتى تجري به رؤياه في مجرى لا يكون تفسيره عند الصَّحو حتمية موته.

أدار رأسه ونظر إلى النَّاحية التي رأى نفسه ينطلق منها منذ قليل إلى الصَّحراء، حيث جبل الرهبان، وكهف الرَّاهب «يوأنَّس».

«يمكن أكون عدت الآن من عند هذا الرجل، طيِّب كيف؟! المسافة بينك وبين جبل الرهبان أطول من ارتحال يومين من النّوق! ثم هل هناك أحد يعود من مشوار فيجد نفسه نائما على المصطبة؟! يجوز فقط في الرّؤى والأحلام! طيِّب، هل يظل الواحد في الأحلام يفكِّر إن كان مستيقظا أم نائما؟!»

عينا «حجيزي» ليستا أكثر من ثقبين، تدلَّى عليهما جلد متهدِّل، لكنَّه كان يرى بهما جيدا، فنظر حوله في محاولة أخيرة ليتأكَّد من أنه هل هو مستيقظ الآن أم نائم.

رأى البيوت في غبشة الفجر، ورأى شجرة «الجميز» أمام بيته، ورأى كلبا يمضي بنشاط في النَّاحية البعيدة من الطريق.

همس: أنت صاحٍ يا «حجيزي»، لا تكون البيوت والأشجار والكلاب واضحة مثل هذا الوضوح في الرّؤى.

كانـت قدماه تتحسسـان الأرض بحثا عن حذائـه، عندما فُتحت بوَّابة البيت، وخرج منها «بكير».

شاب في أوائل أربعينيات عمره، يرتدي الجِلباب الأبيض القصير ذي الأكمـام الطَّويلة، وسـروالًا أبيض بالكاد يصل إلى عقبيـه، يضع عمامة، بدت ملقاة على رأسه كيفما اتفق.

خرج «بكيـر» ليصلِّي الفجر، كان يغالب النَّوم، لكنَّه اندهش لمَّا رأى والده «حجيزي» مازال جالسا على المصطبة، عادة يسبقه إلى المسجد.

قال «بكير» بصوت نعسان: صباحك خير يا «حجيزي».

همهم «حجيزي» وهو ينحني للأمام ليقوم واقفا: خير صباحك.

لكن «بكير» كان نعسـانا، فلم يمد الكلام مع والده ليعرف منه سـبب تأخره هذه المرَّة عن الذِّهاب إلى المسجد، فكَّر في أن أباه قد أخذته نومة عميقة أخَّرته عن الصَّحو، فمضى مبتعدا.

كان المسجد قريبا، ليس أبعد من مائة خطوة من خطوات «حجيزي» الضَّيقة الآن.

* * *

عـادة «حجيـزي»، بعـد أن يسـمع أذان الفجـر، النهوض وهـو يتمتم بدعـاء الاسـتيقاظ من النوم، الـذي تعلَّمه مؤخَّرا من الشـيخ «مزيد» إمام المسـجد، «الحمد لله الـذي أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النُّشـور»، ثم يضع قدميه في حذائه.

كل مرة يضع قدميه في حذائه، يشعر بألم شديد يجتاحهما، كان الحذاء قديما لدرجة حوَّلت جلده المُتَيبِّس إلى ما يقارب قطع من صفائح حديد رقيقـة، تؤلـم من غير أن تخـدش، ورغم كرهه لهذا الحـذاء، إلا أنه يصر على انتعاله، ثم يمضي بخطوات متثاقلة إلى المسجد.

المسـجد مثل «حجيزي»، قديمـا، ومثله، رغم قدمه مازال قادرا على القيام بمهامه.

يدخل أوَّلا إلـى إحدى دورات مياهه، تلك التي هي عبارة عن مجرد فتحـة صرف تـؤدِّي إلى بئر لا تمتلئ أبدا، على جانبـي هذه الفتحة لبنتان مـن الطُّوب الأحمـر ثُبِّتَتا بالأسـمنت، يضع الإنسـان عليهمـا قدميه، ثم يجلـس يقضي حاجته، وبعد أن ينتهي، ينظِّف نفسـه من ماء يملأ ماجورا فخَّاريـا، يطفو عليه «كوز» من مخلَّفات علب السَّـردين الفارغة، التى تم تهيئتها لهذا الغرض.

يخرج من دورة المياه، فيخلع حذاءه، ويخطو إلى الميضأة.

يفتـح صنبـورا، فيأتيـه المـاء مـن الصِّهريـج الموضـوع فوق سـقف المسـجد، ويتوضَّـأ، وبعد أن يفرغ مـن وضوئه، يجفِّف أعضـاءه المبتلَّة بطـرف جلبابـه، وهو يهمـس: «أشـهد ألَّا إلـه إلا اللّه وأن محمَّـدا عبده ورسوله»، ثم يدلف إلى صحن المسجد.

يلقي السلام على المُصلِّين الجالسين ينتظرون إقامة الصَّلاة، فيَردُّون تحيته بأصوات مستكينة ناعسة، ثم يشرع في صلاة ركعتي الفجر، وما إن

ينتهي منهما حتى يكون الشيخ «مزيد» قد أقام الصَّلاة، فيصطف المصلُّون القلائل في صفَّين أو ثلاثة، ينضم إليهم «حجيزي»، ويعلو صوت «مزيد» بتكبيرة الإحرام: اللّه أكبر.

هـذه المـرَّة، صحا «حجيـزي» وقلبه هلوعا، فنسـى أن يقـول الدُّعاء الذي علَّمه له «مزيد»، ومضى إلى المسـجد مدووشا كأن مطرقة ضخمة ضربت رأسه.

لـم يدخل إلى دورة المياه، ولم يتوضَّأ، وإنما دخل المسـجد من بابه الرئيسـي المطل على الشَّـارع، لم يلق السَّـلام على أحد، وإنما وقف في منتصف المسجد ورفع يديه، وقال: اللّه أكبر.

ودخل في الصَّلاة.

..... صحـن المسـجد ضيق، وجدرانـه المبنية بالطـوب اللَّبِن غزتها الشـروخ، كانـت الشـروخ تبدو أكبـر من حجمهـا الحقيقي بسـبب لون الجير الذي طُليت به الجدران حديثا، اللَّون الزَّهري الفاتح، لون السَّـماء الصَّافية في ضحى شتوي.

علـت همهمة في المسـجد غيـر معتادة مـن المُصلِّين، هـؤلاء الذين يجلسـون فـي كل فجـر هـذه الجلسـة، ينتظرون الصَّـلاة، وهـم يغالبون النُّعاس، فيسيطر عليهم الصَّمت.

«حجيزي» يصلِّي بينما يُنقِّل عينيه بين المبني بالطُّوب اللَّبِن، و«مزيد» الجالس مستندا إلى جدار المنبر، معطيا جنبه الأيمن للقبلة.

«مزيد» ينظر إلى «حجيزي» وهو يبتسم، والمُصلُّون تعلو همهماتهم أكثر وأكثر، وثمة ضحكة نبتت بين الهمهمات.

«حجيزي» أدار رأسه ببطء ينظر حوله بعينين حائرتين، فرأى عيونا ترمقه بغضب، وعيونا ساخرة، وعيونا ضاحكة.

«مستحيل أن أكون مستيقظا. أنا مازلت في الرّؤيا».

كان «مزيد» يشير إليه بذراعه الأيمن، كأنّما يريد أن ينبهه إلى شيء، يشير إلى أسفل منه، إلى قدميه، لكن «حجيزي» مشى نحو «مزيد» ببطء يناسب المشي في الرّؤى، وعندما وصل إليه قال «مزيد» هامسا: يا عم «حجيزي» تدخل المسجد والخف في قدميك؟!

نظر «حجيزي» إلى الحذاء في قدميه وابتسم، وقال لنفسه: الحمد لله. أنا إذن مازلت أحلم.

وانقلبت عينا «مزيد» من عينين باسمتين إلى عينين متعجبتين. ثم انفتح فمه مشدوها لما سمع «حجيزي» يقول له: لماذا كنت في الأذان تقول الصَّلاة خير من الموت؟!

لم يكن «مزيد» قد قال «الصلاة خير من الموت»، فقال مندهشا: أنا قلت الصَّلاة خير من الموت؟!

ونظر حوله، ورفع صوته يسأل الجالسين في المسجد يهمهمون: أنا أذَّنت وقلت الصَّلاة خير من الموت؟!

ولـم يرد أحد بـكلام، وإنمـا ردُّوا بالصَّمـت، بينما نظراتهـم تتصادم مستغربة.

عاد «مزيد» ونظر إلى «حجيزي» مبتسـما، كانت ابتسـامته هذه المرَّة محمَّلـة بـكلام يعنـي «يبـدو أنك كبـرت وخَرُفت يـا حجيـزي»، وبينما يستدير ليمضي مبتعدا، قال «مزيد»: مالك يا عم «حجيزي»!؟

وعندما وصل إلى باب المسـجد ليخرج، سمع صوت «مزيد» يهتف بنفس النَّبرة المندهشة: إلى أين يا عم «حجيزي»؟! لم نُصلِّ الفجر بعد!

نظـر «حجيـزي» للوراء، كان النَّاس قد لَـوَوا أعناقهم برؤوسٍ عيونُها امتلأت بالحيرة. ثم خرج.

* * *

لا يتـرك «حجيـزي» صـلاة الفجـر أبدا فـي المسـجد طالمـا هو في «الوعـرة»، ولـه مـكان في الصَّـف لا يتركه أبـدًا، خلف العامـود الكبير، الوحيـد، في وسـط صحـن المسـجد، يصلِّـي بمحاذاته، ثـم إذا فرغ من الصَّلاة، يزحف على يديه وركبتيه مسـافة خطوة واحدة، ليجلس مسـتندا بظهره إلى قاعدة العامود المربَّعة، لكنَّه لم يكن يفعل ذلك فور انتهائه من الصَّلاة.

كان إذا سـلَّم التَّسـليمة الثَّانيـة، وهـو ينظر إلى يسـاره، لا يدير وجهه للأمام قبل أن يتكلَّم مع من يوقعه حظُّه العاثر في الصَّلاة إلى يساره.

مرَّة قال لـ«غنيمة»: رائحة فمك رائحة جيفة كلب يا أبخر.

ومـرَّة قـال لـ«حمـد»: تـدوس بقدمـك التـي مثـل حافر حمـار على قدمي.

وفـي مرَّة قال لـ«سـعدون»: تأكل تأكل تأكل ثـم تدخل الكنيف تخرأ ساعة!

ثـم مضى علـى يديه وركبتيه ليسـتند إلـى العامود، وكان «سـعدون» يقول: أنا لا أقعد أخرأ في «الكنيف» ولكن تأخذني نومة.

ورغم أن «حجيزي» قد بدأ يهمهم بتسـابيح أذكار بعد الصَّلاة، إلَّا أنه قطعها، وقال بغيظ: لا تخرأ من مؤخِّرتك في «الكنيف»، وتبقى تخرأ من فمك وأنت تصلِّي بجواري!

ولأن «سـعدون» هو أيضا رجل عجوز جاوز الثمانين من عمره، فإنه لم يتحمَّل كلام «حجيزي» وقال: ما أحد يخرأ من فمه وهو يصلِّي غيرك يا «حجيزي».

حدَّق «حجيزي» في «سعدون» مقطِّبا جبينه، ثم قال: أنت يا «سعدون» كذاب وابن كلب.

اشـتدَّت المشاكسـة بيـن العجوزيـن، وعـلا صوتاهمـا، لكـن بقـى «حجيـزي» مسـتندا إلى قاعـدة العامود، وبقى «سـعدون» جالسـا راكعا علـى ركبتيـه، بينما صوت ضحـكات خافتة يخرج من صـدور المُصلِّين القريبين منهما، وهناك عند المنبر، بقى «مزيد» جالسا مستندا إليه، يراقب ما يحدث حتى يتدخَّل في الوقت المناسب.

حزَق «سعدون» بصوت غاضب: أنا كذَّاب وابن كلب؟!

ثم أشار بسبابته إلى عجوز ثالث كان يصلِّي إلى يمين «حجيزي» وهتف: اسأل «غنيمة» يقول لك.

لكن «حجيزي» أخذ يتمتم ببعض التَّسابيح، وقد استغرق في الهمهمة، وبدا أن الأمر قد انتهى، وتهيَّأ «سعدون» للقيام من جلسته هادئا، وكأنَّه لم يكن منفعلا منذ دقيقة واحدة، لكن وهو يحاول أن ينصب ظهره، سمع «حجيزي» يقول: «غنيمة» كذَّاب وابن كلب مثلك.

وما أن نصب «سعدون» ظهره، حتى سمع صوت «غنيمة» الذي خرج يكركب: حاسب يا «حجيزي» ولِمْ حديثك.

وعلت الكركبة الخارجة من حنجرة «غنيمة»: يا شيخ «مزيد».

بينما ينظر «مزيد» إلى «غنيمة» كان «حجيزي» يقول: «غنيمة» بالخصوص في فمه رمَّة كلب.

وزعق «حجيزي»: «غنيمة» بالخصوص أم نسيتم؟!

ضرب «سعدون» الهواء بذراعيه فترجرج جسده البدين المترهِّل، ورفع صوته، وكان «مزيد» متَّجها إليهم وهو يضحك.

قال «سعدون»: يشتمنا في بيت ربنا يا شيخ «مزيد»!؟

قال «مزيد» وهو يرقِّق صوته ناظرا لـ«حجيزي»: ما ينفع يا عم «حجيزي» تشتم النَّاس في بيت الله!

لوَى «حجيزي» شفتيه، بما معناه أن الكلام لا يعجبه، ثم رجع يهمهم بالتَّسابيح، واتَّجه «غنيمة» بخطوات كسولة إلى باب المسجد، يتمايل بجسده الممصوص وهو يتساند على ذراع «سعدون» السَّمين، وابتعد «مزيد» إلى النَّاحية التي فيها أرفف عليها الكتب ذات الأغلفة السَّميكة المذهَّبة، التي يقرأ لهم منها أحيانا في الوقت ما بين أذان العشاء وإقامة الصَّلاة، وقبل أن يخرج العجوزان من الباب، بالضَّبط وهما يتساندان ليعبرا الحاجز الخشبي الواطئ، علا صوت «حجيزي»: «عنز» سندوها على «جاموسة».

علت برطمة «سعدون» وكركبت حنجرة «غنيمة»، وهتف «مزيد» بنبرة لوم: يا عم «حجيزي»!

* * *

حتى الشيخ «مزيد» يترك المسجد ويذهب إلى بيته، ويبقى «حجيزي» وحيدا، وليس معه إلا السُّكون، فيسمع بجلاء شقشقة العصافير التي تتهيَّأ ليوم جديد، وتنساب إلى المسجد نسمات لها رائحة البحر، يتعجَّب لرائحة هذه النَّسمات، فليس حول «الوعرة» بحر، ولا حتى بحيرة، حتى ترعة! فمن أين تأتي هذه الرَّائحة المنعشة؟

«لا بد أن هذه الرِّيح الطَّيبة تسافر آتية من عند بحر العلمين».

..... شقشقات العصافير تبدأ في الخفوت، وتباشير نور الصُّبح تلوح وهي تزيح الظَّلام من أمام باب المسجد، الشَّمس على وشك الشُّروق.

«من الذي بنى هذا المسجد؟».

يرفع رأسه ويتأمل السَّقف، عالٍ نسبيا، وتحته تقاطعت عروق خشبية غليظـة، تدلَّت منها سلاسـل حديدية قديمة خبا لمعانهـا، هل كانت هذه السَّلاسل، زمان، تحمل قناديل زجاجية موشَّاة بألوان متشابكة؟

ثم تَرتَع عيناه في تجويف القبَّة، تجويف دقيق ومضبوط بالشَّعرة، به فتحـات مدوَّرة متناسـقة، هي التي يدخـل منها النُّور الهـادئ إلى صحن المســجد، وهي التي تنفذ منها رائحة ماء البحر، وعلى الرغم من أن القبَّة تبدو من الخارج صغيرة نوعا ما، إلا أن تجويفها يبدو من الدَّاخل شاهقا، ويسحب الرّوح.

«لماذا بنوه بدون نوافذ؟».

ينهض، ويتجه إلى الباب، يرفع إحدى قدميه ليعبر الحاجز الخشـبي، ثـم الأخـرى، فيتلقَّـاه النُّـور، واحمـرار أفـق الشُّـروق، دقائـق وتسـطع الشَّمس.

صـوت «مزيد» يتمايل فـي أذنيه: «اغلق باب المسـجد بعد أن تخرج حتى لا تدخل البهائم».

يسـحب البـاب الثَّقيل وهو يبتسـم، فقد كانت تلوح فـي عقله صورة الماعـز المسـتندة علـى ذراع الجاموسـة، «سـعدون» و «غنيمـة» وهمـا يخرجان من المسجد.

* * *

خرج «بكير» مسرعا وراء أبيه، وكانت الدَّهشة التي أصابته وهو يرى «حجيزي» يترك المسجد قبل أن يصلِّي الصُّبح قد طيَّرت النُّعاس الذي يغالبه وهو ينتظر الصَّلاة.

- يا والدي!

كان «حجيزي» قد أيقن أنه مازال يعيش داخل الرّؤيا، فلم يحدث أبدا منذ صار فتى يافعا أن ترك صلاة الفجر في المسجد، طالما هو موجود في البلد، ويتركها بهذه الطريقة الغريبة! عندما يحدث هذا فلابد هو يحلم.

«أنا أخرج من المسجد وأترك الصَّلاة؟!»

«أنا كنت أصلِّي ركعتي السُّنَّة وقدماي في الخُف؟!»

سمع نداء «بكير»: يا والدي.

«حتى صلَّيتُ من غير ما أتوضأ!».

انبسط وجه «حجيزي» من غير أن يبتسم، طالما أنه ما زال يحلم فهناك أمل في ألا يكون التفسير النهائي للرّؤية هو الموت حتما بعد ثلاثة أيام.

«لكن هذه أطول رؤيا رأيتها في منامي! متى تنتهي؟! هذي بقت حكاية وليست رؤيا».

- مالك يا «حجيزي» يا والدي؟ تركت المسجد قبل أن نصلِّي!؟

«حتى صوت بكير مختلفا، عميقا كأنه خارج من بئر».

وارتفع من عند باب المسجد صوت «مزيد» وهو يقيم الصَّلاة، فأمسك «بكير» بيد «حجيزي» يريد أن يستدير به ليعيده إلى المسجد، لكن «حجيزي» سحب يده، ومضى نحو البيت، بينما «بكير» هرول مسرعا عائدا إلى داخل المسجد ليلحق بالرَّكعة الأولى، ووقف في الصَّف، وقلبه وعقله يضطربان من تصرفات «حجيزي».

* * *

يا لروعة صدح العصافير في الفجر. كان يسمعها دائما من داخل المسجد، فلم تكن نابضة بقوة كل هذا النبض، لكنها الآن شقشقات غزيرة تنهمر مثل مطر السِّيول.

«حتما أنا أحلم».

همس بارتياح: الحمد لله.

اتجه نحو المصطبة الصَّخرية التي كان نائما عليها، ومال ليطوي فرشته كما هو معتاد، لكنَّه انتصب دون أن يطويها.

«هاه. أمارة جديدة على أني مازلت أحلم، طوال عمري أطوي فرشتي بعدما أستيقظ، وهذه المرَّة لم أطوها».

اتَّجه إلى بوَّابة البيت، بوابة كبيرة تتسع لمرور جمل مكتمل بأحماله، فدفعها ودخل متأنِّيا، كانت «سريرة» تجلس على ركبتيها وقد افترشت المصلاة تحتها، تتلو التَّشهُّد وهي تحرِّك سبَّابتها اليمنى حركة رتيبة إلى فوق وتحت، بينما كفَّاها يرتاحان على ركبتيها، ووقف برهة يتأمَّل «سريرة».

«مـن زمـن طويل لم أر سـريرة وهي تصلِّـي. وعِزَّة جـلال اللّه أنا في حلم».

يدلف من مدخل البيت الوسيع إلى صحنه الخلفي الشَّاسع الاتِّساع، المزروعة فيه شجرة تين عمرها أكبر من عمر أبيه «شديد»، الذي مات من سنين لا يعلم عددها.

- يا «حجيزي».

نـادت «سـريرة» بصوتهـا الذي شـرخه الزمـن، إذ أن «سـريرة» امرأة عجوز أكملت عامها السَّبعين.

«بكير يقول هذا».

التفـت «حجيـزي» إليها ببـطء ممـزوج بالاندهاش، فرآهـا تنظر إليه هي الأخرى مندهشـة، لم ينتظر ما سـتقول، هو يتوقَّعه، لذلك هزَّ ذراعه، ومضى إلى فسحاية البيت.

«ستقول لي لماذا جئت مبكِّرا من صلاة الصُّبح؟»

«ماذا أقول لها؟ إننى أحلم!».

«لكنهـا نادتنـي باسـمي! سـريرة قالـت يـا حجيـزي! أنـا مازلت في الرّؤيا».

وعندما وصل إلى التينة، جلس على «الدكَّة».

غبشـة الفجـر، ودجاجـات تتقافـز تنـط مـن فوق أغصـان التِّينـة إلى الأرض، ووجـه «حجيـزي» بـدا الآن واجمـا، لقد ضرب ضـارب قلبه:

«أنت لا تحلم يا حجيزي، ليست هناك رؤى بهذا الطول، الرؤيا حدث سريع وينتهي، بينما أنت الآن ترى تفاصيل حياتك».

- يا «سريرة».

«أنا أنادي سريرة باسمها؟!»

«سريرة» قادمة تتوكَّأ على عصا من جريد النَّخل الجاف، بينما تحمل بيدها الأخرى إناء من الفخَّار مملوءًا باللبن الرَّائب، فطور «حجيزي» الذي يعشقه.

- «مستعجل دائما! اصبر».

قالتها وهي متذمِّرة كعادتها، وستضع الإناء بجواره وهي تقول: ما في مرَّة تأخذ الإناء من يدي وتريحني!

وستستدير وهي تتوكَّأ على عصاها لتمضي عائدة إلى مدخل البيت، بينما تقول كلاما يسمعه ولا يفسِّره.

في كل صباح، لا يأخذ منها الإناء، لأنه يريدها أن تضعه بجواره وتجلس معه وتحكي له، لكنَّها لا تفهم، ولا يحب أن يوضِّح أمورا يجب أن تشعر بها امرأة الرَّجل من غير إشارة.

لكنه اليوم، ولأول مرَّة منذ زمن بعيد، هتف يناديها قبل أن تأتيه، كان يريد أن يحكي لها عن حاله القاسي الذي قلب كيانه.

* * *

عندما يجلس «حجيزي» على الدكَّة تحت التِّينة، يكون الباب الجريدي لحظيرة الأغنام على يمينه، ولمَّا يجلس تبدأ الأغنام في الحركة، وبعضها يطل عليه من خلف شبكة الباب الجريدي، تكون الشَّمس قد أشرقت، ويكون «حجيزي» يدلق في جوفه آخر قطرات من اللبن الرَّائب عندما يعلو ثغاء الأغنام والماعز فجأة، فهي تعرف أن «حجيزي» سيضع الإناء فارغا على «الدكة» ثم يتجه إليها، ليجذب الباب ويفتح الطريق لها لتنطلق من الباب الخلفي للبيت، إلى مرعاها البعيد في قلب الصَّحراء.

لم تستدر «سريرة»: الشَّمس لم تشرق بعد، وأنت ما صلَّيت الفجر في المسجد، خيرا!

وانتبهت إلى أنه لم يمدَّ يده نحو الإناء بلهفة مثل كل صباح.

كان يفكِّر «يقول لها، أم لا يقول؟» عندما ظهر «بكير» ووجهه مربدًّا بالانزعاج، وهرول ناحية «حجيزي»، وجلس بجواره وبينهما الإناء.

- مالك يا «حجيزي»؟! لماذا لم تُصلِّ معنا؟!

لم يكن «حجيزي» يعرف كيف يقول ما هو فيه، فبقي صامتا، وكانت الأمور تسوء بالنِّسبة إليه، وتمنَّى، أكثر من أي وقت مضى، أن يكون كل ما يحدث الآن هو حلم، حتى لو كان حلما رذلا.

«حلم رذل خير من حقيقة رذلة».

- يا والدي، تدخل المسجد والخف في قدميك!؟

«سريرة» بحلقت عينيها، كانت عيناها، رغم ذلك، ضيقتين كخرزتين غطَّاهما سحاب شفيف.

- تسكت يا «بكير» أم أضرب وجهك بالقعبة؟

وامتدَّت يد «حجيزي» نحو الإناء المملوء باللبن الرَّائب.

وقف «بكير» يتحاشى غضبة «حجيزي» وقال: خلاص يا «حجيزي».

ثم قال: الشِّيخ «مزيد» وبعض رجال «الوعرة» جاءوا يطمئنون عليك.

- جاء معهم «سعدون»؟

كان «حجيزي» يسأل هذا السؤال، وهو يمدُّ يده نحو القعبة ليشرب ما فيها.

التفت «بكير» إلى «سريرة» وقد فتح فمه مشدوها، وهمس متعجبا: «سعدون»؟!

ثم نظر إلى أبيه وقال: «سعدون» مات بالأمس يا والدي، وأنت غسَّلته، ودفنته.

وارتعد قلب «سريرة»، وكادت تسقط على الأرض، ووقف شعر «بكير»، لمَّا عوى «حجيزي» وهو يقوم ويمشي نحو الباب الخلفي: يا «سعدووون»، يا «سعدوووون»، دفنوك يا «سعدووون».

ثم يدوخ ويقع.

2

تَعَالَ انظُر لِعَظَمَةِ ربِّك

كان «حجيـزي» قـد صلَّى الفجر في المسـجد، وجلس جلسـته التي يُسـبِّح اللّٰه فيها، ويشم النسيم الذي لا يشك أبدا في أنه قادم من عند بحر «العلمين»، ويسـتمع لشقشقات العصافير البعيدة، ويسأل نفسه عن كيفية بناء هذا المسـجد، في هذا اليوم طرأ على عقله سـؤال: «ماذا تعني كلمة النُّشور؟».

«الدُّعـاء كلـه ماذا يعني؟! واللّٰه الشَّـيخ «مزيد» هـذا يُعلِّمنا كلاما من رأسه له العجب، قال «الحمد للّٰه الذي أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النُّشور»، أقوله بعد ما اسـتيقظ! لِمَاذا أقوله بعد ما أسـتيقظ؟! النَّوم ليس موتا حتى أحمد اللّٰه بعدما أستيقظ على أنه أحياني!...».

ولـم يكمل «حجيزي» تأمُّلاته، إذ أن «سـعدون» ملأ بجسـده البدين باب المسـجد، يقف وهو ينهج، وجسـده يرتعش، وقال بصوت متقطِّع: قُم يا «حجيزي»، تعال انظر لعظمة ربك.

وبينمـا هـو يقـوم، وضع السِّـبحة فـي سـيَّالته، وقـال: مالك يـا آكل أهلك؟!

خرج «حجيزي» من المسـجد، ومشـى بجوار «سعدون»، ودخلا في مـدق بين بيوت مبنيَّة من الطوب الرَّملي تتسـاند إلى بعضها، حتى وصلا إلى بيت «سعدون».

هسيس الصَّباح يطلع بطيئا، ونور رضيع يحبو في مشارق السماء.

قال «سـعدون» وهو يفتح البوَّابة الثَّقيلـة: أمور ما يُجريها إلا صاحب العظمة.

دخـلا البيت، وعبـرا المدخل الضَّيـق كدهليز، كلما عبـر «حجيزي» هـذه المداخل الضَّيقة لبيوت الـ«الوعرة» حمد اللّه أن بيته ليس مثل هذه البيوت، نعم هي تتَّسـع بالداخل، حيث الأماكن التي يُجفَّف فيها الزَّيتون والبلح في موسـميهما، وحيث الزَّرائب أيضا، وأحـواش البهائم وغرف الخزين، لكنها ليسـت متَّسـعة مثل بيته، ومثل البيوت الأخرى التي بُنيت حديثا على مشارف البلد.

ألقـى «حجيزي» نظرة سـريعة إلى هـذه الغرفة التي مـازال على بابها قُفل كبير، وهمس محدِّثا «سعدون»، الذي يتقدَّمه إلى الحظيرة التي ليس بهـا إلا بعـض طيور، وخمس نعجات: متى تفتح هـذه الغرفة يا بني آدم؟ مضى على الذي حدث سنين طويلة.

لم يرد «سعدون»، وإنما فتح بوَّابة الحظيرة، وأشار إلى شيء لم يتبين «حجيزي» ملامحه.

اقترب «حجيزي» أكثر وهو يهمس: ما هذا؟!

نور السماء ضعيف، لكنه استطاع أن يميز دلوًا من الصاج، وقد انكفأ فيه شيء ما.

وكان يقترب أكثر ليرى جيدًا، ويقول: هه؟ ما هذا؟!

فقال «سعدون»: عَميت يا «حجيزي»؟!

فزعق «حجيزي»: ما شقشق النُّور بعد يا بغل.

- هذا ذكر الإوز، غرق في دلو المياه!

شهق «حجيزي»، وقال: ذكر إوز يغرق في دلو مياه!؟

قال «سعدون»: هذه الطيور لا تغرق في البحور، لكن إذا أراد الله، تغرق في شبر ماء.

وقال «سعدون»: رأيت العظمة؟!

مدَّ «حجيزي» يده وقبض على ذيل الطائر ورفعه، قال: أنا رأيت الحكمة.

كانت رقبة الطائر قد تيبَّست ملتوية نحو جناحه الأيسر، وثمَّة فزع التصق بعينيه، بينما منقاره مفتوح نصف فتحة، وكانت المياه تقْطُر منه.

نظر «حجيزي» في قعر الدلو، ثمَّة مياه قليلة ما كانت لتُغرق الطَّائر لولا أنه انحشر في الدلو.

تلفت «حجيزي» ينظر في نواحي الزَّريبة، كان يبحث عن شيء.

- ألا تضع إناءً منخفضا تشرب منه الطيور؟

أشار «سعدون» إلى جوارهما: ها هو الإناء، قلت لك أنت صرت أعمى.

كان «حجيزي» مازال ممسكا بالطائر الغريق، فرفعه إلى فوق، وأخذ ينظر في عينيه.

- عجائب يا «سعدون»، في عينيه نفس النظرة التي تكون في عيون النَّاس لمَّا يغرقون.

اقترب «سعدون» وأخذ ينظر في عيني الطَّائر، وهمس: أنا لم أر عيون الغرقى من قبل.

نظر «حجيزي» إليه مقطِّبا جبينه: ما رأيتَ عيني «صالح» ولد «سعداني»؟!

تفتحت السَّماء فوقهما بلون أزرق كثيف.

«سعدون» اربدَّ وجهه فجأة، وقال: نعمل دور شاي.

وبينما يتَّجه إلى أحد الأركان ليأتي بالشَّاي والسُّكَّر، قال: «صالح» ولد «سعداني» أخرجوه من البئر بعين واحدة. ولم أرها.

أخذ يشعل النار في الكانون، وصمت طويلا قبل أن يتكلَّم، وبينما يضع الكنكة في النَّار قال: يا أخي أنا قرفت من الموت وسيرته.

ثم سرسع صوته فجأة، وجسده الضَّخم ارتج، وأخذ ينادي

بصوت مخنوق: يا «جميل»، يا أم «جميل»، يا ولدي، يا أم «جميل»، يا «زليخة».

هرول «حجيزي» وبيده طائر الإوز الغريق نحو «سعدون»، الذي جلس على الأرض منهارا، واستند إلى الجدار، ورفع وجهه إلى فوق: النَّار أكلت «جميل» يا «حجيزي»، ما أبقت منه عينا ولا حتى إصبع رجل، يا ولدي.

ربت «حجيزي» على كتف «سعدون»: سنون مضت يا «سعدون». لماذا تتذكَّر الآن...

لم يكمل كلامه، إذ أن «سعدون» ضرب الطَّائر الغريق بكف يده، فأطاره من قبضة «حجيزي»، وزعق: أنت أتيت بسيرة ولد «سعداني» يا «حجيزي».

غلى الشَّاي وفار، وتصاعد دُخَان من الكانون يحمل رائحة شاي بسكَّر محترق.

«حجيزي» نظر إلى الطَّائر الذي ارتطم بباب الزَّريبة، وسقط منقلبا على ظهره، ورأى «سعدون» يعمل شايا جديدا.

جلس «حجيزي» على الأرض واستند بظهره إلى الجدار: أنا أعرفك يا «سعدون»، أنت كلب، أنا كنت قاعد في المسجد مع نفسي، وجئت تهرول إليَّ وتقول تعال انظر إلى العظمة.

وأردف: أنا جئتُ إليك أم أنت جئتَ إليّ؟!

- احك يا «حجيزي» في سيرة أخرى غير الموت.

مد «حجيزي» يده، وتناول كوب الشاي من «سعدون» وصمت.

نور الصباح انسكب، وملأ الأرض، و«حجيزي» أفرغ كوب الشاي بثلاث رشفات طويلة، ونهض واقفا.

- أروح إلى غنمي أرعاها.

وبينما «حجيزي» يريد الخروج من بيت «سعدون» سمع صوته متحشرجا خلاص يا «حجيزي» أنا كرهت الموت.

«سعدون» يتكلّم وهو ينظر إلى جثّة الطّائر المقلوب على ظهره، وقد التصقت ساقاه بريش مؤخرته.

و«حجيزي» يمضي نحو البوّابة، فنظر إلى الحجرة المغلقة بالقُفل، وحاول أن يجعل صوته عاليا وهو يقول: لو كرهت الموت افتح هذه الغرفة!

فنظر «سعدون» إلى الغرفة.

* * *

«مهما حكينا من قصص ممتعة، لم نكن نستمتع بسماعها مثلما كنا نستمتع بسماع حكايات الموت».

خطا «حجيزي» من البوّابة فصار خارج بيت «سعدون»، وما أن مشى

خطوتين حتى توقف، وهمس لنفسه: ما قلت لـ«سعدون» الحكمة التي رأيتها.

استدار عائدا إلى بيت «سعدون»، لكن ما أن خطا خطوة واحدة حتى تصلَّبت قدماه، وغامت البوابة في رؤية عينيه، وانسحب نور الصَّباح الربَّاني فجأة ليكون ظلام منتصف الليالي، وأنوار ألسِنَة لهب عظيمة تتقلَّب على جدران البيوت الملتصقة بيت «سعدون»، وناس «الوعرة» يجرون قادمين نحو بوَّابة «سعدون» وهُم يتصايحون، وصياحهم يمتزج بهسيس النيران وهي تأكل البيت من الدَّاخل، وخشب تعلو طقطقاته، وثغاء مذعور، وصرخات امرأة ملتاعة: يا «جميل»، يا ولدي.

رأى «حجيزي» نفسه يغالب تدافع النَّاس الدَّاخلين والخارجين، ويدلف إلى داخل الدار.

راعته النِّيران الفتَّاكة، وراعه هزيمها وهي تبتلع نظام البيت ولا تبقى منه إلا الرماد، كانت النيران تزوم مثل ضِبَاع تخشى ضياع الرِّمم، وأم «جميل» تصرخ صرخات الموت، وهي غارقة في النِّيران التي عبَّأت حجرتها، والنَّاس ينظرون إلى جسمها الذي يذوب ويتراقص مع تراقص الألسنة المسعورة، بينما تحتضن جسدا صغيرا يتراقص ويذوب هو الآخر، ورغم أن العجز ملأ عيون النَّاس، إلا أن أيديهم العفيَّة كانت تدفع، بكل ما أوتيت من قوَّة بالأواني، فتنطلق منها الرِّمال مثلما تنطلق من بؤرة عاصفة.

«أين سعدون؟!»

أخذ «حجيزي» يُنقِّل عينيه في وجوه الناس المحمرَّة باللهب، يبحث عن «سعدون»، ويخترق الزِّحام، حتى استطاع الوصول إلى عمق البيت، حيث الزَّريبة.

النِّيـران أفـاعٍ عظيمة تلتهـم كبد السـماء، وتلتهم الأغنـام، التي أفلح النَّـاس في فتـح بـاب حظيرتها، تتقافـز فزعة، وقـد أمسـكت النِّيران في أصوافهـا، إلى خارج الزَّريبة، ثم تنطلق إلـى الصَّحراء من الباب الخلفي مثل سهام مُفَوَّقة.

كان البعـض يرمي بالرِّمال على الأغنام محاولا إطفائها، فإذا انطفأت نيـران إحداهـا ظلَّـت تتقافـز، بينما ينبعـث منها دخـان برائحـة الصوف المحترق.

«أين سعدون؟!»

غرفة الخزين، الغرفة الوحيدة في البيت التي لم تمسَّها النَّار، ومع أنه لا أحـد من أهل «الوعرة» ينـام في غرفة الخزيـن، إلا أن «حجيزي» فكَّر فـي أن «سـعدون» ربما يكون نائما فيهـا، فدفع بيده بابهـا المغلق فانفتح بسهولة، ولمح على ضوء النِّيران الجسد الضَّخم ملقى على أحد الأجولة المملوءة بغلال الذُّرة الشاميَّة.

لأوَّل وهلة ظنَّ «حجيزي» أن «سعدون» ميت، فاقترب منه ببطء، وهو يفتح فمه متهيِّأً للصراخ، لكنَّه لمَّا اقترب منه تماما لاحظ أن جسده يرتعش، كان «سعدون» مستلقيا على ظهره وذراعاه مفرودتان ومرميَّتان

متدليتان على جانبي الجوال الذي كان ينام عليه، وخُيِّل لـ«حجيزي» أن «سعدون» فاتح عينيه، كان في الحقيقة مسبلا عينيه، وعرق غزير يتفصَّد من جبينه، كأنه يصارع وحشا، فصدره يعلو ويهبط من غير نظام، ويأخذ نفسه خطفا، فيشخُر مثل بقرة تذبح.

- «سعدون».

صرخ «حجيزي» وهو يلطم بيده وجه «سعدون» لطمة خفيفة، لكن «سعدون» لم ينتبه، كان يزوم، ويحرك رأسه كأنَّما يتعارك.

- «سعدون».

«حجيزي» ينادي عليه وقد قبض بيديه على جانبي رقبته، وأخذ يهزُّه هزًّا شديدا، فاستفاق «سعدون»، واعتدل لاهثًا، وهتف بصوت مخنوق: كابوس شديد يا «حجيزي».

أخذ «حجيزي» يمسح بطرف جلبابه العرق من جبين «سعدون»، ويقول: خيرا، خيرا.

قال «سعدون»: رأيت يا «حجيزي» النَّار تأكل البيت. أكلت «جميل» وأم «جميل»، وكانت...

ولم يكمل كلامه.

هوى «حجيزي» برأسه إلى الأمام فسقط على صدر «سعدون»، وأخذ يعوي، ورأى «سعدون» من فتحة الباب ألسنة النَّار، والنَّاس يروحون ويجيئون وهم يصرخون.

دفع «سعدون» جسد «حجيزي» ووقف مبهوتا، وهَمَّ بالخروج، غير أنه فجأة جلس مكانه، وألسنة النيران تتلوَّى في بؤبؤ عينيه.

* * *

وأُذِّن للصلاة من يوم «الجمعة».

«الجمعة» الأولى بعد ليلة «الثلاثاء» الحزين، ليلة النَّار.

وكان المؤذن دائما هو «سعدون»، ولم يكن أذانه هذه المرة مثل أي أذان أذَّنه من قبل.

صعد الدَّرجات إلى سطح المسجد بتثاقل شديد، وعندما صار فوق السَّطح غرق في وهج الشَّمس، ودارت عيناه تمسحان وسع الصَّحراء، وتصطدمان بالصُّخور الضَّخمة البعيدة، عجيبة الأشكال، التي نبتت من الرمال، صخرة تشبه نصف بغل خلفي من غير ذيل، وصخرة تشبه رأس ديك رومي من غير منقار، وصخرة تشبه صدر عذراء مدفونة منتصبة من غير رأس، وصخرة لم ير ما يشبهها، واقفة بعيدا بعيدا، ضخمة في حجم عمارة من عمارات «أسيوط» التي ترتفع لعشرة طوابق، وصخرة تشبه أم «جميل» وهي تضم إلى صدرها «جميل»، ترضعه.

جرت مياه في عينيه، ورفع كفَّيه إلى أذنيه وناح: اللّٰه أكبر، اللّٰه أكبر.

شهق، ورفع عينين إلى السماء مملوءتين عتبا، وناح ثانية: اللّٰه أكبر، اللّٰه أكبر.

انسكبت دموعه.

..... قال «سعدون»: أنا أذَّنت يا «حجيزي» قدر ما أذَّنت، ما شعرت بحلاوة كلمة «اللّٰه أكبر» مثل ما شعرت بها وقتها...

وسكت قليلا، ثم قال: وأنا أعرف إنه هو الذي أحرق عيالي...

وسكت، ثم قال: تعرف يا «حجيزي»! أنا ما أستطيع أن ألومه، دائما يلبِّي ما أطلبه منه، ويُحضر لي ما أعوزه، أنا المخطئ في هذه الليلة، أنا الذي قلت لـ«بثينة»: الله يحرقك أنت وولدك.

..... جلجل صوت «سعدون» فوق سطح المسجد: أشهد ألَّا إله إلَّا اللّٰه.

صدح بها منفصلا عن الدُّنيا، فسالت دموع «مزيد» وهو جالس على المنبر يتهيَّأ لخطبة «الجمعة».

يا لروعة «لا إله إلَّا اللّٰه» لمَّا تخرج مخلوطة بحزن القلوب.

وتضوَّع صوت «سعدون» منطلقًا في سماوات الصَّحراء، وفي سماوات المسجد: أشهد ألَّا إله إلَّا اللّٰه.

رفع المصلُّون وجوههم إلى البقعة من السَّقف التي يقف فوقها «سعدون»، مآقيهم بحيرات طاف عليها سؤال «مالك يا سعدون تُقطِّع قلوبنا؟!».

..... قال «سعدون» لـ«حجيزي»: قلت «أشهد ألَّا إله إلَّا اللّٰه» وتذكَّرت أنني ظللت أدعوه أنا و«زليخة» ثلاثين سنة كي يعطينا ولدا، وظللت أدعوه أنا و«بثينة» عشر سنين أخرى، أربعين سنة أدعوه يعطيني

الولـد، ولبَّى دعائي وأعطاني، ولـمَّا قلت لـ«بثينة» في سـاعة غضب «اللّه يحرقك أنت وولدك» لبَّى دعائي بعد ساعتين! طيِّب....

سكت قليلا، ثم قال: كان انتظر أربعين سنة ثم لبَّى..

وسكت، ثم قال: أنا فرحان أنه يلبِّي دعائي..

لكـن «حجيـزي» نظـر فـي عينـي «سـعدون» وقـال: فرحـان يا «سعدون»؟!

قال «سعدون» وهو يُجفِّف زوايا عينيه بطرف جلبابه: فرحان.

..... كانـت الرِّيـح تصفق جلباب «سـعدون»، وهو يضـم كفيه حول أذنيه مستغرقا في الأذان: أشهد أنَّ محمَّدا رسول اللّه.

انغلقت حنجرته وانفتحت، وارتعشت شفتاه.

..... قال «سعدون»: تذكَّرت كلام الشيخ «مزيد».

ونظر في عيني «حجيزي» وقال: تذكُر كلامه؟

هـزَّ «حجيزي» رأسـه بالنفـي، ونظر إلى بعيـد، حيث السَّـماء ترتطم بالصَّحراء، وقال: أي كلام؟ الشيخ «مزيد» يتكلَّم كثيرا.

- ما من مصيبة إلا وموت رسول اللّه أعظم منها.

- عليه الصلاة والسلام، أتَذكَّر هذا الكلام.

قـال «سـعدون»: حزنـت علـى رسـول اللّـه ونسـيت «جميـل» وأم «جميل».

أدار «حجيزي» رأسه لينظر في عيني «سعدون»، كانت نظرة شاكَّة، كأنه يريد أن يقول له: أنت كذَّاب يا «سعدون».

..... الرِّيح تحمل الصَّهد، و«سعدون» يستدير إلى اليمين بأعلى جسده، ويزعق: حي على الصَّلاة.

فتلمح عيناه أطراف بيته المحترق، ويختنق صوته.

..... قال «سعدون»: أنت يا «حجيزي» ترحل إلى «موط»، وتغيب عن «الوعرة» أياما، وتغيب أسابيع، لكن أنا ما كنت تركت البلد حتى للرعي، وما تركت فرضا إلا وصلَّيته في المسجد.

سكت قليلا، ثم قال: في كل صلاة أطلب منه الصِّحة والسَّتر.

تنهَّد طويلا وهو ينظر إلى بعيد، حيث ترتطم السَّماء بالأرض، وارتشف رشفة من الشَّاي، وقال: تُجيد «سريرة» عمل الشاي.

وقال: ما يستر الرجل عند الموت إلا عياله، أين العيال؟

وخرج صوت «سعدون» مثل ضب يزحف على بص متأجج: حي على الفلاح.

استدار بأعلى جسده بطيئا نحو اليسار، ليكمل النداء، فرأى الصَّحراء والصُّخور الشَّاهقة النَّاتئة، ورأى المدق المسافر إلى «موط»، رفيعا مثل خيط أبيض يتعلق بالأفق، ورأى في المدق ناقة تركض لها رأس شيطان، تركبها «بثينة» وقد احتضنت «جميل»، وتصعد بهما إلى الأفق.

..... صبَّ «حجيزي» في الكوب الفارغ شايا آخر، ومدَّه لـ«سعدون» وقال: اشرب، اشرب.

قـال «سـعدون»: وأين الفـلاح، وأنا رجـل قاربت على السـبعين من عمري، وليس لي ولد؟! ولا حتى زوجة عاقر!

شـهق «سـعدون»، وأشـاح «حجيزي» بوجهه بعيدا، يـداري دمعتين تنزلقان على جانبي أنفه.

..... كان «سـعدون» على سـطح المسجد قد شعر بنفسه يدوخ، ولم يكمل الأذان بعد، فاستند بيده إلى صهريج المياه، فلسعته سخونته، حاول أن يقف متوازنا، ورفع كفَّيه إلى أذنيه، وتحشرج صوته: لا إله إلَّا اللّٰه.

رفـع وجهه إلى السـماء، ثم مـال بوجهه لينظر إلى بيته المسـود بلون حريـق النَّـار، فـرأى «بثينة» جالسـة في الفسـحاية أمـام الحظيـرة تُرضع «جميل».

للحظـة تهلَّـل وجهه فرحا، لكن سـرعان مـا غامت الدُّنيا فـي عينيه، ودارت فجأة، فالتوى جسـده، وشعر برأسه ينفصل، ثم يطير ويسقط بين الصُّخور.

* * *

وقف الشَّيخ «مزيد» على المنبر.

- الحمد للّٰه رب العالمين، حمدا كثيرا طيبا، حمدا واسعا، حمدا مباركا فيه، حمدا يملأ السَّماء، ويملأ الأرض، ويملأ ما بينهما، ويملأ ما شاء من شيء بعد. وتنحنح الشَّيخ «مزيد».

- وأصلِّي وأسلِّم على المبعوث رحمة للعالمين، خير خلق اللّٰه أجمعين، خاتم النَّبيين والمرسلين، صلاة وسلاما دائمين متلازمين إلى يوم الدين.

وبعد برهة صمت قصيرة قال: أما بعد...

..... عجيب، المسجد ضيق، لكن صوت الشَّيخ «مزيد» يتردد بين جدرانه كأنه يتردَّد بين صخور الصَّحراء.

..... يقول اللّٰه تعالى في محكم تنزيله، بعد أعوذ باللّٰه من الشيطان الرجيم: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ﴾.

..... «سعدون» يجلس مستندا إلى أحد جدران المسجد، يضع ذراعه مفرودة على ركبته اليمنى المنصوبة أمامه، بينما فرد ساقه الأخرى، صدره يعلو ويهبط، ورفع وجهه ينظر في فراغ القبة.

«سعدون» عندما سقط، بعدما أنهى الأذان، أحدث ارتطام جسده البدين بأرضيَّة السَّطح صوتا مكتوما داخل المسجد، فهرع بعض المُصلِّين إلى السَّطح، وحملوه، وبصعوبة شديدة نزلوا به السلَّم العتيق الضَّيق، وما أن مدَّدوه على الأرض حتى أفاق.

..... قال الشَّـيخ «مزيد»: ولقد أخبرنا رسـول اللّٰه ﷺ أن أشد النَّاس ابتلاء الأنبياء، ثم الأمثل، فالأمثل، فالأمثل. ولقد ابتلى أخونا «سعدون» ابتـلاء عظيما منذ ليلتين، فـإن هو صبر، صار من هـؤلاء الأماثل الكرام، ففـاز فـوزا عظيما، ولتعلم أخي المسـلم، أنه كلَّما عظـم إيمانك عظمت مصيبتك...

..... يرفـع الشِّـيخ «مزيـد» عقيرتـه مواصـلا خطبتـه، ورغـم ذلك، «حجيزي» الجالس مسـتندا بظهره إلى العامود الكبير في منتصف صحن المسجد سرح بفكره.

«سـعداني مـا صلَّـى للّٰه ركعة منذ ولدتـه أمه، لم يكـن عظيم الإيمان يوما، وغرق ولده الصغير في بئر الرَّاهب!».

..... الشـيخ «مزيـد» يهتـف: لـم يبلغنا عـن أجدادنـا الأوَّلين قط، أن نارا أكلت خيمة، فما حاجة أجدادنا إلى مصابيح في خيام سـيطوونها في اليـوم القادم، ليرتحلوا خلف قطعانهم؟! لكنَّنا لمَّا خالفنا طبائعنا البدوية الأصليـة، وملكتنا الأرض مثلما ملكت الفلاحين أتباع أذناب البقر، كان علـى الأرض أن تعاملنا مثلما تعاملهـم، وتحرقنا مثلما تحرقهم، وهبكم اللّٰه صحراء الذَّهب وحركة وتغييرا، فآثرتم أرض الطين وسكونا وثباتا.

زعق الشيخ «مزيد»: الحركة هي الحياة، والسُّكون موت، ووقتما كان أجدادنا يتحركون بخيامهم لم تكن هناك حرائق، لأنهم كانوا أرباب النَّار، يسخِّرونها ولا تسخِّرهم، كانت كعبد لا يجوز دخوله خيمة سيِّده ليلا، الآن نحن عبيد النَّار، تسخِّرنا ولا نسخِّرها، لأنه قد صارت لنا بيوت ثقيلة

لا تتحرَّك، فيها أفران للخبيز، وكوانين للطبيخ، وغرف مظلمة تطلب نور النَّار، ولياليها المدلهمة لابد لها من إضاءة...

..... أخذ «حجيزي» يهز رأسه مؤيدا كلام «مزيد»، بينما ينظر طويلا إلى كلمات غائرة في جدار المسجد المواجه للمُصلِّين على يسار المنبر، كتابة لم يفلح الطلاء بالجير في إخفائها.

«كلام كتبه فارس مملوكي هرب من العثمانيين، بعد أن فعل فيهم الأفاعيل في معركة...»

تبدو الحسرة في تجاعيد وجه «حجيزي»، وهو يهمس لنفسه: دائما أنسى اسم هذه المعركة.

نظر إلى يمينه، كان «غنيمة» يجلس بمحاذاته بعد ثلاثة رجال.

«غنيمة لا ينسى اسم هذه المعركة أبدا».

ونظر إلى حيث يجلس «سعدون» مستندا بظهره إلى الجدار، رافعا وجهه إلى فراغ القبَّة.

«وسعدون أيضا».

..... ارتفع صوت الشَّيخ «مزيد»: بيوتنا تبقى طعمة سهلة للنيران، مادام ليس هناك ماء، إلا الماء الصَّعب، ماء الآبار، وطالما ليس هناك طريق أسفلتي يربط بين «الوعرة» و «موط»، الطريق هو صك اعتراف الحكومة بوجود «الوعرة»، الطريق منذ زمن هو حلم أهل «الوعرة»، لكنهم لا يملكون إمكانياته.

الطرق الأسفلتية للمدن الكبيرة، و «الوعرة» مجرد قرية صغيرة، قرية بدويـة، محصولاتهـا الزِّراعية بالكاد تكفيهـا، أما التَّمـر والزَّيتون اللذان يفيضــان، فإن قوافل الجمال تقوم بمهمة نقلها عبر المدق الضيِّق، فلماذا تحمِّل الحكومة نفسـها تكلفة طريق أسـفلتي سـيمتد في عمق الصحراء لأكثر من مائة كيلو متر من غير فائدة تجنيها؟

..... يعلو صوت الشـيخ «مزيـد»: الطريق تحمينا مـن الحريق، وإذا كنـا غير مسـتطيعين للعـودة إلى الخلـف، فليس هناك مهرب مـن التقدُّم للأمام، لنطالب بالطريق، وفي يوم سـيتحقق المطلب، ثم نطالب بأنبوب ماء يجري بمحاذاة هذا الطريق، نشرب منه، ونطفئ حرائقنا.

..... القضيـة لا تهـم «حجيـزي»، بـل إنه ضد فكـرة الطَّريـق تماما، الطَّريق التي حتما سـتأتي بالغرباء، وأخلاقهم الرديئة، وإذا كانت الطَّريق حلمـا لأهل «الوعرة»، فهو حلم بعيـد التحقيق، وأَجَل «حجيزي»، الذي تجاوز عمره المائة عام، قريب، لن يعيش ليرى هذه الطَّريق.

القضية لا تهمُّه، فأخذ يحملق في الكتابة المنحوتة على الجدار يسار المنبر، ويتذكَّر «غنيمة» لمَّا حكى له قصَّتها.

«بقي العثمانيون هنا شهورا يبحثون بين البدو في الواحات عن...».

يهـز «حجيـزي» رأسـه متضايقـا، النِّسـيان آفة، لقد نسـى أيضا اسـم الفارس المملوكي الذي دوَّخ العثمانيين في صحراء الغرب.

«أسماؤهم ثقيلة...».

قال «غنيمة»: ما إن أنهى العساكر العثمانيون بناء هذا المسجد، حتى صلّوا فيه أول صلاة، كانت صلاة العشاء، ولمّا جاءوا ليصلّوا صلاة الفجر وجدوا هذه الكتابة منحوتة على الجدار في مواجهتهم، وتخرج لهم لسانها...

كان «غنيمة» يحكي بقلب فائر، وقد صار الفارس المملوكي «شقمق بيك» بالنسبة إليه بطلا مغوارا، ولا حتى «أبو زيد الهلالي» يدانيه في البطولة، فـ«أبو زيد» الهلالي غالبا يحارب في رفقة الفرسان، وكان أحيانا يقود جيوشًا، لكن «شقمق بيك»، كان وحده يلعب بكرامة جيش إمبراطورية العثمانيين في الواحات، وأهانهم إهانات بالغة.

سأل «حجيزي» «غنيمة» وهو يلعن جهله بالقراءة: وماذا تقول هذه الكتابة يا «غنيمة»؟!

نفخ «غنيمة» صدره، يستعد لالقاء أعظم كلمة قالها أعظم فارس مغوار، قال بالأمس صلَّيت بينكم صلاة العشاء.

فتح «غنيمة» عينيه منبهرا، في كل مرة يقرأ هذه الكلمة كان يفتح عينيه منبهرا، يقلِبون عليه الصَّحراء، ويبحثون عنه وراء كل صخرة، ويفتِّشون عنه جحور الضِّبَان، وهو واقف بينهم يصلِّي العشاء، ولا يشعرون به!

..... تجلَّى صوت الشيخ «مزيد»: أقول قولي هذا، وأستغفر اللّٰه لي ولكم.

وبسط «حجيزي» كفَّيه يدعو اللّٰه، لكن عينيه كانتا متعلقتين بالكتابة المنحوتة.

..... قال «غنيمة»: ونحت الفارس اسمه تحت الكتابة.

أجرى «غنيمة» طرف سبَّابته على الاسم المنحوت: أهاااه.. «شقمق» بيييك.

انفرجت أسارير «حجيزي»: تذكَّرت اسم ابن الملعونة.. «شقمق» بيك.

..... قال الشيخ «مزيد»: قال رسول اللّٰه ﷺ، ما من يوم جمعة إلا وفيه ساعة إجابة، فادعوا اللّٰه مخلصين عساها تكون هذه السَّاعة، اللهم يا أرحم الراحمين، ويا ملاذ المستضعفين، ويا مُجيز المظلومين، اعف عنَّا، واغفر لنا، وارحمنا....

و«حجيزي» يقول: آمين.

وكل المصلِّين يقولون: «آمين»، فتخرج «آمين» واحدة كالهدير، «آمين» تغازل جدران المسجد فترعشها، قبل أن تنطلق من فتحات القبَّة إلى لُجج السَّماء.

«حجيزي» يقول «آمين» وهو لا يسمع صوت «مزيد»، وإنما صوت «غنيمة» هو الذي يطغى: الأتراك قرأوا الكلمة التي نحتها الفارس فارتخت آذانهم مثل كلاب خائبة، ولمّوا أغراضهم، وما جاءت صلاة الظُّهر في اليوم التالي إلَّا وكانوا قد رحلوا من «الوعرة».

وجاء صوت «مزيد»: والصَّلاة والسَّلام على رسول اللّٰه، قوموا إلى صلاتكم يرحمني ويرحمكم اللّٰه.

نزل «مزيد» درجات المنبر، وحصلت حركة في المسجد، النَّاس يقفون ويصطفُّون وهم ينظرون إلى أمشاط أقدامهم، يسوّون الصُّفوف، و «سعدون» لم يقف، وإنما جلس على ركبتيه مستقبلا القبلة.

- «اللّٰه أكبر».

قالها «مزيد» خاشعا، وانتشرت همهمات المُصلِّين بالتكبير.

..... وسمع «حجيزي» قهقهة «غنيمة» قبل أن يقول: حتى ما أزالوا الكتابة. الخجل شغلهم.

..... كان «سعدون» أمام باب الغرفة الموصد بقفل كبير، عندما ناداه «حجيزي» وهو يدلف إلى البيت من البوابة: «سعدون»، جئت أقول لك الحكمة التي رأيتها.

ابتسم «حجيزي» لما رأى «سعدون» يقف أمام الغرفة المغلقة منذ سنين، وقال: نويت تسمع الكلام وتفتح الغرفة؟

وقال: أنا تأخَّرت عن أغنامي، الحكمة التي طلعت بها من موت ذكر الإوز في دلو الماء، هي حكمة من كلمتين، «إرضَ بالمقسوم»، فالسَّعي لِما هو أكثر من المتاح قد يميتنا ميتة تكون عبرة.

قال «سعدون»: لو رأى ذكر الإوز الماء في الإناء المنخفض لمَا غامر بالشرب من الدَّلو!

أمسك «حجيزي» بيد «سعدون» واتَّجه به إلى داخل البيت، كان ذكر الإوز ملقى على ظهره بجوار باب الحظيرة، دلفا إليها، وأشار «حجيزي» إلى إناء الماء الفخَّاري المغروس نصفه في الأرض، والممتلئ بالماء العكر، وإلى الدلو القريب منه وفي قعره القليل من الماء الصَّافي.

أشار «حجيزي» إلى آنية الماء، وقال: كيف لا يرى ذكر الإوز الماء الموجود تحت قدميه؟

واستدرك: إنه لم يرض بالموجود الميسَّر، وذهب يمد رقبته ليشرب من الدلو العميق!

صمت «سعدون»، لكن «حجيزي» قال: «ذكر الإوز هذا أغبى من الضَّب».

3

يَدْفِنُ النَّاسُ أعزَّ النَّاسِ

فتح «حجيزي» عينيه بصعوبة، رائحة بصل تخترق خياشيمه، وشيء ما رطب ولزج يضغط على أنفه، كان «بكير» يحرِّك بصلة مشدوخة على أنف «حجيزي»، بينما رؤوس عديدة منكبَّة فوقه، تكاد تمنع عنه الهواء، وأياد تدلِّك صدره وبطنه أسفل ملابسه.

- إن شاء الله زين.

ورأى وجه «مزيد» يضحك.

كان ممدَّدا على «الدكَّة» تحت التِّينة، وثغاء النِّعاج يعلو، مترادفا مع صوت ولولة «سريرة»، الواقفة عند بوَّابة حظيرة الأغنام، وعندما حاول الاعتدال، ساعدته الأيدي الكثيرة، وجلس يشد الهواء ويتنفَّس بصعوبة، بينما كلام كثير يجري حوله، والعيون تنظر إليه بإشفاق، وهو يهزُّ رأسه فوق وتحت من غير أن يفتح فمه.

السَّماء ابتهجت بضياء ناصع، و «القعبة» المملوءة باللبن الرائب موضوعة هناك على أحد براميل «الجاز» الفارغة، وأخيرا بدأ النَّاس يولونه ظهورهم ويخرجون، يرافقهم «بكير».

قال بصوت خافت وقد نظر إلى «سريرة» التي كانت تقترب: أنا نائم يا «سريرة» أم صاح؟!

قالت وهي تنحني بصعوبة للجلوس على طرف «الدكة»: صاح يا «حجيزي».

فقال «حجيزي» وهو يدلّي ساقيه هامًّا بالوقوف: يبقى الأمر للّٰه يا «سريرة».

وما لحقت «سريرة» تجلس، وإنما سارت تدفع نفسها على عكازها خلف «حجيزي» الذي مضى نحو باب البيت الخلفي.

سطع النُّور في كل أرجاء السَّماء، وأضاءت الصَّحراء، ففاحت ببريق الذَّهب.

أغنام «حجيزي» تثغو متظاهرة، و «حجيزي» جلس على الأرض مستندا إلى الجدار، ينظر إلى الصُّخور الضَّخمة البعيدة، ذات الأشكال العجيبة.

جاء «بكير» حاملا «الجوزة» وهو يشد أنفاسها ليتأجج البص الملتهب فوق المعسَّل، وقدمها لأبيه الذي أخذها بيد خاملة.

– حجر معسَّل سيضبط رأسك يا عم «حجيزي».

لم يفتح «حجيزي» فمه بكلمة، لكن انطلق قطيع الأغنام من الباب بجواره إلى وسع الصَّحراء مثل سهام مُفَوَّقة تعرف أين تصيب، يجري خلفها «سويلم» و «سلمان» ولدا «بكير»، كل واحد منهما يخرج من الباب يجري وهو يزعق: خير صباحك يا جَد.

يقولانها وهما يخطفان نظرة سريعة لـ«حجيزي».

«حجيزي» زعق: «سالم»، «سلمان»، ولد، تعالا.

«سلمان» نظر للخلف وهو يجري وراء القطيع: يا جَد، الغنم تتبعثر في الصَّحراء!

صرخ «حجيزي»: تعال هنا يا ولد، تعاليا، اتركا الغنم، فهي تعرف طريقها في الصَّحراء أفضل منكما.

مضت الأغنام تهرول نحو قطعان أخرى بعيدة تبدو مثيرة غبار الرِّمال في الأفق، وأخذ «حجيزي» يقبِّل الولدين على وجناتهما ورأسيهما وقد غرقا في الدَّهشة، و«سريرة» تنظر من وراء الباب وتبكي، كان «بكير» قد أخذ الجوزة من أبيه، ووقف ينظر إلى «سريرة» التي اتَّكأت على عصاها، واستدارت، وتساندت على الجدار، حتى وصلت إلى جذع نخلة قُطعت منذ زمن بعيد، لكنَّه بقي يضرب بجذور ميِّتة في الأرض، أراحت ظهرها إليه، وأخذت تنشج.

- تعطيان قُبلة لـ«سليم» أخوكما، لا تنسيا، أخبراه أن «حجيزي» فرحان به، قولا له: كان جَدُّك يتمنى رؤية التِّمثال الذي ستنحته. قولا له: جَدُّك يقول لك اعمل أكبر تمثال لـ«سكيرة» وليذهب «رسلان» أبوها ويخبط رأسه في أكبر صخرة في الصَّحراء.

انطلق الولدان نحو الأغنام البعيدة، وكان «بكير» يعطي «الجوزة» لوالده مرَّة أخرى عندما سمعه يهمس: يا «سريرة».

فدخل «بكير» البيت يُخبر «سريرة» وقلبه منقبض.

الجوزة تكركر، وأصوات الأطفال الرُّعاة تأتي من بعيد سارحة على وجه الصَّحراء، صافية مثل النَّدى، يضحكون ويتصايحون، بينما الأغنام تنطلق بتؤدة نحو آفاق أبعد، ومراعٍ أخصب، وعينا «حجيزي» تشبَّثتا بنقطة شديدة البعد، نقطة أبعد من الأفق.

«لماذا يدفن النَّاسُ موتاهم، بأي قلب يدفن النَّاسُ أعزَّ النَّاسِ؟».

«سالم» و «سلمان» ولدا «بكير» صارا نقطتين صغيرتين امتزجتا بسواد القطيع الذي يضرب في ملتقى السَّماء بالأرض، و«سريرة» قادمة تتَّكئ على عصاها، بينما تحمل بيدها الأخرى «قعبة» اللبن، وقد مسحت عينيها من أثر الدموع، وفردت وجهها.

«حجيزي» يسحب نفسا من الجوزة طويلا، وعيناه مسمَّرتان بتلك النُّقطة التي هي أبعد من الأفق، وصوت «سعدون» يتراقص على كركرة الجوزة، قادما من الوجدان: ندفنهم لأنهم يتعفَّنون.

- فطورك يا «حجيزي».

هز رأسه بالرَّفض وهو يشد الدخان من غاب «الجوزة».

فقالت «سريرة» بصوت خفيض متوسل: غيِّر ريقك.

الدخان يخرج من فمه وأنفه كثيفا، لم يكن يدفعه بقوة، يحب «حجيزي» أن يترك الدخان ينساب متماوجا أمام وجهه، فكان الدخان، بفعل نسيم الصَّباح الرَّائق، يتحرَّك ببطء نحو لحيته المهذَّبة وشاربه الغزير كثعابين شبعة تتَّجه إلى أوكارها.

ربت «حجيزي» الأرض بكف يده اليمنى، وقال: اقعدي يا «سريرة».

نادت «سريرة»: «ثريا»، تعالى خذي قعبة اللبن.

جـاءت «ثريا» زوجـة «بكير»، وأخـذت القعبة، وقبـل أن تدخل بها، رأت «سـريرة» تضع العصا إلى الجدار، وتتسـاند علـى كتف «حجيزي» لتسـتطيع الجلـوس علـى الأرض، وكان «حجيـزي» يبـذل مجهودا كي لا يهتز جسده، فيسقط البص الملتهب من على حجر «الجوزة».

ابتسمت «سـريرة» وهي تقول: صلاة النبي عليك يا «حجيزي»، أكبر مني بثلاثين سنة، وأشد مني!

ضحكت «ثريا» وتركتهما ودخلت.

القطعـان بدأت تختفي فـي خط الأفق، ووراء هـذه الصخور العملاقة غريبـة الأشـكال، لكـن أصـوات الرُّعـاة المرحة ما زالت تأتي هامسـة وصافية.

قالت «سريرة» بعد أن استوت جالسة على الأرض بجوار «جحيزي»: شـاخت «سـريرة» وصـارت قبيحة، مثـل هذه الصَّخـرة الملتويـة هناك، صخرة قبيحة بين صخور جميلات.

فقـال «حجيزي» والدخان يتدافع من أنفـه وفمه: مازلت أجمل امرأة عجوز في «الوعرة» يا «سريرة».

حوَّلت «سريرة» وجهها عن الصُّخور بسرعة لتنظر إلى وجه «حجيزي»، وقد فتحت عينيها على آخرهما، و«حجيزي» يقول: كنت أجمل بنت في بنات أيامك.

عينا «سريرة» ضاقتا، فصارتا كخرزتين، وبياضهما اختفى تحت غلالة رقيقة من الصُّفرة، ولم تعد لهما علاقة أبدا بعينيها القديمتين اللتين كانتا مثل عيون البقر، حتى وجهها تكرمش تماما، وامتلأ بتجاعيد غائرة، وإن ظلَّ يضرب بحمرة تشي بجمال فتَّان صَقَل هذا الوجه قديما، فبقي يلمع مثل سبيكة ذهب.

فتحت «سريرة» عينيها على اتساعهما الذي ضيَّقه الزمن، فبان في زواياهما ركام من اصفرار غامق.

«تقول يا حجيزي إني أجمل امرأة؟!».

«وي.. وي.. وي.. وي.. وي».

ولولوت «سريرة» من المفاجأة، ووضعت كفَّيها على الأرض، تستند عليهما لتهم بالوقوف، وزعق «حجيزي»: مالك يابنت الجحش؟!

وأمسك كتفها: اقعدي.

قعدت «سريرة»، وقالت في نفسها: اليوم حالك عجيب يا«حجيزي»!

قال «حجيزي»: أنا يا «سريرة» سأموت بعد ثلاثة أيام.

ابتسمت «سريرة» وقالت: إنَّا للّٰه وإنَّا إليه راجعون، عمركَ يا «حجيزي» عدَّى المائة عام، تريد تخلد فيها؟!

نظر «حجيزي» في عيني «سريرة» نظرة حائرة، وقال: ما تحزني عليَّ يا «سريرة»؟!

ضحكت وقالت: طول عمرك يا «حجيزي» تتكلَّم عن الموت ولا تموت، أنت لن تموت يا «حجيزي»، أنت ستحمل جثَّتي وتدفنها في مقابرنا البعيدة.

ركن «حجيزي» الجوزة إلى الجدار، وغرس بصره في الأرض الرَّملية المدكوكة تحت رجليه: أنا ما أخاف من الموت، أنا خائف من الدَّفن.

* * *

قال «سعدون» لـ«جحيزي»: أنا يا أخي ما أعرف لماذا تخاف من الدَّفن؟!

كانت الشمس في كبد السَّماء تمجُّ النَّار، والأغنام توقفت عن الرَّعي واختارت الرَّاحة في ظل صخرة «الذيب»، صخرة لا يمكن للواقف تحتها التَّعرف على ملامحها من فرط ضخامتها، لكن من بعيد تبدو مثل ذئب جلس على مؤخرته، ورفع صدره ورأسه إلى فوق، يشب من غير ذراعين، وكأنه يريد أن يفترس شمس النَّهار، أو يبتلع نجوم الليل. وبجوار الغنم جلس كل من «حجيزي» و «سعدون» وقد استندا بظهريهما إلى هذه الصخرة.

كانـت «الوعـرة» فـي مواجهتهما، بيـوت كالحة تتسـاند على بعضها كأنَّها تخشـى الانزلاق من فوق الأكمة التي بُنيت فوقها، والسَّراب أسفل منها يجعلها تبدو جزيرة تعوم على سـطح بحر هادئ، انبثقت منه أشجار نخيل لا حصر لأعدادها.

أخرج «سـعدون» السِّـبرتاية الصَّغيـرة من كيس قماش سـميك أعده خصيصا لهذا الغرض، حَمْل السِّـبرتاية وكنكة شـاي صغيرة وكوبين وما يلزم من شـاي وسـكَّر، وبينما يشـعل النَّار في شـريط السِّـبرتاية قال: ما أجبت عن سؤالي يا «حجيزي».

«نصنـع هذه الحياة جميعا، ثـم لمَّا يموت الواحد منـا يعزلونه بعيدا، يدفنونه، أنا بنيت هذه البيوت مع الذين بنوا، وزرعت هذه النَّخيل مع الذين زرعوا، ومشـيت على هـذه الأرض، ورعيت الغنم في هـذه الصَّحاري، هـذه الدُّنيا ليسـت دنيا الذين سـيبقون من بعدي وحدهـم، ولكنَّها دُنيتي أيضا، سـتظل تحمل آثاري، أنا أنجبت «بكير»، و«بكير» أنجب «سـليم» و «سـالم» و «سلمان»، قطع مني ستبقى تعمر هذه الأرض، فلماذا عندما أمـوت يريـدون إقصائي بعيدا؟ من الذي علَّم الإنسـان هذه القسـوة، من الذي علَّم الإنسـان دفن أحبَّائه؟ من الذي أوحى إلينا بدفن أعزِّ النَّاس إذا ماتوا؟».

النِّعاج تمطُّ رقابها على ظهور بعضها، مسـتمتعة بنوم الظَّهيرة في ظل صخـرة «الذيب»، ومن حين لآخـر يعلو ثغاء إحداهـا، فترفع الأخريات رؤوسها تستطلع ما حولها بانتباه شديد.

ارتفعت ضحكة «سعدون»، وقدَّم الشاي لـ«حجيزي» وقال: واه عليك يا شيخ حجيزي! تريد إذا مت تقعد بين النَّاس وأنت جثة؟!

قبض «حجيزي» من الأرض قبضة رمل، وقد صوَّب بصره نحو أسوار بساتين النَّخيل البعيدة الممتدَّة لمسافات شاسعة في شمال «الوعرة»، وكان الرَّمل ينساب هاربا من بين أصابع قبضته، عندما قال هامسا: الونس يا «سعدون».

قال «سعدون»: الونس نعمة.

وقال: لمَّا تذهب «بثينة» لزيارة ناسها، وتبقى هناك أسبوعا، يتحول البيت إلى قبر، وأصير ما أريد دخوله، واللّه كلامك صحيح يا «حجيزي».

وقال: لكن يا «حجيزي» الأحياء فقط هم من يحتاجون الونس.

فقال «حجيزي»: وأنا كم مرَّة أقول لك إنك ما تفهم شيئا يا«سعدون»؟!

* * *

كان «بكير» متمددا على سريره في غرفته، وقد أراح رأسه على وسادة مرتفعة، عندما دخلت زوجته «ثريا» تضحك، وبين يديها القعبة المملوءة باللبن الرَّائب، قالت: وي. وي. وي. لو رأيت «سريرة» و «حجيزي»!

ومدت يدها بالقعبة نحو «بكير»: اشربه أنت، أبوك ما له نفس هذا الصَّباح.

وضحكت جدا وهي تقول: نفسه هذا الصَّباح في أمِّك.

وقالت: لو رأيتهما ما تقول عنهما اثنين من العواجيز، تقول صبايا!

أخذ «بكير» القعبة، ورفعها إلى فمه، وأخذ يشرب، كان يمص اللبن فيصدر صوتًا مثل صوت فأر يقرض قطعة من الخشب الرقيق، وكانت «ثريا» تقول: ما رأيت رجلا في حياتي مثل «حجيزي».

قال «بكير»: كنا سنسافر اليوم إلى «موط»، يجب أن نبيع التُّمور، وراءنا مصالح و «حجيزي» سيعطِّلنا.

إحدى الدَّجاجات دخلت الغرفة، وخطت فيها بضع خطوات متلصِّصة، فهشَّتها «ثريا»، ففرَّت إلى الخارج وهي تقرقر وتضرب بجناحيها، وقالت «ثريا» بينما تنظر لـ«بكير» نظرة استغربها: مهما غربلت الشَّعير يا «بكير» ما يصير قمحا.

فرغت القعبة، وأعطاها لـ«ثريا»، ومسح شاربه، وقال في نفسه: ماذا تقصد بنت الشَّيخ «عامر»؟!

وبصوت عال، تعمَّد أن يجعله غاضبا، قال: ما علاقة الشَّعير والقمح بما نتكلَّم فيه؟!

جاءت «ثريا» وجلست بجوار «بكير» على حافَّة السَّرير، وقالت: في مغارب أمس، دخل «حجيزي» الحظيرة وراء الغنم، وطالت قعدته فيها، قلت لنفسي هو بالتَّأكيد ينظِّف الحظيرة، وقلت أدخل أساعده، ودخلت فوجدته جالسا في ركنها القبلي، لم يكن يفعل شيئا، كان ساكنا تماما، أنا

خفت، لا أعرف لماذا ظننت أنه ميِّت؟! فاستدرت أخرج وجسمي كله يرتعش، لكنِّي سمعته يناديني بصوت خافت، فحمدت الله في سرِّي أنه حي، وذهبت إليه وقلبي مازال يدق كالطَّبل، قال لي وكأنه قرأ فكري: ما عاش «حجيزي» يا «ثريا» حياته كلَّها يفكِّر في الموت، ليموت في النِّهاية تحت مباعر الغنم.

وسكتت «ثريا».

وضرب «بكير» كفًّا بكف، وقال بينما يهم بالنزول من على السَّرير: ما عرفت بعد العلاقة بين الشَّعير والقمح، وما تقولينه الآن!

أمسكت «ثريا» بذراعه وهمست: سُقت عليك النَّبي تجلس، الحكاية ما كملت بعد.

كانت نبرة «ثريا» قد اختلفت، فنظر «بكير» في عينيها.

عينا «ثريا» بحر لبن تسبح فيهما جزيرتا ليل مدوَّرتان، لكنَّهما الآن بحيرتا دماء متوهِّجتين، ونشجت: على نور المغارب رأيت عيني «حجيزي» يا «بكير»، كأنَّهما النَّار، وكانت دموعه تتبخَّر، وحياة سيدنا النَّبي رأيت البخار يتصاعد من عينيه، قال لي: تعرفين يا«ثريا»؟ «سعدون» مات في الصَّباح.

قلت له: أعرف.

قال: منذ ثلاثة أيام مات «غنيمة» فضاقت «الوعرة»، اليوم ضاقت الصَّحراء كلها.

وسكتت «ثريا».

«بكير» مدَّ سبَّابته إلى القعبة في حجر «ثريا»، مسح من جوانبها لبن رائب عالق، ثم مصَّ سبَّابته، قال: ما أحبَّ «حجيزي» أحدا بقدر ما أحبَّ «غنيمة» و «سعدون»، خاصَّة «سعدون».

قالت «ثريا»: كل الذي قاله حجيزي عن موت «غنيمة» و«سعدون» ما أبكاني، أبكاني لمَّا قال: الدُّنيا ما ضاقت عليَّ هكذا يوم ماتت «سريرة».

فتح «بكير» عينيه بأسرع من حرباء تقذف لسانها تريد اصطياد ذبابة، وهتف: هيه؟!

قالت «ثريا»: مدَدت ذراعي ووضعت كفّي على كتفيه، هزَزته وقلت: مالك يا با «حجيزي»، «سريرة» ما ماتت، «سريرة» بالدَّاخل في حجرتها.

قال: «سريرة» في قبرها، مدفونة فيه منذ زمن.

قلت وأنا أشهق: ما تترك موت أبويا «سعدون» يعمل بك هذا!

تقول «ثريا»: خبا نور المغارب، وصارت الحظيرة عتمة، وربضت الغنم تريد النَّوم، وقال «حجيزي» وهو ينهض متساندا على ذراعي: عشرون سنة مضت ما ناديتها باسمها، ولا نادتني باسمي، عشرون سنة ما قلت لها يا «سريرة»، ولا قالت لي يا «حجيزي».

وعند باب الحظيرة نظر في عينّي وقال: تبقى ماتت أم لا؟

«بكيـر» صامـت تماما، ينظر في مرآة التَّسـريحة نظـرة ثابتة، نظرة من يقرأ في كتاب غير مفهوم، و همس: ومال القمح والشَّعير بكل هذا؟!

قامـت «ثريا» من علـى حافة السَّـرير، وضربت بكفها كتـف «بكير»، وزمَّـت شـفتيها، وأخـذت تلويهمـا شـمالا ويمينـا، وقالـت وهـي تهم بالخروج من الغرفة: ما ولدت عقربك يا «حجيزي»!

أخـذ «بكير» الوسـادة الصَّغيرة، وألقاها نحو «ثريـا» وهو يزوم، بينما تهرول نحو باب الغرفة ضاحكة.

* * *

«متى يأتي المُعزِّي إذًا؟!».

مـدَّ «حجيزي» سـاقيه واضعا إحداهما على الأخرى، وسـرح ببصره إلى أفق الصَّحراء. ومن غير أن يشعر قامت «سريرة» من جواره بصعوبة، وهي تتَّكئ على الجدار وعصاها، حتى استطاعت الوقوف تماما.

«طالما سـرح حجيزي فليسـت هناك فائدة من الجلوس بجواره، لن يكون بيننا إلا الصَّمت».

«عشرون عاما تنتظره يا حجيزي ولا يجيء، هل كان المسيح كاذبا، أم أن كل ما حدث ليس أكثر من وهم؟!»

دلفـت «سـريرة» مـن البـاب الموارب إلـى فسـحاية البيـت، اتَّكأت علـى الجـدار، ثم اتَّكأت علـى «المزيرة»، ثـم اتَّكأت على جـذع النَّخلة المتبقي متشبِّثا بالأرض، وأخيرا وصلت إلى «الدكَّة» أسفل شجرة التِّين،

وجلست تنهج، وضعت عصاها إلى جوارها، وجلست تنشج، وغنَّت بالصوت الواطي كلاما باكيا، وندبت «وااهاا وااهاا ياحجيزي».

بالكاد تُسمع نفسها، وبالكاد تَسمع خرير الدُّموع الفيَّاضة من عينيها.

«قلت يا حجيزي كلاما حلوا».

«يحلو الإنسان قبل أن يموت».

خرجت «ثريا» من غرفتها في يدها القعبة الفارغة، فرأت «سريرة» تهتز بجذعها على الدكَّة اهتزازات رتيبة، تميل يمينا وتميل شمالا، وسمِعَتها تترنَّم كأنَّها تعدِّد، فوضعت القعبة على منضدة خشبية متهالكة في الركن الذي فيه فرن الخبر وكانون الطَّبيخ، وأسرعت إليها وقد انزعج وجهها، وارتمت تجلس بجوارها، ثم شدَّتها تحتضنها، وهمست «ثريا» بصوت ملتاع: مالك يا «سريرة»؟!

«سريرة» صارت في حضن «ثريا» جسدا متهالكا يرتج بعنف، بينما فحيح البكاء يتدفَّق من فمها وأنفها.

* * *

صلاة ظهر، والشيخ «مزيد» سلَّم منهيا الصَّلاة: السَّلام عليكم، السَّلام عليكم.

«حجيزي» قال: السَّلام عليكم، السَّلام عليكم.

ثم نظر في وجه الجالس شماله وقال غاضبا: إيه يا وِلِد «فُتحة»! تربِّى في فمك زرزورا؟!

ولِـد «فُتحَة» نظر إلى «حجيزي» وابتسـم، لكـن «حجيزي» رفع كفَّيه مقلوبين إلى ما بين صدره وركبتيه، وأخذ يهزُّهما إلى فوق وتحت، بينما يحرِّك سبَّابتيهما ووسطاهما حركة سريعة، ويقول: تقرأ القرآن مع «مزيد» وفمك يصأصئ، صوصوصوصوصوصو!

لـم يقـل ولْـد «فُتحَـة» شـيئا، وإنَّمـا نهـض واقفا وهـو يبتسـم أكثر، و«حجيـزي» زحف على يديه وركبتيه إلـى العامود، وجلس متَّكئا بظهره إليـه كعادته، وكان يخرج السُّـبحة من جيبه، وولْـد «فُتحَة» قد اقترب من باب المسـجد، وبينما يرفع رجله ليعبر الحاجز الخشبي الواطئ ليخرج، قـال «حجيـزي»: أبوك «فُتحَـة» كلب ابن كلـب، يربِّي في فمه جاموسـة تنعر.

زادت ابتسامة ولْد «فُتحَة» قبل أن يختفي.

لكـن ضحكـة «فُتحَـة» نفسـه علـت مـن آخـر الصَّـف، وراء ظهـر «حجيزي»، ثم علا صوته: يسامحك اللّٰه يا عم «حجيزي».

لـم يهتـم «حجيـزي» بالنَّظر ناحيـة «فُتحَة» وهو يقول: من يسـمعكم تقرأون مع «مزيد» يقول الإيمان في قلوبكم زاد وطفح، وأنتم ولاد كلب ما عندكم دين.

خرج صـوت «غنيمة» عاليـا يكركب: ما الحكاية يـا «حجيزي»، كل صلاة نقعد نسمع كلامك الماسخ هذا؟!

جاء صوت «فُتحَة» يتخبَّط بين الجِد والهَزْل: حسبنا اللّه ونعم الوكيل، على آخر الزَّمان ما عندنا دين!

«حجيزي» انهمك في التَّسابيح، بينما البعض يصلُّون السُّنَّة، والبعض يقوم يخرج.

وكان «سعدون» جالسا على ركبتيه بجوار العامود، عندما قال «حجيزي»: «فُتحَة» الكلب حضر بالأمس دفن «صالح» ولد «سعداني»، الولد ينزلونه القبر، وهو جالس على مؤخرته يدخِّن سجائر!

قال «سعدون»: وما العيب يا «حجيزي»، دائما ناس ينزلون الجثث إلى القبور، وناس يجلسون على مؤخِّراتهم يدخِّنون سجائر، والكل يركبه الحزن!

تمتم «حجيزي»: نرتكب الذُّنوب في مواقف العبر.

قال «سعدون» مندهشا: وأين الذَّنب الذي عمله «فُتحَة»؟!

«حجيزي» وضع السِّبحة في جيبه، ونظر في عيني «سعدون» وقال: رأيتَ جثَّة «صالح» ولد «سعداني»؟! رأيتَها كيف انزلقت إلى القبر بسرعة؟! مثل كل الجثث، لا أعرف لماذا تنزلق الجثث إلى قبورها بكل هذه السُّرعة؟!

قال «سعدون»: اللّه يصبِّر «سعداني» وزوجته.

ثم تمتم: لكن «سعداني» لا يتَّقي اللّه أبدا، ما رأيته في يوم دخل المسجد وصلى للّه ركعة.

كان «غنيمة» قد انتهى من أذكار بعد الصَّلاة، ولم يكن بعيدا، فحبا هو الآخر على يديه ورجليه حتى جلس بجوار «حجيزي» و«سعدون».

«حجيزي» قال: قصدك يا «سعدون» تقول إن اللّه يعاقب «سعداني»؟!

قال «سعدون»: العيال نعمة، المحافظة عليها تكون بتقوى اللّه.

كركب صوت «غنيمة»: أنا أصلِّي الوقت حاضرا، و"الزبير» ولدي تركني من سنين، ولا أعرف خبرا واحدا عنه، يا إخواننا مالها تقوى اللّه وحالنا في الدُّنيا؟! لا أحد فيها خالي من الهم، ولا واحد إلا وكانت شجرة المصائب مزروعة في بستانه.

قال «سعدون»: لكن مصيبة «سعداني» جاءت شديدة، ولده الوحيد، وفي عمره الحلو، بالكاد كمَّل السنتين، كان يروح ويجيء به وقد حمله على كتفيه، والولد يلاغي النَّاس كلها، هي مصائب تدردف على الرؤوس.

رفع «غنيمة» طرف جلبابه ومسح مخاطا تسرَّب من فمه، وصوته كركب: «سعداني» صغير، وزوجته صغيرة، ابن الكلب نطَّ عليها في أوَّل ليلة، ما عدَّت التِّسعة شهور حتى جاءه الولد، ينجب ثانية.

رفع «سعدون» ذراعيه، ونظر إلى السَّماء مخترقا ببصره قبَّة المسجد، وقال بصوت محروق: يا رب احفظ لي «جميل»، تعلم أنه جاء بعد عذاب السنين.

وبينما «حجيزي» يتسـاند على العامود ليقـف، قال: لكن رأيتم كيف قفزت جثَّة الولد إلى القبر؟

هتف «سعدون» وهو يستند بكفّي يديه إلى الأرض ليقوم: قَفَزت!

قـال «حجيزي» وكان قد وقف معتدلا تمامـا: نعم، انزلقت إلى القبر بسرعة!

«غنيمـة» يصغـر «سـعدون» في السـنّ بأكثر من عشـر سـنوات، عبر السـتين عاما بالكاد، جسـمه خفيف، بشـرته تميل إلى سـمرة الأحباش، يحـرص على حلق ذقنه وشـاربه ليلمع وجهه مثل مرآة، بينما يترك شـعر رأسـه مهوَّشـا تحت العمامة التي يطبِّقها فوق رأسـه بطريقـة عفوية، مثل كل رجال الواحات.

وقف «غنيمة» على قدميه، ثم انطلق نحو الحائط المنحوتة فيه كلمات الأمير المملوكي «شقمق» بيك.

نظـر «حجيـزي» نحـو «غنيمـة» وقـال موجهـا كلامه لـ«سـعدون»: صاحبـك المجنـون بالشـقمق هذا، النَّاس بعـد الفرض تصلِّـي ركعتين، لكن هو يذهب يتحسَّس الكلام المنحوت!

قال «سـعدون»: كل واحد فيكما له مـا يجن عقله، أنت يا «حجيزي» مجنون بالموت.

ولما وصلا إلى الباب خرج «حجيزي» أولا، وبينما «سعدون» يخطو الحاجز الخشبي خارجا، استدار برأسه ونظر إلى عمق المسجد، وقال:

واللّٰه أنا أستعجب! لماذا تركوا هذا العامود ناقصا؟! العامود واقف في نصف المسجد كالخازوق!

قال «حجيزي»: ما كان يمكن أن يكملوه، لأنه فوقه سرَّة القبة، هو معمول فقط لترتكز عليه هذه العروق الخشبيَّة الثَّقيلة، يا أخي السَّلاسل المدلَّاة ربَّما زاد وزنها عن طُن!

غمرتهما شمس ما بعد الظَّهيرة.

قال «سعدون»: يمكن جيش العثمانيين لم تكن له خبرة بالبناء!؟

قال «حجيزي» بلا مبالاة: يمكن!

4

الحيُّ ذَاهِبٌ إِلى المَوتِ، والميِّتُ يَحيَا

جاء الإنجليز إلى «مصر»، ورأوا حجم الخيرات المبارك فيها، فقالوا «هذه هي البلاد التي تستعمر بحق»، وعملوا أعمالا لا يعملها المغادرون، وإنما يعملها المخلَّدون فيها، ومن بين ما عملوا، شريطا للسِّكة الحديد يصل ما بين «أسيوط» و «الخارجة»، في صحراء غرب «مصر» القاحلة، حيث رأوا في هذه الصَّحراء ما لم يستطع أهلها أن يروه، رأوا جبالا من فوسفات، وهضاب منجنيز، وحديد، ومعادن أخرى، ورأوا أنه لا يمكن الاستفادة بكل هذه الكنوز، لو لم تكن هناك طريقة سريعة لتصريف الإنتاج إلى مصانعهم في بلاد «إنجلترا»، حيث تُصنَّع هذه المنتجات، لتدخل في منتجات أخرى يعوزها النَّاس في كل العالم. وتكسب «إنجلترا» الأموال الكثيرة، فتصنع مزيدا من البنادق ومدافع الأساطيل البحرية، وتنشئ جيوشا جديدة، لتستولى على بلاد أخرى، وعباد آخرين، وتعمل امبراطورية لا تغيب عنها الشَّمس.

..... لم تكن الشَّمس قد غابت، عندما جلس «حجيزي» و «غنيمة» على فرشة بسيطة من صوف الخراف، تحت شجرة الجمَّيز أمام بيت «حجيزي»، كانا يشربان الشَّاي، ويدخِّنان «الجوزة».

وضجَّة العصافير التي تسبق المغارب بدأت، مئات العصافير تصأصئ في نفس الوقت، ولمسة من عبير نسيم صحراوي، وقمم الصُّخور غريبة الأشكال داكنة في عين الشَّمس، وقبَّة المسجد تنعكس عليها أشعَّة الشَّمس الغاربة، فتبدو قبَّة مبنية من سبائك الذَّهب، وتبدو الجدران البيضاء للبيوت المتلاصقة مثل رخام يشع بوهج أحمر، بينما الجدران المطلية بالجير الأزرق تسطع بلمعة رمادية ساحرة.

شد «حجيزي» نفسا طويلا، ثم نفخه وهو يسعل، وأعطى الجوزة لـ«غنيمة» وهو يقول: العصافير ليست مثلنا، العصافير يا «غنيمة» تصلِّي في اليوم مرَّتين فقط، في الفجر وقبل الغروب.

قال «غنيمة»: تكره الإنجليز يا حجيزي؟

كان «غنيمة» سيُكمل تساؤله، عندما قاطعه «حجيزي» قائلًا: قامت الحرب بيننا وبينهم في «سيوة»، كنت بالكاد عمري أربعة عشر عاما، وكان أبي «شديد» قد أخذني معه في قافلة مسافرة ببعض الرُّهبان إلى دير قبلي «العلمين».

ولمَّا سكت «حجيزي»، همَّ «غنيمة» بالكلام، لكن «حجيزي» قال: كانت هذه المرَّة الوحيدة التي سافرت فيها إلى بحري، لم أر البحر، لكنِّي كنت قريبا منه جدًّا، حتى أنني سمعت وشيش الموج، ورائحة الماء عبَّأت ضلوعي.

سكت «حجيزي»، وسكت «غنيمة».

وعندما طالت فترة الصَّمت، و«غنيمة» يشد الدُّخَان من «الجوزة» من غير كلام، قال «حجيزي»: لماذا تسكت يا «غنيمة»؟! كنت تريد تقول شيئا.

قال «غنيمة»: ما أقول؟! أنت أخذت الكلام كلُّه لنفسك يا«حجيزي»، ما تعطي فرصة لغيرك يتكلم يا أخي! لن أقول شيئا؟!

قال «حجيزي»: لكنَّك كنت تريد تقول شيئا عن الإنجليز يا شيخ.

قال «غنيمة» وهو يعطي الجوزة لـ«حجيزي»: كنت أريد أقول شيئا عن العصافير، لكنِّي لن أقول، تأخذ الكلام وحدك وليس عندك أخذ وعطاء.

دلق «حجيزي» كوب الشَّاي في جوفه، ثم خبط قعره في الصِّينية وهو يضعه فيها، وبان على وجهه الغضب، وزعق: لا تقل شيئا، عجائب أمرك يا «غنيمة»! إمَّا تتكلَّم وحدك، وإمَّا لا تتكلَّم أبدا! لا تقل شيئا يا أخي.

..... لم يجتمع غضبا «حجيزي» و «غنيمة» أبدا، إذا غضب أحدهما لان الآخر بسرعة، كانت طريقة وضع «حجيزي» للكوب في الصِّينية، واحمرار وجهه، يؤكدان أن «حجيزي» غضب فعلا، كان «حجيزي» أحيانا يتصنَّع الغضب ليُرغم «غنيمة» على العودة عن مواقف لا يحبُّها، و«غنيمة» يرجع حرصا على ألَّا يغضب «حجيزي»، لكن «غنيمة» اكتشف حيلة «حجيزي»، فأصبح لا يعود عن أي موقف إلا إذا تأكَّد من أن غضب «حجيزي» حقيقي.

..... - رأيت القطار يا «حجيزي».

- أنت تعرف أني ما رأيته في حياتي، لكن سمعت عنه.

- إذا نظرت إليه من بعيد، شكله مثل شكل الثُّعبان...

- قالوا لي رأسه مثقوب من فوق، ويخرج منها دخان أسود.

- وإذا اقتربت منه تجده بيوتا خشبية لها نوافذ وأبواب، ومربوطة إلى بعضها بالحديد، ولها عجلات من حديد، وتجري على سكَّة من حديد.

- سبحان اللّه، ابن المرأة ما غلبه إلا الموت!

- خذها مني كلمة يا «حجيزي»، سيأتي على ابن آدم اليوم الذي يغلب فيه الموت.

فنظر «حجيزي» إلى «غنيمة»، الذي كان يدلق القهوة في فمه، نظرة انبهار، بينما نور النهار يقترب من الانطفاء.

* * *

نور النَّهار يقترب من الانطفاء، «حجيزي» و «سعدون» يمشيان على مهل عائدَين إلى البيوت، تسبقهما الأغنام وهي تجري. الصَّحراء بدأت تخبو، وأطراف الصُّخور الضَّخمة غريبة الأشكال تضيئ بأشعة الشَّمس التي غربت، و«ضب» يزحف بأقدامه القصيرة فوق الرِّمال، متجها إلى جحره أسفل شجرة من أشجار «العبل» القصيرة، التي تنتشر في بقع متناثرة من الصَّحراء، وبيوت «الوعرة» تبدو من بعيد في بدايات الظَّلام مثل مستعمرة النَّمل، كالحة ومبهمة.

قال «حجيزي»: الموت نفسه لا يخيفني يا «سعدون»، طالما سأموت بين النَّاس، الموت في الونس ليس مشكلة، حتى الغُسل سأتقبله، رغم أنه فضيحة، لكن طالما في الونس سأتقبَّله، يحملونك على محفة فوق أكتافهم، ونس أيضا، لكن الدَّفن! الدَّفن يعني الوحدة يا....

توقَّف عن الكلام، وعن المشي، ونقر الأرض بعصاه التي يرعى بها غنمه، فاصطدمت بشيء يشبه الزَّلطة، مال إليها، وأزاح الرَّمل من حولها، لم تكن زلطة، لكنَّه أمسك بها ورفعها إلى عينيه يتأمَّلها، كانت صَدَفة من أصداف البحر، بالكاد تملأ يده.

قال «سعدون» متعجِّبا: هذه الأصداف لا تكون إلا في البحور.

واستدرك: يقولون إن هذه الصَّحاري كانت في يوم من الأيام البعيدة بحورا وغابات!

وضع «حجيزي» الصَّدَفة على أذنه: وشيش البحر مازال يهمس فيها، نفس الوشيش الذي سمعته لمَّا سافرت مع والدي إلى قِبلي «العلمين».

وغرس أنفه فيها، وشمَّها، وقال: لكن ليس فيها رائحة البحر!

وبينما يواصلان مشيهما نحو البيوت، قال «سعدون»: حظَّك حلو يا «حجيزي»، هذه الأصداف تكون مدفونة بعيدا، وأنت تجدها على وجه الرِّمال!

* * *

نظر إلى الصُّخور النَّابتة على سطح الرِّمال، مثل تماثيل تشوَّهت، كانت منذ آلاف السِّنين جدرانا صخرية عظيمة، هل كانت هنا بيوت

الفراعنـة؟ هـل كانت هنا غابات! وأسـود تصرع الغـزلان، هل كان فعلا قبـل ذلك كله بحـر كبير له رائحة مثل تلك التي يشـمُّها «حجيزي» قادمة من عند بحر «العلمين» بعد كل فجر؟!

«لكـن بحـر العلمين بعيد جـدا، أبعد من التصـور، الرحلة مع والدي استمرت شـهرا تقريبا من السَّـفر المرهق، البحر أبعد من أن تأتي رائحة مياهه إلى هنا».

ربَّمـا رائحة البحر هـذه تنبعث من تحت رمال الصَّحـراء، من باطنها السُّـفلي، حيث تسرسـب البحر في الزَّمـن القديم من بيـن ذرَّات الرِّمال واختفى.

«لكـن مالـي الآن والبحـر؟! ليكـن اهتمامـي بمـا أنا مقـدم عليه من الموت.

آن لي أن أبدأ في تنفيذ الخطَّة، فلن أسمح لهم أبدا بأن يدفنوني».

قـام «حجيـزي» مـن جلسـته، وقبـل أن يدلف إلـى منزله مـن الباب الخلفـي، نظر مرَّة أخرى إلى الصُّخور ذات الأشـكال العجيبة، نظر إليها طويـلا، ثم عـرَّج على الأفـق، وألقى بعين قلبـه نظرة على قطعـان الغنم والماعـز وهي تأكل بنهم مـن كلأ الصَّحراء، بينما الرُّعـاة الصِّغار يلهون ببعض سـحالي الحرباء، أو يجرون خلـف ضَب ضل طريقه إلى جحره، بينما تتعالى صيحاتهم المرحة.

ثـم عبـرت بصيرته هذا الأفق القريب، إلى أفـق آخر أبعد، لا يُرى من هنـا، حيث جبـل الرُّهبان، والأشـجار المتراصَّة أسـفله، والكهوف التي يسـكنها هؤلاء المنقطعون عن دنيا البشـر، وشـعر بالحنين إلى الجلوس مع الراهب «يوأنَّس»، وتمنَّى لو يسمع منه مرَّة أخرى حكايته التَّعيسة مع البنت «سيرين»، كما أنه يود لو رأى الذِّئب ثانية.

«لم تنس الموت أبدا يا حجيزي، قضيت عمرك تفكِّر فيه، وتظن أنك تعرفـه، لكنَّه الآن يطل عليك بوجه لم تعرفه أبـدا، رأيت النَّاس يموتون، والعالـم حولك باق كما هـو، يركض في الحياة بعنفوان الحي، الآن أنت من سيموت، انظر يا حجيزي، واملأ عينيك وصدرك، وودِّع».

دخـل البيت، سـحب النَّاقة من مربضها، وأخرجها إلى تحت شـجرة «الجميز»، وأناخها مرَّة أخرى.

رغـت النَّاقـة رغاء قصيـرا متقطِّعا، وهـي ترفع رأسـها وتنظر حولها، تعرف ما الذي سـيفعله «حجيزي»، لذلك هـي فرحة، رغاء الجِمال يُبيِّن فرحها، أمَّا عيونها فآبار حزن.

جـاء «حجيـزي» بدلو مـاء وصابون وقطعـة من خيـش الأجولة التي يعبِّئون فيها التَّمر، شمَّر أكمام جلبابه القصير، وثنى أطراف سرواله، وبدأ يغسل النَّاقة.

«سأغسل النَّاقة».

«وما الجديد؟! طول عمرك تغسل النُّوق!».

«مـا معنى هذا؟ ما معنى أن هذه المرَّة هي الأخيرة التي سأغسـل فيها النَّاقة؟».

«معنـاه أن هناك مئات من المرَّات غسـلت فيها ناقتك مضت دون أن تنتبه للمتعة في هذا الأمر».

..... السَّـعادة هي جِماع المُتع المنثورة في كل تفاصيل حياتنا، حتى أسـوأ تفصيلة تحمل متعة ما، لكننا في بحثنا المحموم عن السَّـعادة، كُتلة واحدة مكتملة وواضحة، ندهس هذه المتع، ولا نجد السَّعادة أبدا.

السعادة لن تأتي أبدا كُتلة واحدة مكتملة وواضحة.

..... ها هي النَّاقة سعيدة جدا عندما تدعك لها ما أسفل وحول أذنيها، المتعة في أن تجعل هذه النَّاقة تستمتع أكثر وأكثر، ادعك ما تحت حنكها، أسفل رقبتها، استمع إلى رغائها الذي يكاد يغنِّي، واستمتع أنت.

كان قد انتهى من غسـل كل جسدها وهي منيخة، فأقامها وانهمك في دعك بطنها.

متِّع الناقة يا «حجيزي»، متِّع.

..... خرجت «سريرة» من باب البيت تتوكَّأ على عصاها، ثم جلست بعـد جهد على طرف المصطبة، وظلَّـت متوكِّئة بكلتى يديها على انعقاقة عصاها، وسـندت ذقنهـا الغاطس في التَّجاعيد إلى ظهـري يديها، اللتين برزت منهما عـروق الدِّماء الخضراء، وأخذت تنظر إلى «حجيزي» وهو منهمك في غسل النَّاقة.

قالت لنفسها: إذا كان «حجيزي» سوف يموت، فالبكاء الآن ليس عملًا صائبًا، العمل الصَّائب الآن هو أن أملأ عينيَّ منه، وأضع صورته في قلبي.

لذلك مسَحَت العبرات، وخرجت تجلس على المصطبة، وتنظر إلى «حجيزي».

الكلمة التي قالها «حجيزي» منذ قليل، ترن في أذنيها مثل شقشقة عصفور: كنت أجمل بنت في بنات أيامك.

وبسمة ترف على جانبي فم «سريرة».

«حجيزي مازال جميلا، عمره مائة عام، لكن ها هي عضلات تتراقص في سمَّانتيه، وهو يلتوي تحت النَّاقة يغسل ما بين فخذيها وذراعيها، لا يتَّكئ على عصا مثلي».

كانت «سريرة» تسرح بناظريها في جسد «حجيزي».

وبينما يدور حول النَّاقة، رأى «سريرة» جالسة على المصطبة، تسند رأسها على يديها المتشبثتين بانحناءة عصاها، وتُمعن النَّظر فيه.

عينا «سريرة» مختلفتان عن عينيها اللتين عرفهما «حجيزي» طوال السِّنين الطَّويلة التي مضت، تبدوان الآن أليفتين، بل تبدوان داعيتين!!

«استح يا سريرة، مالك وعضلات حجيزي، أكثر من عشرين سنة لم تفكِّري في عضلاته، ولا في أي قطعة أخرى من جسده، تفكِّرين الآن؟! استح يا سريرة».

كلام تقوله لنفسها، ورغم ذلك بقيت «سريرة» تنظر ناحية «حجيزي» الـذي رمقهـا بنظـرة خاطفـة، ثم اسـتدار، وأخذ يصـب الماء على سـنم النَّاقة.

«سـريرة تدعونـي الآن للفـراش؟! نعـم، مـا أنسـى أبدا نظرة سـريرة الدَّاعية لنوم الفراش، نظرة شاربة من ينابيع العهر الصافي».

وشعر «حجيزي» بالمرتخي يشتد، ومد يده بين فخذيه فلم يجد جلدة ميِّتة مدلَّاة، وإنما وجد وتدا يتَّجه للامتلاء، ونظر ناحية «سريرة» فوجدها تبتسم، وعينيها الضيِّقتين غجريتين، والذي كان منبطحا ينتصب.

وقالت «سريرة»: يا «حجيزي».

ووقفت في فتحة الباب، ونظرت إليه ثانية ونادت: يا «حجيزي».

ودخلت تتوكأ على عصاها.

والنَّسـمات حملت أنفاسا ملتاعة نفخها الجوى، فقال «حجيزي» في سرِّه: يا رب، الحيُّ ذاهب للموت، والميِّت يحيا!؟

تـرك النَّاقـة مبتلَّـة من غيـر أن يجفِّفهـا، وراح إلـى باب البيـت. بينما راحت الشَّـمس تضرب فـي مرتفع السَّـماء، وبدأ وهجها ينسـكب على الأرض، وحميمها.

* * *

صحن المسجد في أوقات الظَّهيرة نعمة طيِّبة، إذ يكون رطبا طريًّا، وفي الخارج سكون القيلولة، والجو يدعو إلى الاسترخاء، ومن ثمَّ إلى النَّوم، وكثيرا ما يفضِّل «حجيزي» أن يقضي قيلولته في صحن المسجد.

صلَّى «حجيزي» كعادته صلاة الظُّهر، ثم ذهب إلى بيته وتغدَّى، وعاد إلى المسجد لينام، فوجد «غنيمة» يقف عند كتب الشَّيخ «مزيد»، وقد فتح أحد هذه الكتب بين يديه، وانهمك في النَّظر إلى ما في بطنه.

لا ينام «حجيزي» أبدا طالما هناك أحد في المسجد، وإنما يجلس في مكانه عند العامود مستندا بظهره إليه، ويمدَّ ساقيه، ويبدأ في تأمل أي شيء من تكوينات المسجد.

«الجدران عريضة جدا، يقترب عرض الجدار من متر كامل!».

يتذكر «سعدون»وهو يقول: بنى العثمانيون هذه الجدران سميكة ليحتفظ المسجد بالبرودة صيفا، وبالدِّفء شتاء.

واستدرك «سعدون»: العثمانيون كانوا أتقياء، لذلك اهتمُّوا بالمساجد أكثر من اهتمامهم ببيوتهم.

واستدرك قائلا: تهدَّمت بيوتهم ولم يبق لها أثر، وبقي المسجد الذي بنوه.

لكن «غنيمة» أعصابه انفلتت لما سمع «سعدون» يقول: العثمانيون أحبُّوا اللّه أكثر مما أحبَّه السَّلاطين المماليك، لذلك مكَّنهم اللّه منهم فأهلكوهم.

صرخ «غنيمة» فكركبت حنجرته، وتخبَّط صوته: الأتراك أنجاس أرجاس أولاد كلب، يتكلَّمون من أنوفهم، ويعتقدون أن أي بشر غيرهم عبيد أبناء عبيد، وواحد فقط مثل «شقمق» بيك كسر أنف جيشهم الذي أتى إلى هذه الصَّحراء يطارد فرسان المماليك.

وضحك بغلٍّ ساخر وهو يقول: بيوت؟! الجيوش لا تبني بيوتًا، وإنما تنصب معسكرات من مبانٍ هشة حقيرة، تتركها ببساطة عند الرَّحيل، المعسكرات دائما أضعف من أن تبقى في مواجهة الزَّمن.

نظر «سعدون» بعينين حادَّتين إلى «حجيزي»، وقال: يا «حجيزي»، المماليك جبناء، هربوا إلى الصَّحاري البعيدة عن بلادهم، لكن العثمانيين ما تركوهم.

هتف «غنيمة» وهو يقبض بيديه على جانبي ياقة جلبابه، كأنه سيمزقه: واللّٰه العظيم يا «حجيزي» ما هرب المماليك، المماليك كانوا يستدرجون العثمانيين إلى الصَّحاري الغويطة، أنت رأيت يا «حجيزي» كيف أن «شقمق» بيك جعلهم يسفُّون الرَّمل!

قال «حجيزي»: مالك يا «غنيمة» يا كذَّاب يا ابن الكلب، أنا ما رأيت «شقمق» ولا «بقمق».

فهبَّ «غنيمة» واقفا، ثم هرول إلى الكتابة المنحوتة في الجدار، وأخذ يمسح عليها بكفِّه وهو يهتف: ما رأيت هذا يا «حجيزي»؟! ما رأيت هذا يا «سعدون»؟!

ثـم عاد باتجاههما مهرولا، يقول: صلَّى العشـاء بينهم، وهـم يبحثون عنـه تحت كل حجر من أحجار الصَّحراء، لكنه صلَّى العشـاء بينهم، وما شعروا به.

وجلـس علـى ركبتيـه، متحمِّسـا جـدا، يتكلم وينثـر الرَّذاذ مـن فمه، وفم «غنيمة» أسـنانه مكتملة، وناصعة البياض، لكن إذا صلَّى على يسـار «حجيزي» صرخ فيه بعد أن يسـلِّم التَّسـليمة الثَّانية: في فمك يا «غنيمة» رِمَّة كلب.

و«غنيمـة» يتكلَّم بحماس، حتى أنه ينهج، وحتى كأن قلبه سـيقفز من فمه: تظنَّان «شقمق» بيك صلَّى بينهم وفقط؟! «شقمق» بيك لا بد قتل من عسـاكرهم عشـرة قبل أن يصلِّي، تظنَّانه جاء من مكانه في قلب الصَّحراء ليصلِّي في هذا المسـجد وفقط؟! أهو المسجد الحرام؟! هذا هو مسجد الأتراك الكفرة.

هتـف «سـعدون»: إذا كان هذا مسـجد الأتـراك الكفرة، لمـاذا صلَّى صاحبك فارس الفرسان بين الكفَّار؟!

ضحـك «غنيمـة» بتشـف، وتكلَّم وكأنَّـه قبض على رقبة «سـعدون» وداس عليها بقدمه: ما تعرف لماذا صلِّى بينهم؟! ما تعرف؟!

واستدرك: أنت يا «سعدون» في رأسك هذه، التي تشبه رأس سلحفاة، مخ حمار.

وسكت سكتة مثل لمحة، ثم نظر ناحية «حجيزي» وقال: وأنت لولا ملامة الناس، يقولون شتم الكبير، كنت قلت لك....

وقطع كلامه لما رأى «حجيزي» يجمع في فمه بصقة.

قال «غنيمة» وهو ينظر لـ«سعدون» من فوق إلى تحت: اسمع يا مدعوك يا ابن المدعوك، سأقول لك لماذا صلَّى «شقمق» بيك بين الكفَّار، حتى يغيظهم ويفقع مرارتهم، ولولا هذه الصَّلاة ما كانوا رحلوا والذُّل يركب ظهورهم، ويدلدل رجليه.

قلَّب «حجيزي» وجهه في أنحاء المسجد وهمس: يعنى نحن نصلِّي في مكان بناه كفَّار؟! استغفر اللّه العظيم.

فنظر «سعدون» وهو يفتح فمه وعينيه إلى وجه «حجيزي»: تصدِّق هذا الذي رأسه فارغة مثل قُلل الشِّتاء؟!..

قاطعه «حجيزي»: أسكت يا «سعدون»، أنت صوتك يعجبك، وتريد تؤذِّن، لكن هذا البناء ليس مسجدا، هذا يشبه قدس الأقداس في بِربة للمساخيط، مررنا عليها بقافلة الرُّهبان زمان مع والدي «شديد».

استلقى «غنيمة» على ظهره، وأخذ يغرق في الضحك، و«سعدون» ينظر حوله ببلاهة من يشاهد العجائب.

وهمس «سعدون»: يعني صلاتنا كل هذا العمر باطلة؟!

قال «حجيزي»: نسأل الشَّيخ «مزيد».

واستدرك وكأن الحقيقة تجلت تماما لفهمه: طول عمري أقول مسجد من غير نوافذ! كيف؟

وقال «سعدون»: والعامود المربَّع هذا الذي يقف من غير اكتمال!

قال «حجيزي»: لم أر في قُدس البِربة عامودا مثل هذا.

ثم استدرك: وربَّما كان هناك عامود وأنا الذي لم أنتبه لذلك، أو انتبهت وقتها ونسيت!

قام «غنيمة» وهو مازال غارقا في الضَّحك، وأخذ يخطف الكلمات من بين شهقاته: أنا طول.. عمري.. أقول عليكم.. زوج بهائم.

وبينما «غنيمة» يستدير بكل سرعة ليجري نحو باب المسجد، كانت بصقة «حجيزي» قد التصقت بقفاه.

* * *

قبل كل سفر إلى «موط»، أو إلى أي واحة قريبة أو بعيدة، لابد من غسل النَّاقة، وتعلَّم «بكير» هذا الطَّقس من أبيه، يقول «حجيزي»: الاستحمام ينعش النُّوق.

أخذ «بكير» ناقته، وسحبها إلى خارج البيت، وعندما وجد ناقة أبيه تقف وحدها والماء يَقْطُر منها، أخذ ينظر حوله يبحث عن «حجيزي».

وسأل «بكير» نفسه: هل قرَّر «حجيزي» السَّفر؟!

ورفع عقيرته: يا «حجيزي»، يا والدي.

لم يجبه أحد، فدخل البيت، ورفع عقيرته: يا «حجيزي».

فظهرت «ثريَّا» من خلف شجرة التِّين، وهي تضع سبَّابتها على شفتيها، ونظرة خبيثة في عينيها، وبسمة ماكرة على شفتيها، وهمسَت وهي تشير إلى حجرة «سريرة»: «حجيزي» في حجرة «سريرة».

بحلق «بكير» عينيه، وهمس: ماذا يفعل «حجيزي» في حجرة «سريرة»؟!

هزَّت «ثريَّا» رأسها بدلال، وهمست: ينقُّون التَّمر من شوائبه يا ناصح! قلت لك أبوك اليوم نفسه في أمِّك!

كانت لهجتها ساخرة، لكن «بكير» كان مندهشا لدرجة أنه لم ينتبه لسخرية «ثريَّا»، حتى لم ينتبه إلى أنه استدار مثل ضبع حائر، وخرج من البيت.

ومشت «ثريا» إلى باب حجرة «سريرة» على أطراف أصابعها، وقربَّت أذنها من الباب كثيرا، كانت تريد أن تسمع التنهُّدات، لكنَّها سمعت «سريرة» تقول بحرقة وشوق: متِّعني، متِّعني.

فوضعت «ثريَّا» كفَّها على فمها، ومضت مهرولة والدَّم يضرب خدَّيها.

وابتسم وجه «ثريَّا»، كانت تقول في سرِّها: كبيران في السن، ويعملان عمل الصِّغار، هذي عجائب، الكركوبة تقول «متِّعني»؟!

* * *

الموضوع حلو في ليالي الشِّتاء، وحلو في ليالي الصيف، لكنَّه أحلى في الشِّتاء، العناق والضمُّ ألذ وأطيب، والعري في الصيف أشهى.

في الشتاء، يصلّى «بكير» العشاء، ويأتي إلى البيت، وفي المتَّسع الذي خلف البوَّابة يضع «القروانة» بالقرب من «الدكَّة» التي سيأتي «حجيزي» من صلاة العشاء ليجلس عليها، ويفرد عليه بطَّانية ثقيلة.

يشعل «بكير» النَّار في حطب الأشجار الذي قُطِّع للتدفئة، ويتجمَّع حول النَّار كلُّ من في البيت، «سريرة»، والعيال «سليم» و«سالم» و«سلمان»، وأنا.

«حجيزي» في لمَّة ليالي الشِّتاء، مثل العيال، يحب الحكايات، ما أن يطلب منه عيِّل من العيال حكى حكاية، حتى ينطلق، ودائما حكاياته شيِّقة، لا نعرف من أين يأتي بها، لكن أحلى حكاياته، هذه التي تكون مخيفة، التي يكون الموت بطلها.

كانت نار «القروانة» تلقي ظلالنا على الجدران بعنف، حتى أن هذه الظِّلال كانت تتمزَّق على الجدران بقسوة، و«حجيزي» يقول بصوت تعمَّد أن يجعله عميقا: ما يحلو الكلام إلا بعد الصَّلاة على النَّبي العدنان، كان في واحة من الواحات الصَّغيرة التي تملأ الصَّحراء رجل فقير، وكان هذا الرَّجل متزوِّجا من امرأة تعاني من مرض شديد، وكانت له ابنة صغيرة، عمرها سبع سنوات، في مثل عمرك يا «سلمان»...

«سليم» قاطع «حجيزي»: يا جَدِّي، لا يوجد في واحاتنا فقراء، كل من حولنا يقول إننا يجب أن نحمد اللّه كثيرا لكونه خلقنا أغنياء.

فقـال «حجيزي»: يا ابن الكلب يا «سـليم»، هـذي حكاية، يعني قصَّة غير حقيقية..

وكان «حجيزي» يهمُّ بالتَّكملة، عندما قاطعه «سليم» مرَّة أخرى: لماذا يا جَدِّي تكون الحكايات قصصًا غير حقيقيَّة؟

قال «حجيزي» وهو يعتدل تحت بطَّانيته: ومن قال لك إن الحكايات قصص غير حقيقيَّة؟

- أنت يا جّدِّي قلت هذا الآن!

وكان «سليم» يرفع حاجبيه مستغربا.

فقـال «حجيزي»: عندما تكبر قليلا سـأقول لك كيف يمكن أن تكون القصَّة الحقيقيَّة غير حقيقيَّة.

ثم أخذ يكمل حكايته: فكان الرَّجل لا يسـتطيع شراء الأدوية لزوجته التي يحبُّها كثيرا، فأخذ يفكِّر.....

«سـالم» هو الذي قطع كلام «حجيزي» هذه المرَّة وهو يضحك: هل كان هذا الرَّجل يا جَدِّي يحب زوجته، مثل ما أنت تحب «سريرة»؟!

لكز «بكير» الولد «سـالم» في جنبه، وهو يزعق: يا ولد تحشَّـم، أنت ابن كلب.

أنـا خبَّـأت بِكُمِّ جلبابي ضحكـة رَفَّت على وجهي، و«سـريرة» أنَّت، وحرَّكـت الحطب المشـتعل، وقالت: جَدُّك يا «سـالم» صـار يحبُّ ناقته أكثر من «سريرة».

وأنَّت ثانية.

تجاهل «حجيزي» كلَّ هذا الكلام، وأكمل حكايته: وقعد الرَّجل يفكِّر، كيف يتحصَّل على مال يشتري به الدَّواء لزوجته التي...

وسكت لحظة، ونظر إلى «سالم» نظرة متخابثة، ثم أكمل:... لزوجته المريضة، وبعدما فكَّر كثيرا، لم يجد طريقة غير سرقة أكفان الموتى.

كانت النَّار تخبو، فيضع عليها «بكير» حطبا آخر، فتعود للتَّأجُّج، فتتوهَّج الوجوه الملتفَّة حولها بحمرة اللهب، فتبدو كوجوه العفاريت.

يشعر «حجيزي» بالقلوب حوله، وقد بدأ الخوف يشاكسها، فيلوِّن صوته بلون الرُّعب: فكان إذا عرف أن أحدا مات، لا ينتظر حتى يتبع الجنازة، وإنما يسبق الجميع إلى القبور، ويختبئ هناك خلف صخرة من تلك الصَّخرات الأربع المهولة التي تحيط بالجبَّانة...

يقطع «سلمان» حكاية «حجيزي»: هذا الرجل من بلدنا؟! من هو يا جَد؟!

قال «حجيزي» بوجه ارتسم عليه الغضب الصِّبياني: يا ابن البقرة، قلت لك هذي حكاية، الحكايات قصص غير حقيقيَّة.

هتف «سلمان»: لكن أنت يا جَد قلت إنها حقيقيَّة!

قال «حجيزي» وهو ينظر للوجوه كأنَّه يستجديها الردَّ نيابة عنه: أنا قلت الحكاية قصَّة حقيقيَّة!؟

الوجوه تنظر إليه محتارة، وهي تقول: «قلت».

تقول: «لم تقل»!

- إذا قاطعني أحد مرَّة أخرى فلن أكمل الحكاية، أنا وقفت عن الحكي عند..

قال «سالم»: الرَّجل الفقير كان يسبق الجنازة، ويختبئ خلف صخرة من الصَّخرات الأربع التي...

قال «حجيزي»: يختبئ خلف صخرة من هذه الصَّخرات الشَّاهقة الارتفاع، وينتظر حتى يدفن النَّاس ميِّتهم ويمضون، فيخرج من خلف الصَّخرة ويتَّجه إلى القبر، يحفره مرَّة أخرى، حتى يصل إلى الجثَّة...

يسكت «حجيزي» قليلا، قبل أن يعمِّق صوته، نافذًا ببصره داخل أعيننا المصوَّبة إليه، يقول و ببطء: وعندما يصل إلى الجثَّة، يظل يقلِب ويعدل فيها ليخلع عنها الكفن، والجثَّة تنظر إليه بعينين مفتوحتين نصف فتحة.

ظِلُّ «سريرة» يتراقص على الجدار البعيد خلفها مثل شبح ضخم، وأضواء النَّار تتقلَّب على وجهها، فتبدو مثل جنِّية من جن الصَّحراء.

أكمل «حجيزي»: ويأخذ الكفن، ويتركها عارية، ثم يهيل عليها التُّراب، ويمضي إلى البيت، يعطي بنته الصَّغيرة الكفن، ويقول لها: خذي يا بنتي هذا القماش، اغسليه، وافرديه، حتى أبيعه في السُّوق، فأحضر نقودا، أشترى بها الدَّواء لأمِّك المريضة.

تغسل البنت الكفن، وتجفِّفه وتفرده، ويأخذه الرَّجل الفقير إلى السُّوق، ويبيعه، وبالفلوس يشتري الدَّواء، وبما تبقَّى يشتري طعاما فيأكلون.

كلما خبت النَّار، وضع «بكير» على جمرها الحطب، ونفخ فيها حتى تتأجَّج، فإذا ما أجَّت، انطلقت الأشباح ترقص على الجدران.

قال «حجيزي»: وفي يوم من الأيام، امرأة ماتت محترقة، أكلتها النَّار، فذهبوا يدفنونها، وكان....

قطع الولد «سلمان» كلام جَدِّه، وقال كلمة قلبت حال القعدة: هذه المرأة «أم جميل» زوجة «سعدون»؟

صمت «حجيزي».

صمت طويلا وهو ينظر في «قروانة» النَّار، كانت ألسنة اللهب تتلوَّى على زجاج عينيه مثل أفاع تتهارش، ثم بدأت صور الأفاعي تذوب في ماء طَفَر من عينيه، وانسحب إلى الوراء، وفرد جسده على «الدكة»، وغطى نفسه بالبطَّانية.

قامت «سريرة» تتساند على ذراع «الدكة»، قبل أن تتوكَّأ على عصاها، وتتحرَّك ببطء ناحية حجرتها، وهي تلوي شفتيها مضمومتين يمينا ويسارا.

ولكز «بكير» «سلمان» في كتفه: قلنا اسكت يا ابن الكلب.

وهتف للولدين الآخرَين: خذا هذا البهيم واذهبوا ناموا في أماكنكم.

وأطفأ النَّار بالماء، وغمر الرَّماد بمزيد من الماء، حتى لا يتعالى الدخان الكثيف.

* * *

الدخان الكثيف يتعالى من سقف الحجرة الذي تآكل تماما، ويتدفَّق أيضا من النَّافذة التي فحَّمت النِّيران ضلفتيها الخشبيتين، والنَّاس يتدافعون للدخول إلى الحجرة.

حرارة الوهج لا تطاق، ولابد من إخراج جثَّتيِّ «بثينة» وابنها «جميل»، والكلوبَّات لا تفلح في إزالة عتمة الغرفة، فالدخان يتفجَّر من كل ما هو محترق، وجثَّة «بثينة» غير مرئية، والرمال التي ألقيت لإطفاء النِّيران تغطي أرضيَّة الحجرة، وتغطِّي خشب السَّقف الذي تهالك إلى أسفل، وجُثَّتا «بثينة» وولدها لاشك في أنهما أسفل كل هذا.

تعلو الأصوات، وتختلط، كلها تصف طرقا عديدة لابد من اتِّباعها لإخراج الجثَّتين:

- على مهل، على أقل من المهل.

- ارفعوا الفِلْق هذا.

- لا ترفعوا الرَّمل بالمساحي، أرفعوه بأيديكم يا ناس الخير.

واحد من النَّاس، يقف بجوار الباب، يهمس لآخر يقف وهو يشرئب برأسه، يريد النَّظر إلى داخل الحجرة: لن يجدوا شيئا غير العظام، جسم بني آدم مثل الشَّمع، تذيبه النَّار.

«سعدون» جلس على الجوال الملئ بغلَّة الذُّرة، الذي كان نائما عليه، من غير حركة، حتى عيناه لم تقطُرا دموعا، فقط كان ينظر إلى خارج باب الغرفة، حيث ضوضاء النَّاس، ووشيش النَّار، لكنَّه مال بوجهه، ونظر في عيني «حجيزي» الدَّامعتين، وابتسم!

ووصلت أصوات النَّاس وهي تعلو فجأة: اللّه أكبر، اللّه أكبر، اللّه أكبر.

كانوا قد وجدوا الجثَّتين، بعد أن سحبوا الرَّمل، لم تأكل النَّار لحمهما، فقط أذابته، صهرته، فالتصقا بحيث لا يمكن فصلهما أبدا، وأصحاب القلوب القويَّة رفعا الجثَّتين ببطء شديد، خشية أن يتمزَّقا، وأصحاب القلوب الرَّقيقة فرُّوا إلى الخارج وإلى الأركان، يستفرغون ما في بطونهم.

الجثَّتان بشعتا المنظر، ساح اللحم فتغيرت خلقتهما، هل هذا هو الإنسان الجميل الخلقة؟! ليس جميلا في الإنسان إلا بشرته، هذا الغلاف الغاية في الرِّقة، لكن كلُّه بعد ذلك بشع.

ظل «حجيزي» يجلس على الأرض، تحت رجلي «سعدون»، ودخل ناس الغرفة، ودخل «سعداني» في يده كوب من الصَّفيح ممتلئ ماء، وقدَّمه لـ«سعدون».

لم يمد «سعدون» يده ليأخذ الكوب، فقال «سعداني»: خذ اشرب يا خال. وقرَّب الكوب من فم «سعدون»، الذي ضرب الكوب بيده فطيَّره من يد «سعداني»، وصرخ: لا أريد الشُّرب.

قال «غنيمة»: وحِّد اللّه يا سعدون، وحِّد اللّه.

نظر «سعدون» في عيني «غنيمة» نظرة قاسية، كأن «غنيمة» قد ذكَّره بعدو، فقال «غنيمة»: استغفر اللّٰه العظيم.

* * *

- العصفور دخل القطار في محطة «الخارجة»، دخل العربة المخصَّصة لمدير شركة المعادن، شركة الخواجات الإنجليز، هذه عربة غير كل عربات القطار، هناك عربتان تشبهانها، لكن بقية العربات مسطَّحة لنقل خام المعادن.

النور ينسحب، وبعض الرِّجال يتجهون فرادى إلى باب المسجد، يستعدون لصلاة المغرب.

قال «غنيمة»: العربة ليست مخصَّصة بالتحديد للمدير، بل لأي شخصيَّة أخرى مهمَّة، المهندسين مثلا، والزوَّار من «مصر» المحروسة، الخلاصة، هذه العربة للشخصيَّات المهمَّة، يسمُّونها «بولمان» يا «حجيزي»، كراسيها محشوَّة بقطن مكبوس في قماش قطيفة، وغير مثبَّتة بأرضية العربة، حتى تأخذ هذه الشخصيات الكبيرة راحتها، وعلى شبابيكها ستائر ملوَّنة، مرسوم فيها ورود، ومرسوم فيها صور النساء، نساء يا «حجيزي» سبحان من صوَّر، نساء نساء، لسن مثل هذه الغربان التي نربيها في بيوتنا.

وارتفع صوت «سعدون» بأذان المغرب.

فهبا واقفين، وتحرَّكا ناحية المسجد، وقال «غنيمة»: بين الكراسي مناضد مثبَّتة في أرضية العربة، لابد من تثبيتها حتى لا تهتز فينقلب ما عليها من عصائر وأطعمة يقدِّمونها لهذه الشَّخصيَّات المهمَّة، العصفور دخل هذه العربة خطأ، ما كان يقصد دخولها، هل هناك عصافير تسافر بالقطارات؟!

وصلا إلى باب الميضأة، و«سعدون» يزعق فوق سطح المسجد بآخر كلمة في الأذان: لا إله إلا الله.

5

بئرُ الرَّاهب

بئـر فيَّاضة شـمالي «الوعرة»، ماؤها فيه بركة، يسـقي العشـرين فدَّانًا ويظل يقب، كأنَّه يريد الهرب من ظلام الغياهب في بطن الأرض إلى نور الشمس على سطحها، حتى ولو سيتبخَّر.

..... ونبـع ربَّانـي قِبلي «الوعرة»، كان ماؤه زمـان يعمل بحيرة، وفي البحيـرة سـمك، ولسبب إلهي ظـل هـذا النَّبع يضمُـر، وظلَّـت البحيرة تتناقـص بدرجة غير ملحوظة، حتـى انتبه النَّاس في يـوم لعدم وجودها، لكن بقيت بركة، ثم اختفت البِركة، وانكشف فم النَّبع.

فتحـة صغيرة تمثِّل دائـرة قطرها نصف متر، أو أكثر قليلا، والماء نزل تحت مسـتوى هذه الفتحة شِـبرا، ولأنه وضح تماما أن النَّبع يغيض، بدأ النَّـاس فـي المسـجد يصلُّون لله ألَّا يجـف هذا النَّبع الذي يشـربون منه، ويطبخـون منـه، ويسـتحمُّون بـه، حتى مـاء الخـزَّان الخـاص بالميضأة يجلبونه منه.

لكن الماء نزل شِبرا آخر، وبعد ستَّة أشهر من الدُّعاء اللحوح نزل إلى ما هو أكثر من سبعة أمتار، وتعذَّر جلب الماء من هذا النَّبع جدا،

ليس لبعد الماء، فقد كان بإمكان ناس «الوعرة» دائما جدْل حبال طويلة ومتينة من ليف النَّخيل، وإنما لسبب آخر يتعلق بتكوين النَّبع نفسه، لم يكن النَّبع يتجه إلى عمق الأرض باستقامة عمودية، بل يتجه إلى باطن الأرض بميل بسيط، ممَّا يجعل سحب الماء مجهدا للغاية، لكن استمر سحب المياه بدِلاء تم ثني حوافها، وتغطيتها بجلود الجِمال النَّافقة بعد دبغها، ليسهل سحبها وهي تحتك بالجدار الصَّخري المائل للنَّبع.

ورغم الصَّلوات الطَّويلة، كان ماء النَّبع يغور أكثر وأكثر، حتى جاءت إلى «الوعرة» قافلة صغيرة تحمل راهبا يقصد أعماقا أبعد في الصَّحراء، اسمه الرَّاهب «يوحنا»، وطلبوا منه الدُّعاء للنبع، أن ينبع ماؤه، فيفيض مثلما كان، ويصبح في متناول أيدي نسائهم التي كلَّت، ودعا الرَّاهب «يوحنا» طويلا، ثم سرح بعمق، ولمَّا أفاق قال لهم: ماء النَّبع لن يزيد، لكنَّه لن ينقص بعد الآن.

ولم ينقص ماء النَّبع من يومها، فسمُّوا النَّبع «بئرُ الرَّاهب».

في هذه الصَّحاري الشَّاسعة، لا يمكن التفريط في قطرة مياه، نعم جلب الماء من البئر الشَّمالي أسهل كثيرا، وقد صاروا مؤخَّرا يأتون بمياه ميضأة المسجد منه، لأن الميضأة تحتاج لمياه كثيرة، لن يمكن توفيرها بسهولة من النَّبع المائل، لكن استمروا في سحب المياه الخاصة باحتياجات البيوت منه.

ولم يكن ممكنا أن يبنوا سورا بمحاذاة الفتحة كلِّها، بسبب ضيقها الشَّديد، فبنوا نصف سور منخفض حول نصف الفتحة، وأبقوا النِّصف

الثاني على حاله، ليسهل جذب الدِّلاء، وثمَّة نخلتان تخرجان من جذر واحد تضربان في السَّماء، قُرب البئر من ناحيتها الغربيَّة، فكان، دائما، يرتمي ظلُّهما على البئر والمنطقة الضَّيقة المحيطة بها، بحث تحلو القعدة هناك وإن اشتد حرُّ الظهيرة في أيام الصيف الملتهب.

النِّساء يجلبن الماء من النَّبع، الرِّجال تركوا هذه المهمَّة لهن، وذهبوا يزرعون في غيطانهم، أو يسافرون على أسنمة الجِمال، يقطعون الصَّحراء، التي تقطع، بدورها، أعمارهم.

..... كان «سعداني» في «الحِطِّيَّة»، حقله المُسوَّر بالطُّوب الجيريِّ الأبيض، عندما أخذت «منيرة» صفيحة المياه الفارغة، وجَرَّت خلفها الولد «صالح»، واتَّجهت به صوب «بئر الراهب».

وعلى الرغم من إجهاد سحب الماء من النَّبع، فإن أجمل الأوقات بالنِّسبة لنساء «الوعرة» هي هذه الأوقات التي يقضينها هناك، يتضاحكن فيها ويتغامزن، ويفضفضن لبعضهن ويبكين، والنَّخلتان تنتصبان حانيتين، والصُّخور الضَّخمة عجيبة الأشكال، راسخة في الوراء البعيد، تراقبهن في صمت، بينما الرِّمال تمتد أمامهن، وعلى يمينهن، من غير انتهاء.

«ثريًّا» تقف بجوار فتحة النَّبع، تحت رجليها صفيحتها، تنتظر دورها في ملء المياه، عندما فوجئت بـ«منيرة» تقرصها في فخذها، وتقول: هيه يا عروسة، أيام وتكونين عند البئر السَّاخنة.

تضاحكن النِّسوة وتغامزن، وقالت واحدة: سنلقي بها في حوض المياه لتعوم فيه مثل سمكة.

ضحكت واحدة أخرى، وقالت: ليصيدها «بكير»، ويأكلها على السرير.

وارتفعت صيحاتهن إلى السَّماء مثل الطُّيور البيضاء، التي تحلِّق بعيدا إلى الشَّمال، و«ثريَّا» تكاد تذوب خجلا، مثل قطعة سكَّر في دورق مياه.

لم يكن هناك ما يمهِّد لهذه الفاجعة، فالشمس في العصاري متوهِّجة، والسماء صافية، والصَّحراء برَّاقة بلون الذَّهب، والبيوت في علاقاتها الحميمة، والنَّبع نضَّاح، والضَّحكات رقراقة، وفي الصَّحراء القريبة ثلاثة جِمال تتهادى من غير راع، تأكل من عشب الرِّمال.

ماذا رأى «صالح» كي ينطلق بكل سرعته ويلقي بنفسه في «بئر الرَّاهب»؟!

لا أحد يعرف، ولا أحد سيعرف!

كان يلهو عند جذع النَّخلتين مع بقية العيال الذين أتوا مع أمَّهاتهن، يبنون من طين الرِّمال المنتشر حول النَّبع بيوتا، وصخورا غريبة الأشكال، ويعملون جِمالا وحميرا، لا تستطيع الوقوف أبدا على سيقانها الأربعة، وكان «صالح» يقطع بيديه الصَّغيرتين من طين الرَّمل، عندما نظر فجأة نحو فتحة النَّبع، ثم جرى إليها.

النِّساء غرقن في اللهو والضَّحك، حتى أن المرأة التي تملأ آنيتها، توقفت عن الملء، ففتح النَّبع فاه، ولم تنتبه واحدة منهن لهذا الصَّغير الذي يجري في اتجاه النَّبع، «منيرة» انتبهت في اللحظة الأخيرة، هذه اللحظة التي دائما ما تسبق المصائب، ولا يكون بمقدور الإنسان فيها عمل أي شيء، غير النَّظر إلى ما يحدث وهو يشهق.

كان «صالح» يريد التوقُّف عند حافَّة البئر، لكن اندفاعه السَّريع لم يُسعف رغبته في التَّوقُّف، فالتقمه فم النَّبع المفتوح.

* * *

باب حجرة «سريرة» مفتوح، فاتَّجه «حجيزي» إليه وهو ينظر حوله خشية أن يراه أحد.

المسافة بين مدخل الوسعاية وباب غرفة «سريرة» ليست أكثر من عشرة أمتار، لكن «حجيزي» شعر بها طويلة جدا، حتى أنه بدأ يلهث، فلأكثر من عشرين سنة لم يمش «حجيزي» في هذه الطريق.

حدَّث نفسه وهو يدلف من باب الحجرة إلى الدَّاخل: ماذا تريد «سريرة» من رجل يستعد للموت؟! نسيتني وأنا حي، وتتذكرني الآن؟!

..... أغلق «حجيزي» الباب خلفه بهدوء، أكرة الباب نحاسية وتبرق، وصوت النِّسوة المتجمِّعات بالخارج يطنُّ في أذنيه، صياحهن صياحا فرحا مبهجا، ضربات منغَّمة على الطَّار، كل هذه الأصوات لم تكن في أذنيه إلا طنينا غير مفهوم، كان عقله مركَّزا في المهمَّة القادمة، سينام لأول مرة مع امرأة، وليست أيّ امرأة، إنها «سريرة».

رفع وجهه عن أكرة الباب الوهَّاجة، ونظر إلى «سريرة».

واقفة في الرُّكن ما بين الحائط والسَّرير النُّحاسي العالي، قمرا يضوي، ليس بالضِّياء الأبيض، وإنما بفستان من كل الألوان، مثل هذه الأزهار التي تبزغ فجأة على أغصان بعض أشجار الصَّحراء الشَّيطانية.

في الرُّكن المقابل حمامة صغيرة تقف منكمشة، وهي تهز رأسها بينهما.

كل شيء في الحجرة يصرخ بالحياة، كل شيء يشرب من نور الكلوب، ويشع بهجة، لكن «حجيزي» يتذكر الموت الآن!

«سريرة عروس تمتلئ موتا».

«كيف تكون هناك لحظات مبهجة في حياة تمتلئ بالموت؟!».

ارتفع صوت أغاني النِّساء خارج الغرفة، وعلى «حجيزي» أن ينهي المهمَّة، فتحرك ثقيلا نحو «سريرة»، وعندما وصل إليها تحركت ذراعاه نحو كتفيها، فبرجمت الحمامة في ركنها، واضطرب شيء في صدره، ولمَّا ارتاحت يداه على جانبي رقبتها، عربدت فيه روح المجون، فرفعها من تحت إبطيها ليلقي بها على السَّرير.

انسدحت «سريرة»، وشعرها الفاحم الطويل ملأ الفراش، وذيل فستانها الملوَّن هرب إلى أعلى، فطلَّت سمَّانتا ساقيها ليفتحا الباب لهوس الرَّغبة، فأصاب الجنون «حجيزي»، فنسي الموت، ورمى نفسه في أحضان المرأة.

كان هذا منذ زمن لا يجيد «حجيزي» إحصاءه، لكن الآن أكرة الباب لم تعد برَّاقة، حتى يبدو أنها لم تعد نحاسية، كل شيء في الحجرة حال لونه، و«سريرة» تجلس على السَّرير هيكلا عظميًّا تعلَّقت عليه ملابس نسائية، تنظر إليه بعينين داعيتين، وفمها فيه ابتسامة حافظت رغم طول

السِّنين على بقايا من سحرها القديم، فتحرك «حجيزي» نحوها ببطء، ونظر إلى الرُّكن الآخر، لم تكن هناك الحمامة الصَّغيرة.

* * *

في قلوبهم خوف، رغم أن الحكاية لم تكتمل. تمدَّد «سالم» و«سلمان» على سريرهما، وتغطَّيا بلحاف ثقيل، وتمدَّد «سليم» على دكَّة وحيدا، ولفَّ حول جسده بطَّانية ثقيلة أيضا.

الغرفة غارقة في الظَّلام، لم يكن فيها من نور، سوى شعاع من ضوء القمر المكتمل، ينسل من شرخ في خشب النَّافذة الوحيدة، والضَّيقة أيضا، قال «سلمان» بصوت خافت: هل سيسرق هذا الرَّجل الفقير كفن «أم جميل»؟!

قال «سالم»: لم يكن جَدِّي يتكلَّم عن «أم جميل»، كان يتكلَّم عن امرأة أخرى.

قال «سلمان»: امرأة محروقة أيضا، شكلها مرعب، مثل شكل «أم جميل» لمَّا احترقت.

جاء صوت «سليم» عاليا فجأة: وهل رأيت شكل «أم جميل» وهي محترقة؟ كنت أنت وقتها في علم الغيب يا بارد.

قال «سلمان» بصوت خفيض: ماذا يعني بأنني كنت في علم الغيب يا «سالم»؟

قال «سالم»: يعني لم تكن وُلدت بعد، كنت في عالم غير العالم.

قال «سلمان» مندهشا: عالم غير العالم! أين هذا العالم؟! أنا خائف.

قال «سالم»: إذا كنت خائفا، فلتسكت حتى تنام، الكلام في الظلال مخيف.

سكت «سلمان»، لكن صوت «سليم» جاء جَهوريا عاليا: بعد أن دفن النَّاس المرأة المحروقة، خرج الرَّجل الفقير من خلف الصَّخرة، واتَّجه إلى القبر، وحفره مرَّة أخرى، حتى وصل إلى الجثَّة المحروقة.

سكت «سليم»، الصَّمت الثَّقيل يدوس على ظلام الغرفة، الصَّمت والظَّلام يدوسان على قلبي «سلمان» و«سليم».

- كانت الشَّمس تغرب، والنُّور ينسحب من القبر، وأخذ الرَّجل الفقير يشد الكفن، لكن الكفن كان ملتصقا بالجثَّة المحترقة، وكلَّما جذب القماش خرجت فيه قطع من لحم المرأة، وعندما سحب الكفن عينيها، لم تتحمَّل المرأة نزعهما، فصرخت في وجه الرَّجل: واااااااااااااااااع.

قالها «سليم» فجأة، وبصوت عال، فقفزت المرأة المحترقة على جسدَي «سلمان» و«سالم»، وقبضت على رقبتيهما، وهما يصرخان: يا اااااااااااااباه، يا مااااااااااه.

* * *

الموضوع حلو في ليالي الشِّتاء، وحلو أيضا في ليالي الصيف، لكنَّه أحلى في الشِّتاء، العناق والضم في الشِّتاء ألذ وأطيب، والعري في الصيف أشهى.

..... تكوَّم «حجيزي» تحت بطَّانيته، وأخذ ينشُج، ولكز «بكير» العيال مغاضبا، فانطلقوا نحو حجرتهم، الحكاية مخيفة، وصارت بذكر «أم جميل» محزنة أيضا، وشبح «سريرة» وهي تتوكَّأ على عصاها، يمشي مرتجًّا على الجدران، لهب اللمبة الجاز يتراقص دونما سبب، فلم تكن هناك ريح، كل ما حولي مرعب، حتى «بكير» كان مرعبا وهو يطفئ النَّار، مثل غول يهجم على بنت تتلوى تحت قدمه تتشبَّث بالحياة، ولمَّا يئس من مقاومة النَّار لقدمه، صبَّ عليها الماء، فخرجت روحها بصوت مثل صوت جناح يرفرف.

..... البرد، صقيع يلتصق بكل شيء، حتى يد «بكير» صارت مثل يد الهون النُّحاس، مثلَّجة، ينتفض جسدي من حركة يده على جلدي تحت جلبابي، همستُ: يدك مثلَّجة يا «بكير».

أخذ «بكير» يحرِّك يده بسرعة على جنبي وظهري، وقال: ستدفأ يدي يا «ثريَّا».

ثم قال بصوت متكسِّر: وسأدفئك الآن حتى تتصبَّبين عرقا.

أُحب العناق والضمَّ في ليالي الشِّتاء، البرد يدفعني دفعا للالتصاق بـ«بكير»، و«بكير» يلتصق بي حتى لو نام معطيا ظهره لي، لكن لو نام معطيا وجهه لي فإنه يعانقني، وأنا أحب «بكير» لمَّا يعانقني في البرد، جسده يتوهج بالدِّفء وأنفاسه كأنَّها روح النَّار، يؤجِّجها فيّ، ثم يقوم يعتليني بجسده الثَّقيل، ويظل يهرس عظامي، ولا يتوقف إلَّا إذا أطفأ النَّار.

لكن في هذه الليلة، أحببت عناقه، ليس بسبب البرد فقط، وإنّما بسبب الخوف أيضا، فما أبشعها أكفان الموتى، وما أبشع منظر الأجساد التي سلبت منها الحياة، وما أبشع شبح «سريرة» وهو يتأرجح على جدران المنزل، وجثّة «حجيزي» وهي تتلوّى تحت البطّانية، وتنشج، وثلاثة ملائكة في ثياب بيضاء تغرق في الظّلام وهي تتّجه إلى حجرتها.

- أنا خائفة.

يد «بكير» تروح وتجيء على بطني وتحت إبطي.

- البرد قارس يا «ثريّا».

- اللون الأبيض جميل، لماذا الأكفان لونها أبيض؟!

قام «بكير» وتمدّد بجسده فوقي، همس: ليالي الصيف حلوة، أرى فيها قميص النّوم الأحمر، وبياضك يبرق تحته.

«بكير» يحلو كلامه في الليل فقط، لكن طوال النّهار ينهر ويشتم، وليل «بكير» ينسيني دائما نهاره، وأبقى في النّهار أنتظر ليل «بكير».

بدأ يهرس عظامي، وبدأ خوفي ينز من مسامي، كنت سأغيب عن هذه الليلة، عندما خف حمل «بكير» فجأة، واصطدمت الليلة المريعة بوجهي.

«سلمان» و«سالم» يصيحان مفزوعين

* * *

خرج «حجيزي» من المسجد بعد انتهاء صلاة المغرب، يتبعه «غنيمة» و«سعدون»، كانت السَّماء تتلوَّن بالعتمة، والبيوت تبدو من بعض أبوابها أضواء لمبّات الجاز، والأطفال الرُّعاة يدخلون بأغنامهم إلى حظائرها، ثغاء الغنم والماعز، بلبلة جديان، وصياح الأطفال الفرحين بالعودة من المراعي البعيدة.

قال «غنيمة» لـ«حجيزي»: العصفور دخل عربة القطار وهو يكاد يتحرَّك، فأغلق عامل العربة بابها، والخواجة مدير الشَّركة يجلس وحده، ينظر في كتاب.

قال «سعدون»: أنا ذاهب إلى بيتي أتعشَّى مع عيالي.

قال «غنيمة»: أنا ذاهب أتعشَّى مع «حجيزي».

فقال «حجيزي»: اليوم أنت تغذَّيت معي، تتعشَّى أيضا!؟

سحب «غنيمة» «حجيزي» ناحية بيته، وهو يقول: يا أخي أكمل لك حكاية العصفور.

جلسا على المصطبة الصَّخرية، وزعق «حجيزي»: «سلمان»، هاتوا العشاء هنا، «غنيمة» سيتعشَّى معي.

«غنيمة» قال: العصفور أخذ يحلِّق في سماء عربة القطار، ويرى الأرض تجري خلف زجاج بعض النوافذ، فيطير ليخرج، لا يعرف العصفور أن هناك زجاجًا يمنع خروجه، فكان يخبط فيه ليعود ويحلِّق من جديد.

صوت خبط العصفور في الزُّجاج جعل الخواجة ينتبه، في هذه اللحظة دخل عامل العربة، بيده صينية ترهج بلون الفضَّة، عليها كوب من عصير الليمون يبرق من نظافته.

نظر «غنيمة» في وجه «حجيزي» الذي ذابت ملامحه في عتمة ما بعد المغارب: كوب الزُّجاج هذا ليس مثل الأكواب الصَّفيح التي عندنا، ولا حتى مثل الأكواب الزُّجاج التي عندنا، هذا كوب رشيق، يقف في منتصف الصِّينية طويلا، ضيِّق قليلا من أسفل، ويتَّسع كلَّما طال، قعره يميس مثل جوهرة تصب بريقا.

قال «حجيزي»: أنت رأيت جوهرة طوال عمرك يا «غنيمة»؟

عاد «غنيمة» بظهره إلى الوراء، وأخذ نفسا طويلا نفخ به صدره، وكركب صوته: يووووه، رأيت جواهر كثيرة، رأيتها في فتارين محلات الذَّهب في «أسيوط»، يضعون فصوص الجواهر في الخواتم والحلقان.

كان «سليم» و«سالم» قد فرشا حصيرا على الأرض في مواجهة باب البيت من الخارج، حيث ينسكب ضوء لمبة الجاز، وجاء «سلمان» يدحرج الطَّبلية ذات الأرجل القصيرة، حتى وضعها على الحصير.

قال «غنيمة»: المهم، وضع الرَّجل كوب العصير أمام الخواجة، واستدار ليمضي، لكنَّه سمع الخواجة يقول: تعرف يا ولد تمسك هذا العصفور؟

الولد لم يكن ولدا يا «حجيزي»، كان رجلا متزوجا ومعه عيِّل، لكن الإنجليز عندهم عنطزة التُّرك، مثلهم، وجوههم حمراء ومنتفخة، والذي يخدمهم مهما كان كبيرا في السن ينادونه: يا ولد!

وضع المصريُّ الصِّينية على إحدى المناضد، كان العصفور يطير بطول العربة، وعندما يتعب يقف على أي بروز، رف العربة، أو منضدة، أو حافة الشُّباك من الدَّاخل، يقف يهز رأسه وهو ينظر لكل شيء بسرعة، والخوف ملأ صدره، خاصة لمَّا رأى هذا الآدمي الأسود يحاول أن يسد عليه مجال طيرانه، ناظرا إليه بعيني ثعلب.

نظر «غنيمة» إلى «سليم» وهو يضع على الطَّبلية «طاجن» فخَّاري أسود عتيق، يتصاعد منه بخار طبيخ المرق الذي غرقت فيه قطع كبيرة من اللحم.

قال «غنيمة»: الخواجات الإنجليز يختارون للخدمة مصريين وجوههم سوداء مثل قعر هذا الطَّاجن، لا أعرف لماذا يختارون السُّود دون غيرهم!!

ضحك «حجيزي»، ضحكة رجل يسخر، وقال: أنت أسود يا«غنيمة».

قال «غنيمة»: خلقة ربنا.

قام «حجيزي» من على المصطبة، وقام «غنيمة» أيضا، وجلسا حول الطَّبلية، وجاء «بكير» وسلَّم، وجلس يأكل معهما.

- أخذ المصريُّ يتنطَّط في عربة القطار مثل قرد، ولا يستطيع الإمساك بالعصفور، حتى تعب جدا، فنسي نفسه من التَّعب، وجلس على أحد هذه الكراسي الفخمة، لكن صوت الخواجة، وهو يصرخ كالملدوغ، جعله ينتصب واقفا بسرعة الطُّريشة: قم يا ولد من على الكرسي، نسيت نفسك؟! العصفور، امسك العصفور يا ولد.

لكن الرَّجل كان قد فقد طاقته....

كان «حجيزي» يغمس لقمة خبز في المرق السَّاخن، عندما دوَّت كركبة ضحكة «غنيمة»، و«غنيمة» عندما يضحك فإنه سيظل يضحك طويلا، وقد يفعل مثل «سعدون»، وينسدح على ظهره قبل أن يفيق، فظلَّ «حجيزي» يأكل، و«بكير» تملأ وجهه ابتسامة مندهشة وهو ينظر إلى «غنيمة».

أخيرا شهق غنيمة، وقال: المصريُّ طلعت روحه وهو يحاول الإمساك بالعصفور، لكن العصفور سقط وحده في يد الخواجة!

ثم غرق «غنيمة» في الضَّحك مرة أخرى.

* * *

قالوا للشَّيخ «مزيد»: كيف نغسِّلها يا مولانا؟ النَّار أذابت الجسد، وولدها ملتصق بها!

فقال الشَّيخ «مزيد»: الذي يموت محترقا يموت شهيدا، والشَّهيد لا يغسَّل، وإنما يكفَّن على حاله، لفُّوها مع ولدها في كفن واحد، وهاتوها للمسجد نصلِّي عليها، أسرعوا، فإكرام الميِّت دفنه.

«حجيزي» وقف أمام باب حجرة الخزين، التي يجلس «سعدون» بداخلها، يسمع ما يقوله «مزيد».

«من قال إن إكرام الميِّت دفنه؟! دائما الأحياء هم من يقولون هذا، سأصدق لو قالها ميِّت!».

دخل الشَّيخ «مزيد» حجرة الغلال، ووضع يده على كتف «سعدون»، وقال له: الأمر للّه يا عم «سعدون»، وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم.

نظر «سعدون» في وجه «مزيد» نظرة تائهة، وهمس: خير لكم!؟ أين الخير الذي هو لنا؟!

فجأة هبَّ «سعدون» واقفا وهو يجأر: خير لكم!؟ بيتي تأكله النَّار، وتقول خير لكم؟!

ثم اندفع إلى خارج الحجرة مثل ناقة غاضبة، وتكلَّم وصوته يرعد: «زليخة» تأكلها النَّار، وتقول خير لكم؟!

حاول النَّاس أن يمنعوه من الوصول إلى جثَّة «بثينة» وولدها، لكنَّه يدفع النَّاس بقوَّة ثور هائج، ويصرخ: يا «زليخة»، يا«زليخة».

النَّاس يزعقون: وحِّد اللّٰه يا «سعدون».

وخافوا أن يذهب عقله، ينادي «زليخة» التي ماتت منذ أكثر من عشر سنوات، وينسى «بثينة» التي ماتت الآن؟!

وقف «سعدون» أمام كومة اللحم المشوَّهة، وتكلَّم، وصوته غرغر: أين «جميل»؟

لم يكن واضحا من «جميل» غير ملامح لجسد طفل عمره سنتين، ونعر «سعدون»: يا «جميل»، يا «جميل».

تكالبوا عليه، وأبعدوه عن كومة اللحم المشوَّهة، وكان يضربهم ويلكزهم وينعر، ثم سقط بينهم، وهمد جسده بعد أن ذهب في غيبوبة.

«حجيزي» ينظر لكومة اللحم.

«لو كنت أنا هذا اللحم المشوَّه، هل كنت سأكره الدفن؟!».

* * *

- القبر أوَّل منازل الآخرة.

قالها «مزيد» في أحد الدُّروس التي يلقيها بعد أذان العشاء، قبل الصَّلاة.

..... في ظل شجرة أثل كبيرة كانت إحدى النِّعاج قد استسلمت تماما، ملقاة على جنبها بينما «حجيزي» يجلس وقد فرد إحدى ساقيه على رقبتها، بينما يدوس بيديه على مؤخِّرتها، و«سعدون» يجز صوفها بمقص حاد.

قال «حجيزي»: شجرة أثل قبيحة، لو كانت شجرة برتقال!

قال «سعدون» من غير أن يرفع وجهه عن الصُّوف الذي يجزّه: ومن سيزرع شجرة برتقال في هذه الصَّحراء البعيدة؟!

قال «حجيزي»: في الطَّريق إلى «موط» شجرة برتقال.

قال «سعدون»: ربما أحد المسافرين زرعها هناك.

لوى «حجيزي» شفتيه: أكثر ناس يحتاجون لزرع أشجار على الطريق هم المسافرون، وهم أكثر ناس لا يفكِّرون في زراعتها.

وقال: تذكَّرت شجرة البرتقال هذه عندما قال «مزيد» إن القبر أوَّل منزل في طريق الآخرة، وإنه إما يكون..

..... قال «مزيد» في درسه أيضا: القبر منزل تجهِّزه في دنياك، عملت أعمالا صالحة، يصير لك روضة من رياض الجنَّة.

وأوضح الشيخ «مزيد»: الرَّوضة قطعة من الجنَّة، شيء يشبه بستانًا مزروعًا بأشجار الفواكه، مثل هذه التي تزرعونها، لكنَّها أروع بأكثر مما نتخيَّل.

وأكمل كلامه: أمَّا لو عشت حياتك تعمل الذُّنوب ولا تتوب، فسيكون القبر والعياذ باللّٰه حفرة من حفر النَّار.

..... «سعدون» أتمَّ جزَّ هذه النَّاحية من جسم النَّعجة، فرفع «حجيزي» ساقه من على رقبتها، فهبَّت واقفة، وقبل أن تركض مبتعدة، كانا قد ألقياها على جنبها الآخر، ورقَّص «سعدون» طرفي المقص فشخلل.

قال «حجيزي»: يا «سعدون»، أنا ذهبت للمقبرة التي وجدوا فيها أمواتا مدفونين منذ آلاف السِّنين، بعد «موط»، رأيتهم، قبرهم مثل غرفة، لم يكن فيه ولا شجرة فواكه، ولم تكن جدران المقبرة مسوَّدة بالهباب حتى نقول إنه كان حفرة نيران!

رفع «سعدون» وجهه عن الصُّوف والمقص، خطف وجهه خطفا مثل ملدوغ، وقال: استغفر اللّٰه يا «حجيزي»، عقلك دائما يسرح بك في ما يغضب اللّٰه، أخاف نهايتك تكون سوداء.

لكن «حجيزي» نظر لعيني النَّعجة، وقال: ماذا تقولين؟!

توقَّف «سعدون» عن الجزِّ تماما، ونظر في عيني «حجيزي» ببلاهة، ثم قال: تكلِّم النَّعجة يا «حجيزي»!؟

قال «حجيزي»: أنا ما كلَّمت النَّعجة يا «سعدون»، هي التي كلَّمتني.

ضحك «سعدون»: النَّعجة كلَّمتك يا «حجيزي»؟!

هزَّ «حجيزي» رأسه مؤكِّدا، فقال «سعدون»: وماذا قالت لك يا«سليمان» زمانك؟!

- قالت: كلِّمني أنا أحسن، فأنا نعجة، لكن صاحبك هذا حمار.

فألقى «سعدون» المقص على الرِّمال، وأخذ يضحك، وبطنه يرتجُّ مثل عجين الخبز النيِّئ في الماجور لما تخبطه «ثريَّا» بيدها وهي تقلِّبه.

* * *

صحن المسجد ساحر في الليل، عندما يضيئه الكلوب بنور خافت، في هذا النُّور يجلس الشيخ «مزيد» مواجها للمصلِّين الذين ينتظرون إقامة صلاة العشاء، بينما يستمعون لكلامه: وسأل حبيبي المصطفى صلوات اللّٰه وسلامه عليه الصَّحابة الكرام: إن من الشَّجر شجرة لا يسقط ورقها، وإنها مثل المسلم، فما هي؟

وقلَّب الشَّيخ «مزيد» نظراته في الوجوه التي تبدو وكأنَّها على شفا النَّوم، وقال: هل يعرف أحدكم هذه الشَّجرة؟

بدأ المصلُّون في فتح أعينهم، فقال الشَّيخ «مزيد»: شجرة لا يسقط ورقها، وهي مثل المسلم، ألا يعرفها أحدكم؟!

قال «فتحة»: كل الشجر الذي نعرفه تسقط أوراقه!

ابتسم الشَّيخ «مزيد»: صحابة الرَّسول صلوات اللّه وسلامه عليه، عندما سألهم هذا السؤال، كانت إجابتهم تشبه إجابتك يا عم «فُتحَة»، أخذوا يذكرون أسماء كل شجر الصَّحراء، ما عدا الشَّجرة المقصودة، ولمَّا رأى حبيبنا المصطفى حيرتهم قال اسمها.

كركبت حنجرة «غنيمة»: ونحن احترنا فقل لنا اسمها وأرحنا!

قال «مزيد»: النَّخلة.

علت همهمات المُصلِّين وهم ينظرون لبعضهم باندهاش، وزعق «فُتحَة»: لكن النَّخلة يا شيخ «مزيد» ليست شجرة!

ضحك «مزيد» ضحكة طويلة، قبل أن يقول: وما هي النَّخلة إن لم تكن شجرة؟!

قال «غنيمة»: النَّخلة نخلة يا شيخ «مزيد».

قال «حجيزي»: النَّخلة كلُّها خير، لكن المسلم ابن كلب، أغلبه شر، فكيف تكون النَّخلة مثل المسلم؟!

وضحك المُصلُّون بقهقهات عالية.

لم يسكت «حجيزي»، وإنِّما قال مخاطبا «مزيد»: أنت تؤلِّف كلاما مثل أبيك الشَّيخ «علوان» اللّه يرحمه.

* * *

«حجيزي»، في قلب إحدى نخيله الكثيرة، عمر «حجيزي» ثمانين عاما، ويحوط عراجين البلح بأكسية معمولة من نبات الحلفاء المضفَّر بسعف نبات الخشخاش، حتى يحتفظ العرجون ببلحه كاملا، و لا تنقر العصافير البلح فتفسده.

..... «أمشير»، شهر ضم البلح على عراجينه في «الوعرة»، شهر الفرح والمشاركة والتعاون، شهر المحبَّة المتأجِّجة بين إنسان الصَّحراء ونخيلها، النَّخيل عراجينها معطاءة، بلح أخضر رامخ، طعمه نصف محلَّى، لكنه شهي، تشعر النَّخلة بالإنسان وهو يتسلَّقها وقد أحاط خصره بالبطان، هذا الحبل الغليظ المضفور من ليف النَّخيل، ليشد الإنسان إلى النَّخلة فلا يسقط من عل، يطلب نتاجها في مقابل أن يعطيها ألقا.

سيبقى الإنسان في الصَّحراء عاشقا للنَّخيل، يهش عنها الغنم وهي نبتة، ثم يبقى يرعاها وهي تعلو، ولا تعلو النَّخلة ببساطة، وإنما بعمر ابن آدم، فالنَّخلة قد يدفن نواتها في الأرض طفل ما، لكنها لن تطعمه أوَّل بلحها قبل أن يكون شابا يافعا، فهو الذي سيأخذ من طلع ذكورها اللِّقاح الذي سيضعه في طلع إناثها، لتبدأ النَّخلة في الحمل، ثم العطاء.

نخيل الصَّحراء ليست كأي نخيل في أي مكان من العالم، نخيل الصَّحراء تفهم لغة الإنسان، وتعرف معاملاته، طالما أعطاها اهتماما، فأزال من عليها زوائد جذعها من ليف وكرانيف، وخفَّف قلبها من الجريد الزائد، وغذَّى جذرها بالأسمدة البلدية، فلابد وأن تردَّ هداياه، بلحا لا ألذ، ولا أطيب.

..... «حجيزي» في قلب النخلة، ونـاس أخر في قلوب نخيلهم، يغطُّون العراجيـن ويتصـايحون بمرح: على مهلك يا ولد أنت وهو، لا تغضبوا عمَّتكم النَّخلة. وتنطلق القهقهات.

كانوا قد سمعوا الشيخ «مزيد» عندما قال: حبيبنا المصطفى صلوات اللّه وسلامه عليه قال: أكرموا عمَّتكم النَّخلة.

وغمغم «حجيزي»: النَّخلة عمَّتنا، يبقى ذكر النَّخل عمَّنا.

رفع صوته: يا «مزيد» نكرم عمَّتنا ولا نكرم عمَّنا؟!

بدا الشَّيخ «مزيد» غير فاهم: ماذا تقول يا عم «حجيزي»؟

- نكرم النَّخلة الأنثى ولا نكرم النَّخلة الذكر؟!

قال «مزيد» هاتفا: أكرموا النَّخل كله، إنما خصَّ المصطفى، صلوات اللّه وسلامه عليه، النَّخلة الأنثى بالذِّكر لأنها الأكثر في الأرض، فداؤه نفسي وأبي وأمي، كان يقصد النَّخل كله.

زعق «حجيزي»: واللّه يا «مزيد» أنا أشعر أنك تأتي بهذا الكلام من رأسك.

قام «سعدون» ليقيم الصَّلاة، والشَّيخ «مزيد» يقول غاضبا: أنا آتي بالكلام من رأسي؟! تعني أنا أتقوَّل على رسول اللّه!؟ تريدني أتبوأ مقعدي من النَّار؟!

وقف «سعدون» ورفع صوته متهدِّجا: اللّه أكبر اللّه أكبر، أشهد ألَّا إله إلَّا اللّه، وأشهد أن محمدا رسول اللّه، حي على الصَّلاة، حي على الفلاح، قد قامت الصَّلاة قد قامت الصَّلاة، اللّه أكبر اللّه أكبر، لا إله إلَّا اللّه.

..... الشَّمس في ضحاها، «حجيزي» في قلب النَّخلة العالية، والنَّاس فرحين بزماط النَّخيل، كأنَّهم في العيد، عندما كانت نقطة في أفق الصَّحراء تبدو وهي تتحرَّك مثيرة لغبار الرِّمال، كانت النُّقطة تتحرَّك بسرعة كبيرة، فبدت، خلال دقائق، إنسيًّا يجري بكل سرعته، ثم وصل صوته الصَّارخ: يا خلق الحقوا أبا «غنيمة»، الحقوا أبا «غنيمة».

* * *

- «شقمق» بيك يا «حجيزي» كان صديقا حميما للسُّلطان «طامانباي»، «طامانباي» آخر سلاطين المماليك، لكن الكلب التُّركي شنقه، وعلَّقه في باب «زويلى».

- والـ«طمنبي» هذا، ترك التُّركي يشنقه، ويعلِّقه في الأبواب؟!

- لا يا «حجيزي»، السُّلطان «طامانباي» ما سلَّم نفسه هكذا، وإنما قاتلهم، وسقى جيوش العثمانيين الدِّردي، وأطعمهم المرار والقرض، و«شقمق» بيك كان معه.

- وكيف قبضوا على السُّلطان، وما قدروا يقبضوا على «شقمق»؟!

- الخيانة يا «حجيزي»، البدو تجري الخيانة في دمائهم.

- البدو؟! البدو عرب يا «غنيمة»! هم مشايخ عرب!

- وهل العرب ملائكة؟! لا، فيهم الأنجاس أولاد الكلاب الخونة، وأغلبهم من البدو، أنت قلت بنفسك إنهم كانوا يسلبون بيوت أهلنا وناسنا في الواحات البحرية أكثر من الإنجليز أنفسهم، تذكر رحلتك القديمة إياها للعلمين مع «شديد» أبوك؟!

..... لقد دكَّ الإنجليز الواحة بمدفع ضخم، أول مرة يرى مقاتلو الواحة مثل هذا المدفع، كان يطلق كرة من النَّار لا تنفجر إلا وسط البيوت، فينسفها بمن فيها، لم يكن أمام المقاتلين إلا الاستسلام بالفرار، فهذه الكتلة الصَّماء التي تقذف الحميم، ستقضي على نسائهم وعيالهم لو استمروا في الحرب، فر مقاتلو الواحة إلى الصَّحراء البعيدة، وكالعفاريت ظهر البدو على أفراس لها عيون مثل عيون الجان، فهجموا على البيوت الملقاة بجروحها، ونهبوها.

..... قال «غنيمة»: وهل برابرة النُّوبة إلا بدوا؟! بمن كان يستعين الإنجليز في إخضاع الواحات؟! كانوا يستعينون بالبرابرة النُّوبيين، سود الوجوه الملاعين.

وقال: نحمد اللّه أن «الوعرة» صغيرة، لم يشعر بوجودها أحد.

قال: «حجيزي»: أنا لا أريد الطَّريق لهذا السَّبب، الطَّريق تأتي بالغرباء دائما، والغرباء سيأتون لنا بالمشاكل. الشَّيخ «مزيد» يصدِّع رؤوسنا كل صلاة جمعة، الطَّريق الطَّريق، «مزيد» صغير، ما عنده خبرة بالمصائب التي ستجلبها الطَّريق.

ما كنت وُلدت أنت يا «غنيمة» لما جاء خواجة إنجليزي ليشتري الفارس الذي حنَّطه «شديد»، جاء «الوعرة» ومعه امرأة إنجليزية مثله، كانت عارية تقريبا، شعرها مكشوف، وذراعاها، وصدرها، وساقاها، كانت حكاية الواحات، لو عملنا الطَّريق ستأتي لنا مثل هذه النوعيَّات التي ما عندها دين ولا أخلاق، الخوجاية كانت تقبِّل الخواجة أمام عيون ناس «الوعرة» كلِّهم، كان منظر الفارس المحنَّط فوق فرسه المحنَّطة

قد أخذ ألباب النَّاس، وما أخرجهم من دهشتهم غير قُبلة المرأة للرجل أمامهم.

كركبت حنجرة «غنيمة»: المهم، قبض التُّرك على السُّلطان «طامانباي» وهو في أمان واحد من مشايخ العرب في أرياف بحري.

وخرجت ضحكة ساخرة من أنف «غنيمة»: شيخ العرب ابن المرأة القحبة أعطاه الأمان، ثم هو نفسه وشي به عند التُّرك، فجاءوا وقبضوا عليه.

- لماذا وشي شيخ العرب بالسُّلطان؟!

- لتكون له حظوة عند الأسياد الجدد، ويبقى في بلاده شيخ عرب.

- ولماذا يريد أن يبقى شيخ عرب؟

- الحكم يا «حجيزي» له شهوة، ومشايخ العرب ينهبون أموال النَّاس، يفرضون عليهم ضرائب ومكوسًا، ويأكلونها.

سكت «حجيزي» لحظة، نظر فيها للقمر المكتمل، ثم قال: ما من واحد تولَّى أمر النَّاس إلا وطلب أموالهم، حتى.. حتى.. حتى الأنبياء.

فتح «غنيمة» عينيه على اتساعهما، فبرق ضياء القمر فيهما.

لكن «حجيزي» قال: هؤلاء يقولون ضرائب، وهؤلاء يقولون زكاة.

«غنيمة» همس: أستغفر الله العظيم!!

- و«شقمق»؟

- كانت هجمة الأتراك سريعة، و«شقمق» يبات في حجرة غير حجرة

السُّلطان، فلمَّا رآهم يهجمون على باب غرفته، قفز من الطَّاقة، وركب فرسه وهجَّ في ظلام الليل، كان القمر بدرا يا «حجيزي»، والنَّخيل في زروع الفلَّاحين ليلا لها مهابة، والبدر نوره ينعكس على مياه البحر الكبير، النيل يا «حجيزي»..

«حجيزي» ينظر لـ«غنيمة» الذي يتحدث وقد سرحت عيناه ناحية الصُّخور عجيبة الأشكال، وقد بدت في ضوء القمر مثل برابرة ضخام يُرضخون «الوعرة».

زعق «حجيزي»: ما تريد تشفى من الدَّاء الذي فيك يا كذَّاب يا ابن الكلب، تقول كلمة صحيحة وتضيف إليها مائة مكذوبة، أنت رأيت الشقمق صاحبك يهرب في الليل؟! والبدر والنَّخيل في زروع الفلَّاحين؟! يا هيَّات، صرت مثل «مزيد»!

6

الَّذي يقعُ في بَراثِن الموْتِ

- وِرِنْدا، وِرِنْدا.

زعق «سلمان» وهو يشير ناحية «ضب» يجري على الرِّمال بين أشجار العبل القصيرة المنتشرة في هذه البقعة من الصَّحراء.

لم تكن الأغنام مهتمَّة بهذا الضب، وإنما كانت مهتمَّة بقضم أوراق هذه الأشجار، لم تكن بيوت «الوعرة» تبدو من هنا، لكن الصُّخور الضَّخمة غريبة الأشكال تطل من كل النَّواحي، والشَّمس في سماء صافية، ترفل في ضحاها.

- وِرِنْدااااا، دااااااااااا.

تردَّد صدى صرخة «سلمان» بين الصُّخور الشَّاهقة، وجرى «سليم» ناحية «الضب» محاولا الإمساك به، زحف «الضب» على الرِّمال بسرعة عجيبة، قبل أن يقفز إلى أسفل شجرة من هذه الشُّجيرات، ويختفي في جحره.

ضحك «سالم» و«سلمان» من فشل «سليم» في الإمساك بالضب، الذي اغتاظ جدا، وزعق: أنا الآن سأمسك كل الوِرِنْدات التي في الجحر.

واتَّجه إلى إحدى الشُّجيرات، نزع منها بعض أغصانها التي جفَّت، ووضعها أمام فتحة الجحر، وأشعل فيها النَّار.

قال «سليم»: ستخرج الآن كل الوِرِنْدات هربا من الموت اختناقا بالدخان.

تأججت النَّار في كومة الأغصان اليابسة، وبقليل من الرِّمال أطفأها «سليم» ليتصاعد الدُّخان الكثيف، لكن الدُّخان لم يكن يدخل الجحر، كانت الريح تحمله للاتجاه المعاكس، فضحك «سلمان»، وضحكت الصُّخور الشَّاهقة.

حاول «سليم» أن يُدخل الدخان جحر الضَّب بطرف جلبابه، لكن الدخان لم يدخل الجحر أبدا، ولم يخرج أي ضب، وصاح «سليم» وهو يجري ناحية شيء ضئيل يخطو ببطء على الرِّمال: حرباء، حرباء.

وردَّدت الصُّخور صوت «سليم» الذي غلُظ من المراهقة: حربااااء، بااااء.

والحرباء دائما أبطأ من أن تهرب، لذلك تتلوَّن. كانت صفراء مثل الرِّمال، لكن العيون التي اعتادت الصَّحراء، يمكنها ببساطة رؤية حرباء صفراء تمشي على رمال صفراء، وفي لحظة كانت الحرباء مستكينة تماما بين إبهام وسبَّابة يد «سليم».

ليس للحرباء وجه، فعيناها على جانبي رأسها، لذلك ليست هناك ملامح يمكن أن تتشكَّل نتيجة الفزع أو السَّكينة، فرأس الحرباء هو هو في كل الحالات، كتلة مُضلَّعة على جانبيها عينان تدوران في محجريهما مثل ساقية، لكن المؤكَّد أن الحرباء كائن غبي!

إنها صفراء، غطِّها يا «سليمان» بجلبابك، ستتلوَّن بلون الظلِّ، ستصير رمادية.

قال «سلمان»: النَّاس كلُّهم يعرفون أن الحرباء تتلوَّن.

قال «سليم»: لكنَّهم لا يعرفون أنها غبيَّة، أغبى من الورِنْدا. أنا أمسكها وهي لا تتحرَّك أبدا، وها هو لونها يتغيَّر، تظن أنني لن أراها وهي في يدي!.

سأل «سلمان» «سليم»: من قال لك إن الرَّجل الفقير أخذ كفن المرأة المحترقة؟

ألقى «سليم» الحرباء، فخطت مبتعدة على الرِّمال، وصرخ بأعلى صوته، فتقاذفت الصُّخور الضَّخمة الصَّيحة فيما بينها: واااااااعووووووو.

لكن «سالم» قال: نحن لا نخاف في النَّهار.

قال «سلمان»: نعم، نحن لا نخاف في النَّهار.

وقال «سليم»: زمان جَدِّي حكى لي كل الحكاية، كان يريد أن يخيفني، لكنَّه حكاها لي في النَّهار.

الدخان يتصاعد من الأغصان المحترقة، وأطلَّ رأس الضَّب من الجحر، يتلفَّت يمينا وشمالا، وزعق «سلمان»: الوِرِنْدا، الوِرِنْدا.

وزعقت الصخور: وِرِنْدااااا، دااااا.

* * *

القافلة صغيرة، مجرد ناقتين، واحدة يركبها الدَّليل، والثانية يركبها الرَّاهب، كان الرَّاهب يقصد مكانا ما في الصَّحراء البعيدة، وتوقفا في «الوعرة» للتزوُّد بالماء، والتزوُّد بالتَّمر، وبالخبز الجاف، والجبن المملَّح، وكان «حجيزي» يحب قوافل الرُّهبان، لأن الرُّهبان يحكون له حكايات عجيبة عن اللّٰه الذي نزل للأرض في هيئة الإنسان.

..... قال «حجيزي» لـ«سعدون»: كم مرَّة صلَّينا للّٰه في المسجد كي يفيض النَّبع، أو حتى لا يستمر في النُّقصان؟ صلَّينا كثيرا ولم يستجب لنا، واستجاب لـ«يوحنا» النَّصراني!

قال «سعدون»: فتنة يا «حجيزي»، الشَّيخ «مزيد» قال هذه فتنة، يريد اللّٰه أن يختبر قلوب المسلمين، هل ترى ببصيرتها، أم أنها ستنخدع بما تراه العيون؟

كانا يجلسان في ظلِّ نخلة، وزروع البرسيم تغطِّي الأرض، وبعيدا تلوح الصُّخور الضَّخمة، وعلى حواف الحقول وقفت أبقار وجواميس تأكل من حشيش الحواف، وربضت جِمال تجتر وقد رفعت رؤوسها تنظر حولها بعيون غارقة في السواد.

فجأة رتَّل «حجيزي» القرآن: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ وأخذ «سعدون» يهز رأسه طربا، لأن صوت «حجيزي» يميس فوق حقول البرسيم حاملًا دفء الصَّحراء المشمسة، فبدا القرآن ساحرا، وسكت «حجيزي»، لكن «سعدون» صاح وهو مازال يهز رأسه: اللّٰه اللّٰه اللّٰه اللّٰه.

فتغنَّى «حجيزي»: و﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا وَٱلْأَرْضِ وَمَا طَحَىٰهَا﴾ توقَّف «حجيزي» عن الترتيل، ولم يتوقَّف «سعدون» عن التمايل بجذعه كله وهو يقول: اللّٰه اللّٰه اللّٰه اللّٰه.

فنظر «حجيزي» إليه وقطَّب جبينه، وقال: يا ابن الكلب تهز جسمك وتقول اللّٰه اللّٰه، وأنت لا تفهم شيئا! هذه هي مخلوقات اللّٰه التي يريدنا أن ننظر إليها بعيوننا، ما تُوجد بصيرة القلب إلا بعد وجود بصر العين.

كان الماء يجري في الجدول الضَّيق، وأشعَّة الشَّمس تتكسَّر على أمواجه الصَّغيرة، وأصوات النَّاس في الحقول تصنع ونسا مبهجا.

- يا «سعدون».

- ماذا تريد يا «حجيزي»؟!

- «يونَّاس» الراوية الرَّاهب قال لي كلاما عجيبا، أعجب من أي كلام قاله لي رهبان آخرون.

قال «سعدون»: الرُّهبان! لا أحب أن أسمع سيرتهم، أو أرى أشكالهم، أحس أنهم ليسوا بشرا مثلنا، ليسوا أحياء مثلنا، لذلك يفضِّلون العيش في قبر واسع اسمه الصَّحاري، ويستأنسون فيه بالحيَّات والضباع والذِّئاب.

فوجئ «سعدون» بـ«حجيزي» يهبُّ واقفا، وهو يزعق مثل مجنون: يا «سعدون» قلت ما لا يمكن أن يقوله حمار مثلك! كيف فهمت ذلك؟! أحيانا يعمل المخ الذي في جمجمتك.

جلس «حجيزي»، و«سعدون» على شفتيه بسمة صغيرة، وفي عينيه استغراب.

قال «حجيزي»: قلت لـ«يونَّاس» الرَّاهب: لماذا تنقطعون في الصَّحراء؟

فقال لي، نبعد عن أذى النَّاس.

قال «حجيزي»: زمان سألت «يوحنَّا» عن سبب انقطاعه في الصَّحراء، فقال لي: نبعد عن مشاكلنا.

- قلت لـ«يونَّاس»، في دينكم ينزل الله للنَّاس، وأنتم تبتعدون عن النَّاس؟! فقال، هو خلقهم، وهو مسؤول عن إصلاحهم، كان لابد أن ينزل لإصلاح صنعته.

ابتسم «حجيزي» وهو يقول: قال الله مسؤول!؟

وابتسم وهو يقول: من هذا الذي يمكنه أن يسأل الله!؟

وقال: ما يصير الله لو أنه خضع للسؤال.

قال «سعدون» متأفِّفا: أستغفر اللّه العظيم، قلت لك لا أطيقهم، حتى كلامهم لا أطيقه، إبليس نفسه ما قال كلامهم!

قال «حجيزي» وهو يرنو إلى بعيد، إلى الأفق، حيث السَّماء ترتطم بالصَّحراء: لكن الراهب «يونَّاس» قال كلاما آخر في منتهى العجب، قال إن ربَّهم عندما صلبوه ومات، دفنوه.....

لم يكمل «حجيزي» كلامه، لأن «سعدون» خرجت من فمه قهقهات مسرسعة، وأخذ يقلِّد حركات «غنيمة» لما يغرق في الضَّحك، ثم استلقى على قفاه، كان يحاول الكلام وهو يقهقه، يقول: دفنوا اللّٰه!؟

دموعه تسيل، ولحمه يرتج، ويقول: يا أولاد الكلب!

و«حجيزي» دَكَّه بقدمه في جنبه، وقال: اسمع باقي الكلام.

اعتدل «سعدون» وهو يمسح زوايا عينيه من الدُّموع بطرف صديريه، ويغالب بقايا ضحك. قال «حجيزي»: لكنَّه قام بعد ثلاثة أيام، وترك القبر، وطار إلى السَّماء.

نظر «سعدون» في عيني «حجيزي»، وعاصفة هوجاء من ضحك محموم تتجمَّع في صدر «سعدون»، قال: يقصدون من؟!

- اللّٰه.

وانطلقت العاصفة، والنَّاس في الحقول أخذت تنظر ناحية هذه القهقهات التي تشبه صوت ارتطام الفئوس. و«سعدون» لم يكن مستلقيا على قفاه وفقط، كان يتمرَّغ تحت جذع النَّخلة مثل حمار.

* * *

نزل النَّاس من قلوب النَّخيل، قلوبهم تقرع مثل الطُّبول، وزعق «حجيزي» في وجه الفتى الذي كان يلهث مثل كلب: ما له «غنيمة»؟

قال الفتى: هناك في الصَّحاري البعيدة، ملقى على الرِّمال، يكاد النَّفس ينقطع منه.

هتف «حجيزي»: شرب ماء؟

هزَّ الفتى رأسه بالإيجاب. ومشى «حجيزي» مسرعا نحو بيته، وجرت النَّاس نحو بيوتها، وما مر قليل وقت، حتى امتدَّ في الصَّحراء خط غامق من عشرات الجمال والبغال والحمير، تركبها النَّاس، تسوقها نحو صحاري الجنوب البعيدة.

..... كان «غنيمة» قد ركب ناقته بعد أن صلَّى الفجر، ثم وقف أمام باب المسجد ونادى على «حجيزي» الجالس بالدَّاخل، جاءه صوت «حجيزي»: يا بهيمة من غير عقل، باب المسجد مفتوح، ادخل.

كان صوت «غنيمة» حزينا، قال بنبرة أوصلت غمَّ صاحبها إلى «حجيزي»: أنا راكب النَّاقة، اخرج أنت.

خرج «حجيزي»، واندهش.

قال «غنيمة»: إلى «الخارجة»، مشوار سأقضي فيه مصلحة.

نظر «حجيزي» في وجه «غنيمة»، كان منقبضا، : أيَّة مصلحة هذه يا «غنيمة» التي ظهرت فجأة؟ وفي «الخارجة»؟!

قال «غنيمة» وهو ينخس جنبي ناقته بكعبي قدميه: عندما أعود سأخبرك بكل شيء.

مضت النَّاقة، و«غنيمة» على سنمها يرتج، وكلب «غنيمة» يهرول وراءهما.

..... وراء هذه العشرات من الصُّخور الضَّخمة غريبة الأشكال مسافات شاسعة من رمال سفيفة ناعمة، لا يبدو في الأفق نهاية لها، لكن بعد مشي ساعة، بدت رؤوس بعيدة لصخور أخرى شاهقة، كثيرة، بحيث بدت تسد الأفق كله، قال «حجيزي» للفتى: يخرب بيت من خلَّفك، ما الذي جعلكم تذهبون بأغنامكم إلى هناك؟! هذي صحاري مقطوعة يا بقر.

قال الفتى: أردنا مراع جديدة، الغنم جائعة.

هذه صخور أشد هولا، ضخمة جدا، متقاربة جدا، أشكالها مثل رءوس نمور مهشَّمة، وصدور أسود ممزَّقة، كانت هناك صخرة تشبه حمامة مقطوعة الرَّأس تقف على ساق واحدة، صخرة مريعة تبدو وكأنها ستسقط في أي لحظة، هي الصَّخرة التي جلس «غنيمة» تحتها مستندا بظهره إلى ناحية من قاعدتها، وحيدا، لم يكن أحد من الرعاة يجلس بجواره، كانوا يقفون بقاماتهم القصيرة ووجوههم الطُّفولية بعيدا، يقلِّبون أنظارهم بينه وبين شيء ملقى على مبعدة.

كان «غنيمة» مثل شبح، هزل جسده، ووجهه اختفى خلف تكلُّسات من رمل ناعم التصق ببشرته، وملابسه تمزَّقت، من غير عمامة، وعلى

مبعدة منه رأس النَّاقة مُلقىً على الرِّمال، موصول بسلسلة عظام عمودها الفقري، وبقية من لحم متهرِّئ غطَّى بقيَّة عظامها، كان هذا ما تبقى من ناقة «غنيمة»، بينما آثار أقدام ذئاب وضباع نقشت الرِّمال حولها.

نظر «غنيمة» إلى النَّاس التي التفت حوله، وقلَّب وجهه فيهم حتى رست نظراته على «حجيزي»، كان «حجيزي» قد وقف مبهوتا، و«غنيمة» نظر إلى «حجيزي» وبكى.

* * *

توقَّف «غنيمة» عن الضَّحك، واعتدل من استلقائه، وأكل لقمة من الخبز غمسها في المرق، ومد يده وأمسك بقطعة لحم، وقال وهو يرفعها إلى فمه: أهل الحظِّ لو حكَوا لك عن حظِّهم، تقول عنهم أصحاب كرامات.

قال: الخواجة الإنجليزي وهو قاعد في مكانه يسقط العصفور في يده!!

وقال: لكن أهل الحظِّ يستحقون، لأنهم ناس يفهمون، يعرفون كيف يتصرَّفون مع الأرزاق التي تسقط في أيديهم.

نظر إلى وجه «حجيزي» الذي تتلَّوى تغاضينه في اهتزاز لهب اللمبة الجاز، وقال يسأله: تظن يا «حجيزي» لو وقع عصفور في يد واحد منَّا، ماذا سيفعل به؟

هتف «بكير» وهو يزدرد قطعة من اللحم: يفصل رأسه من جسده، ويعطيه لامرأته تشويه، ثم يأكله بقضمة واحدة، لحم العصافير لذيذ يا عم «غنيمة».

قال «حجيزي»: أنا سأطيِّره مرَّة أخرى في الهواء.

قال «غنيمة» وهو يلوك قطعة اللحم: ولو صار عاجزا عن الطَّيران؟!

قال «حجيزي»: يبقى حظُّ المسكين أن يكون صيد القطط.

قال «غنيمة»: انظروا إذن ماذا يفعل أصحاب الحظوظ.

أخذ الخواجة يتأمَّل في عيني العصفور، وشهق، وقال: عصفور مسكين، عصفور جُرح رأسه، هل كُسر جناحك يا عصفوري؟

وزعق ينادي المصريَّ: يا ولد، هات الأدوية من الأجزاخانة.

أخذ الخواجة يطبِّب العصفور، والعصفور يصأصئ، وبعد أن انتهى قال للمصري عامل العربة: انتبه يا ولد لهذا العصفور، إنه الآن ضعيف، لا تتركه يطير خارج القطار، سيقع فريسة سهلة لآكلات الطيور، أنا سأرى ماذا ستفعل!

أتى المصريُّ بصندوق كارتوني صغير من تلك التي يحفظ الإنجليز فيها الطَّعام، كان فارغا، فصنع فيه بضعة ثقوب، ووضع العصفور بداخله، ثم أغلق عليه غطاء الصُّندوق، وركنه بجواره في العربة التي يعدُّون فيها أطعمة الإنجليز ومشاريبهم.

نادى الخواجة على المصري، كان القطار يزحف في صحراء استوت أرضها بلا نهاية، يغيب ويطلق صافرته، قال الخواجة: هات لي عصير ليمون.

وقال: ماذا عملت مع العصفور؟

جاء العامل يحمل صينية عليها كوب العصير، وبيده الأخرى يقبض على الصُّندوق الصغير المغلق، فصرخ الخواجة ملتاعا: يموت العصفور هكذا يا ولد يا غبي.

لكن المصري قال: أنا صنعت ثقوبا في الصُّندوق ليتنفس!

قال الخواجة، والقطار يصفِّر: العصافير الحُرّة لا تموت فقط بسبب نقص الهواء، تموت أيضا لما تفقد حريَّتها، وتشعر أنها حبيسة.

صرخ الخواجة: هات الصندوق.

نزع الغطاء، ووضع الصندوق مفتوحا أسفل النَّافذة المغلق زجاجها، وقال: العصفور يبقى هنا، انتبه له، وأنا غير موجود أطعمه وأسقه.

قال المصري بصوت حائر: قد يطير بعدما يشفى!

- لن يعود القطار إلى «الخارجة» إلا بعد مرور أسبوع، يجب أن يعود العصفور إلى وطنه، العصافير تحب أوطانها يا ولد، سيبقى العصفور في ضيافة مصلحة السِّكك الحديديَّة لمدة أسبوع.

وأخذ ابن الكلب يقهقه، وأنا أنظر إليه ما أدري ماذا أقول!

قال «حجيزي» مندهشا: وأين كنت أنت حتى تنظر إليه؟!

شهق «غنيمة»: أنا؟! مالي أنا؟!

وسارع بوضع قطعة كبيرة من اللحم في فمه.

* * *

«زليخة» خفيفة الرُّوح، وخفيفة اللسان، وجميلة، أحبَّها «سعدون» جدا، وهي أحبَّته، وأحبَّت أن تلد أيضا، مرَّت خمس سنوات ولم تلد، فقالت: يا «سعدون» نفسي في عيِّل.

قال «سعدون»: اصبري يا «زليخة» مثلما صبرت «سريرة»، عشر سنين صار عندها «بكير».

«زليخة» قالت: ما عندي صبر «سريرة»، يا «سعدون» أنا لمَّا تلد الماعز أغير وأبكي، حرام عليك يا «سعدون».

نهنهت، وبكت، ورمت رأسها في صدره الوفير، فقبَّل «سعدون» شعرها الفاحم، وقال: حرام عليك يا «سعدون»؟! ماذا فعل «سعدون»؟!

دفنت وجهها في أعلى كرشه، وقالت: لا تريدنا نذهب لطبيب.

هتف «سعدون»: تريدينا نبقى مضحكة «الوعرة»؟ نسافر على الجِمال أيام، ونركب الحديد، ونذهب لأسيوط، ثم في النِّهاية لا تلدين.

رفعت «زليخة» وجهها، ونظرت في عيني «سعدون» مثل قطَّة تتأهب للخمش: ومن قال لك أني لن ألد؟!

خفَّض «سعدون» من نبرة الغضب في صوته، يصعب عليه جدا أن يغضبها: «بهيجة» قالت لك إنك....

رمت «زليخة» رأسها على صدره مرَّة أخرى وهي تنتحب: ستقول لي «بهيجة»، وستقول لي إننا ذهبنا للشيخ «صدُّوق»، يا «سعدون» هؤلاء ليسوا أطبَّاء، أما سمعت صاحبك «غنيمة»؟!

شوَّح «سعدون» بذراعه في الهواء، وقال بغيظ: اللّٰه يقطع «غنيمة» هذا.

وأكمل: عقله عقل مجانين، يترك بلده ويذهب يعمل في بلاد النَّاس، ثم لا يسكت، وإنما يأتي ويثرثر بالحكايات التي تقلب دماغ الحريم!

.....ضحك «سعدون» وقال: واللّٰه يا «حجيزي» صممت ألَّا نسافر، لكنَّها قالت لي: أنت لا تريد أن تسافر لأنك خائف أن تنكشف، خائف يكشفك طبيب «أسيوط».

نظرت إليها مندهشا، ما كنت قد فهمت كلامها، قالت: يمكن تكون أنت الذي لا ينجب عيالا!

تغير وجه «سعدون»: تعرف يا «حجيزي»، كأنَّها دكَّت قلبي بصخرة من هذه الصُّخور.

وأشار إلى الصُّخور الشَّاهقة التي تطل أعاليها من وراء البيوت.

كانا يجلسان على حافة جدول، وقد وضعا أرجلهما في الماء الذي يجري هامسا رقراقا، والنَّاس تعلَّقوا في قلوب النَّخيل يقطعون العراجين

التي تم طياب بلحها، فتطير بثقلها في الهواء فتحدث وشيشا مثل هبَّة ريح ضالَّة، ثم يعلو صوت ارتطامها بالأرض على الفُرش التي يبسطونها حول النَّخلة.

قال «سعدون»: قلت لها واللّٰه لن تمر علينا ليلة الغد إلا ونحن مسافرون.

قال «حجيزي»: أشعر يا «سعدون» أن هذا العرجون سيسقط على «بكير».

وأشار «حجيزي» إلى قلب نخلة يتهيأ صاحبها لقطع عرجونها بالمنجل، و«بكير» كأي طفل في السَّادسة من عمره، يسعى أحيانا بين النَّخيل من غير احتراز، يتجه إلى فرشة قد تناثر عليها بعض البلح، وقف «حجيزي» يصرخ: «بكير»، يا ولد، يا «بكير».

وهوى العرجون الثقيل ببلحه المكتمل طيابه بسرعة مثل ضوء بارق.

* * *

طار غراب في أشعَّة شمس العصاري، واتَّجه إلى قلب نخلة من النَّخلتين اللتين تسمقان فوق النَّبع، ووقف على جريدة تتألق بسعفها مثل شعر عذراء خضراء، ونعق، لكن نعيقه ذاب في صراخ النِّسوة الذي انطلق فجأة، كان «صالح» ولد «سعداني» قد سقط في النَّبع، وضربت النِّساء صدورهن، و«منيرة» انكفأت على ركبتيها تنظر في ظلام باطن الأرض، وصرخت: يا «صالح».

«صالح» لم يُجب، فقامت، ورغم أنها رأت ولدها يسقط في البئر، إلَّا أنها أخذت تنظر حولها تبحث عنه في زحام النِّساء، وذهبت إلى ملتقى النَّخلتين، وأخذت تنادي: يا «صالح».

«صالح» لا يجيب، فنظرت إلى الصَّحراء المنبسطة إلى مد البصر: يا «صالح».

«صالح» لا يجيب، فعادت تجري إلى فتحة النَّبع: يا «صالح»، يا «صالح».

الغراب الذي في قلب النَّخلة ينعق.

..... في العزاء، جلس «سعداني» على إحدى الدِّكك، وجلس بجواره «حجيزي»، ضوء البدر ساطع، وغادر كثير من المعزِّين المجلس، قال «حجيزي»: رَوِّح يا «سعداني».

«سعداني» طأطأ برأسه، وفرك يديه ببعضهما: قلبي كان مقبوضا منذ الصَّباح، أنا صحيت اليوم وقلبي مقبوض، خمسون غرابا نعقوا اليوم فوق رأسي، آخرهم هذا الغراب الذي كان ينعق في قلب النَّخلة التي بجوار البئر.

نظر «حجيزي» في عيني «سعداني»، البدر يغيب ويطل منهما، ويسبح في دموع.

قال «سعداني»: سمعت نعيقه وسط صراخ النِّساء، و«منيرة» تنادي على...

انقطع كلام «سعداني»، لكنه أخذ يعوي.

.... الشَّمس متوهِّجة، ضوء العصاري مبهجا، خضرة الحقول تحدُّها صفرة الرِّمال، هامات النَّخيل تتقلَّب في زرقة السَّماء، بيوت «الوعرة» تبدو كالحة من هذه النَّاحية، أي شيء يعطي ظهره للشَّمس يبهت لونه فيصير كالحا، وجاء صوت صراخ النِّساء يتموَّج في طبقات الهواء، ونعيق الغراب يسرح بين صراخهن، أصوات بعيدة قادمة من ناحية البئر، فنصب «سعداني» قامته المحنيَّة على زراعته، وزعق: صالح.

وانساب صوت «منيرة» الملتاع: يا صالح.

فجرى «سعداني» يدوس على الزَّرع، وهو يزعق: صالح، صالح.

ورأى النَّاس «سعداني» يهج في الحقول، يجري نحو بئر الرَّاهب، يزعق باسم ولده، فنصبوا قاماتهم، وداسوا على زروعهم، وجروا وراءه.

عندما ظهر الرِّجال من قِبلي البلد، يجرون ناحية البئر، انسحبت النِّساء إلى أسفل النَّخلتين، كن يصرخن، لكن «منيرة» بقيت راكعة على ركبتيها عند فتحة البئر، تنظر إلى عتمتها، وتنادي: يا صالح.

وارتمى «سعداني» على ركبتيه بجوارها، ونظر في عتمة البئر، وفي عيني «منيرة»، ونظرت «منيرة» في عينيه، ثم تهاوت في إغماءة.

- ما يحز في نفسي يا خال «حجيزي» ميتته الصَّعبة، الولد انحشر في البئر، لم يسقط كل جسمه في الماء، رأسه فقط الذي غرق.

وأجهش بالبكاء، والبدر كان يتَّجه إلى زوال، والبيوت رابضة في نوره الفضِّي تتثاءب.

* * *

رمى «حجيزي» نفسه في أحضان «سريرة»، كان دمه يخبط في عروقه، وأنفاس «سريرة» تدخل في صدر «حجيزي» فتحوِّله إلى كتلة لهب، كانت نبعًا، وكان يريد أن ينطفئ، النِّساء خارج الغرفة تعلو أهازيجهن، والحمامة الصغيرة تهز رأسها وتبرجم.

لكن شيئا حدث أطفأ نيران «حجيزي» مرَّة واحدة.

كان «حجيزي» قد قام من أحضان «سريرة»، وجلس بين ساقيها متخذا وضع الاختراق، ونظر نظرة سريعة لجسد «سريرة» المستسلم، فإذا به يتحول من الاشتعال إلى الانطفاء بسرعة البرق، لتنز مياه مثلَّجة من مسام جبينه.

لقد رأى «سريرة» ملقاة على السرير، مسبلة عينيها، وفاتحة فمها، رأسها مستلق إلى الخلف، وشقٌّ طويل يبدأ من أسفل صدرها حتى أسفل صرَّتها ينز بالدماء، ويد عجفاء تشد أحد جانبي الشق، واليد الأخرى تخترقه إلى داخل الجسد، وتخرج وقد قبضت على أحشائها، وتسحبها للخارج، ويسمع صوتا واهنًا مهتزًّا يقول له: لا يفرق كثيرًا تحنيط الحيوانات والطيور، فقط الخوف هو ما قد يفرق، لكن كل شيء ما عدا ذلك متشابه.

- انظر.

ورفعت اليدُّ قلبا تعلَّق بأوردته، وقد تدلَّت من على جانبيه رئتان متهدِّلتان.

- لو لم تكن أمامك هذه الجثَّة الآدميَّة، لما استطعت أن تفرِّق بين هذا القلب وقلب الضَّبع، أو قلب الذِّئب.

كان «حجيزي» قد شلَّه الفزع، لكن أباه يعمل في جسد «سريرة» بهدوء ومهارة محترف تحنيط.

- الأوْلى أن نحنِّط أجساد أحبابنا، لا أجساد الحيوانات والطيور، أحبابنا هم من يجب أن نضعهم معنا في بيوتنا بعد موتهم، لا أن ندفنهم، ونرميهم للبلى.

يد «شديد» تجوس داخل الجسد، تطمئن إلى عدم بقاء أي أحشاء باقية فيه، ونظرة إعجاب تلمع في عينيه، همس: جسد الإنسان مبني يا ولدي للخلود، سبحان اللّٰه، انظر إلى صدر الجثَّة من الخارج، يبدو ضيِّقا، لكنَّه متسع جدًّا من الدَّاخل، ومنضبط.

«حجيزي» ينظر إلى الماجور الفخَّاري الذي تكوَّمت فيه أحشاء «سريرة»، ابتسم «شديد» وهو يهمس بصوت يشبه الفحيح: ما تفرق عن أحشاء الخرفان التي نذبحها للأضاحي والأفراح.

- لماذا لم تحنِّط جثَّة أمِّي؟

سحب «شديد» يده من تجويف صدر «سريرة»، ونظر في عيني «حجيزي» الصغير، وقال: ما استطعت أن أشقَّ صدرها، وقلت «غيابها يؤجِّج الشَّوق»، فدفنتها.

..... «حجيزي» تيبَّس تماما، صوت أغاني النِّساء خارج الغرفة صار مثل صوت العواصف، و«شديد» يمسك بدلو المياه ويصبُّه في جوف «سريرة»، ورذاذ المياه تناثر على جبهة «حجيزي» فانتفض، ورأى «سريرة» تفتح عينيها مندهشة، فارتد للخلف مرتعبا، وقفز من فوق السَّرير إلى الأرض، فاعتدلت «سريرة» وقد ركبها الخوف.

..... قال «سعدون»: وماذا عملت يا «حجيزي»؟!

كانت النَّاقة الجرباء تقف بينهما وقد استسلمت لهما وهما يحكَّان جلدها بحجرين خشنين.

- أنا كنت كالمجنون، الدُّنيا تهدَّمت على رأسي، نساء يقفن خارج الغرفة يغنِّين، وهن لا يعلمن أن مصيبة تجري بالدَّاخل، ينتظرن المنديل الأبيض مبقَّعا بدماء الشَّرف، وأنا حتى لا أستطيع أن أنصب طولي، كنت أرى «سريرة» جثَّة تتحرك، وما كان ممكنا أن أفعل شيئا، ولا حتى بإصبعي.

توقَّف «حجيزي» عن حك جلد النَّاقة، ونظر إلى «سعدون» وابتسم، وقال: ذبحت الحمامة.

* * *

هوى العرجون الممتلئ بالبلح بجوار «بكير»، شبرا واحدًا وكان سيسقط عليه ليقتله، لكن «بكير» مكتوب له أن يكبر ويحيا ويتزوَّج وينجب، ولأن «حجيزي» ما أنجب غير «بكير» قفز بساقيه المبتلَّتين، يجري نحو ولده الذي ملأ التُّراب عينيه، وملأت المفاجأة قلبه بالرُّعب.

أخذ «حجيزي» يضم «بكير» إلى صدره، و«سعدون» ينظر إلى «حجيزي» ويتعجَّب.

لم ير «سعدون» صاحبه «حجيزي» حنونا قبل ذلك، دائما مشاعره مكبوتة في صدره، وحبُّه لا يعبِّر عنه أبدا بكلمات، ولا حتى بحركات مثل الضَّم والاحتضان.

- لا بد الولد غال.

قالها «سعدون» لنفسه.

وقال «حجيزي»، وكان «بكير» قد أفلت ليواصل لعبه: الولد غال، والولد البكري أغلى، والولد الذي يأتي بعد طول غياب أغلاهم، وأغلى الجميع الذي يقع في براثن الموت، لكنَّه يخلص منه. وغالى الغاليين يا «سعدون» الذي يقع في براثن الموت، ولا يخلص منه.

* * *

صلاة الفجر، لم يصلِّ أهل «الوعرة» صلاة فجر أشد حزنًا من هذه الصَّلاة، فقد كانت محفَّة نقل الموتى، مملوءة بجثَّتين ملتصقتين، لصقهما الموت حرقا.

المسجد امتلأ بالمُصلِّين، على غير عادته في صلوات الفجر، وأناس كثيرون يقفون بالخارج، يلتفُّون حول «سعدون»، الذي لم يدخل للصَّلاة، وإنما بقى بالخارج يرغي مثل جمل يموت، يئن، ويئن، ثم يصيح: «يا بثينة، يا جميل».

ويصيح: يا «زليخة».

المحفَّة أمام المحراب، خشبها متهالك، ولونها الأخضر حائل، مغطَّاة بملاءة جديدة تناثرت فيها زهور ملوَّنة لم تسطع بسبب الإضاءة الخافتة الصَّادرة من نور «الكلوب» الوحيد، العصافير بدأت تشقشق، وتكف عن الشَّقشقة كلَّما صاح «سعدون» مناديا على ولده وزوجته.

قال «مزيد»: الصَّلاة على الميِّت أربع تكبيرات، بعد التكبيرة الأولى نقرأ الفاتحة، وبعد التكبيرة الثَّانية نصلِّي على النَّبي، مثل الصَّلاة التي نصلِّيها عليه في التَّشهد الأخير من أي صلاة.

النَّاس يقفون مثل تماثيل متَّسخة، وسَّخها هباب الحريق الذي بقوا طوال الليل يحاولون إطفاءه، وألجمت مشاهد النَّار، وهي تحطِّم من غير رحمة تدابير الإنسان، ألسنتهم، وعيونهم الزَّائغة كانت تشي بأن عقولهم أيضا قد اعتقلت.

- بعد التَّكبيرة الثَّالثة ندعو للميِّت، ادعوا لزوجة عمِّنا «سعدون» بالرَّحمة والغفران، وأن يدخلها اللّه الجنَّة من غير سابقة عذاب، «جميل» طفل صغير، لم يفعل شيئا بعد يغضب اللّه، ادعوا لأمِّه، وبعد التَّكبيرة الرَّابعة ندعو لأموات المسلمين جميعا.

استدار «مزيد»، المحَّفة قبالته، والعصافير تصدح، وقال: اللّٰه أكبر.

قالها بصوت متحشرج، ولم يقل أيَّة تكبيرة أخرى، فلقد وقف يرتج، وسمع النَّاس نشيجه، وكانوا يسمعون أنين "سعدون"، وكان «مزيد» واقفا أمام المحفَّة، يسمع صوت «جميل» في صلاة عشاء هذه الليلة المقيتة، ويراه جالسًا بجسده الصَّغير في باطن المحراب، يردِّد بانسجام كلمة «أمَّاه»، كان «جميل» يعجبه صدى صوته في المسجد، ولم يهتم بأن النَّاس يصلُّون، وأن «مزيد» يقرأ القرآن، فأخذ يردِّد منغٍّما صوته الوديع: «أمَّاااااه».

فوجئ المُصلُّون بإمامهم يميد، ثم يسقط وهو ينتحب، ويقع على جنبه، ويردِّد بصوت يطلع من أنفه، ومن فمه الذي امتلأ دموعا: لا إله إلَّا اللّٰه، لا إله إِلَّا اللّٰه، الولد يدخل المسجد حيًّا في صلاة العشاء ونُصلِّي عليه محروقا في صلاة الفجر.

..... «سعدون» ينوح، خرجت المحفَّة من باب المسجد، تعوم على أكتاف النَّاس، والنَّاس يملأون المتَّسع أمام المسجد، يتحرَّكون خلف المحفَّة، الصَّمت بليغ، فقط صوت الجلابيب تخبط في السِّيقان، والخفاف تدك الأرض بسرعة، مهرولة نحو الجبَّانة البعيدة، التي تبعد عن «الوعرة» أكثر من خمسة كيلو مترات، وصوت أنين «سعدون» خفت، نور الصَّباح سطع، والشَّمس تطفو فوق الأفق البعيد، تملأ مئات العيون التي تتَّجه نحو عملية دفن مرهقة.

***

لحظة لن ينساها الولد «سليم» طوال حياته.

يحب «سليم» النَّحت، فيجمع قطع الحجر الجيري، المتخلِّفة عن عمليات بناء أسوار المزارع والبساتين، وينحتها.

ويستهويه النَّحت كثيرا عندما يكون في المراعي البعيدة في قلب الصَّحراء، يترك أخويه «سالم» و«سلمان» يتابعان الغنم، ويجلس في ظلِّ حجر كبير، أو ظلِّ شجرة، يخرج سكِّينا ومسمارا، وقطعا من حديد هيَّأها لعملية النَّحت، ويجلس ينحت.

ينحت ما يعن له، ذئابا، كلابا، وجوها لأناس في مخيِّلته، وينحت أيد بشرية، وأقداما أيضا، وعندما غلظ صوته، وجسمه تمدد وانبسط، نحت ثديا ناهدا.

في مرَّة صحا من نومه سعيدا، وأخذ يحاول تذكُّر سبب سعادته، ثمَّة حدث جرى في منامه أجرى البهجة في قلبه، وتذكَّره، لقد ضم البنت «سكيرة» في منامه، وقبَّلها، وكان جسدها طريا، وشفتاها حلوتين، حلاوتهما بقت طويلا على شفتيه، وحول لسانه.

في المرعى، رأى الصَّحراء غير الصَّحراء، كانت ألطف، والأغنام ليست هي الأغنام، كانت أطوع، ولم يكن «سلمان» ولا «سالم» هما «سلمان» و«سالم»، كانا ودودين جدًّا، وحجر الجير يتشكَّل بسهولة مثل ماء، وفي أقل من ساعة، انتهى من نحت تمثال جديد.

جسمه مرتبك أثر الضمَّة التي كانت في المنام، ويشعر بلحم «سكيرة» الطَّري دافئا بين ذراعيه، والقبلة التي مازال لهبها يضطرم في شفتيه، ما هذا الذي نحته؟!

ما هذا الخدر الذي يسري في...

هواء الصَّحراء اليوم خير، يحمل برودة تنشِّط الجسد، حتى الشَّمس أشعَّتها ليس لها هذا الوهج الذي يعمي الأبصار، وإنِّما نور رباني يجعل الرُّؤية ممتعة.

تتسحَّب يد «سليم» إلى المكان الذي بدأ الخدر يلهبه، بين ساقيه، وأمسك بالمنتصب، وكانت لذَّة عارمة، لكنَّها مخيفة، شعر أن مزيدا من اللذة يحدث عندما يحرك أصابعه، يدلك بها هذا المنتصب، لتكون متعة أقوى، واشتد الخوف، ما يخيفه هو عدم معرفته بما يحدث، وكيف سينتهي، فجأة نزع يده بسرعة، كان «سلمان» يأتي من عند الأغنام، يجر عصاه على الرِّمال، يصنع بها خطًّا يتلوَّى مثل حيَّة، يتصاعد منه السَّقيف.

- إيش سوِّيت اليوم يا «سليم» بالحجر؟

كان «سليم» يعاني من الارتباك، جسمه متأجِّج بشيء مجهول، ويخشى أن يطل هذا المنتصب من بين طيَّات ملابسه، فيراه «سلمان» ويفضحه، فزعق بصوت قلق: ماذا تريد؟ اذهب يا «سلمان» لرعي الغنم، الغنم يمكن تهج في الصَّحراء.

لكن «سلمان» رغم صغر سنِّه كان يشعر بأن أخاه الكبير يحاول إبعاده عن شيء ما، ولصغر سنِّه ما كان ممكنا له أن يتوقَّع هذا السَّبب، فأمسك بالتمثال الذي نحته «سليم»، وبحلق عينيه، ثم قال وهو يقلِّبه بين يديه: ما هذا؟

كان النَّحت يشبه ثعبانا ليس له رأس، وإنما له ذيلان، لقد نحت «سليم» شكل حركة «الدِّفان» تحت سطح الرَّمل.

قال «سليم»: هذا تمثال الرِّيح، أنا نحتُّ الرِّيح.

ضحك «سلمان» وهو يلقي التمثال على الرِّمال السَّفيفة، وقال: الرِّيح! لا أحد يمكنه أن يرى الرِّيح لينحت شكلها.

وقال «سلمان» وهو يجر عصاه خلفه، ماضيا نحو الغنم: تمثال شكله سيئ.

وقال وهو يبتعد: أنا أعرف لماذا تريد إبعادي، معك شيء تريد تأكله وحدك، التُّوت، لابد هو التُّوت.

ابتعد «سلمان»، وقام «سليم» ومضى إلى النَّاحية الأخرى حيث الصُّخور العملاقة غريبة الأشكال، والنَّار تأكل ما بين ساقيه، واختبأ خلف أوَّل صخرة، وجلس على الرِّمال النَّاعمة، رمال لم يجلس عليها قبله بشر، وأسند ظهره إلى جزء من الصَّخرة أملس، ودفع يده تحت ثيابه، حيث صخرة صغيرة ناتئة أسفل سرَّته، وأخذ يحرك أصابعه يتحسَّسها، الدَّم يتدفق في كل عروق جسده، ويده تلف أصابعها الخمسة على الصَّخرة المستطيلة، وتشتد رويدا رويدا، غادرت حالة التَّحسُّس واللمس، إلى حالة الدَّعك، ولذَّة النَّار تضطرم، وتغيم الصَّحراء، وتتبدَّى «سكيرة» عارية، ويراها ممدَّدة فوق سرير أبيه «بكير»، رافعة ثيابها عن جسد لا يعرف كيف يعامله، كانا صغيرين، هي في الخامسة من عمرها،

وهو في التَّاسعة، وكان يريد أن يعمل معها، مثلما يعمل أبوه «بكير» مع أمِّه «ثريَّا»، ولم يعرف.

«سكيرة» تتَّجه إليه طائرة على الرِّمال، عارية، بجسد منساب مثل طائر البط الذي يطير بعيدا في السَّماء، وعندما يتعب يسقط في الصَّحراء ليموت ميتات عديدة، إعياء، أو عطشا، أو افتراسا، «سكيرة» جميلة، مثل هذه الطُّيور البيضاء، وأجمل وهي عارية، ومتمدِّدة على الرِّمال الحريرية بجواره.

يشتد الدَّلك، الثِّياب تضايقه، فيُخرِج هذا المنتصب، فيراه أمام عينيه مثل ذؤابة لهب منحوتة من الصَّخر الأحمر البرَّاق.

لماذا يشعر الآن أنَّه يجيد لعبة الجسد؟! ينقض على شفتي «سكيرة» ويأكلهما، والسَّماء فوق صافية، زرقاء، و«سكيرة» تحته مزلزلة، مملوءة بالعواصف، وهو يفور مثل الماء المغلي في مراجل الفخَّار، وعلى المنتصب مثل ذؤابة اللهب المتحجِّرة أن يعرف طريقه نحو ماء الآبار، وعرف طريقه، ونظرت الصُّخور الضَّخمة الشَّاهقة إلى جسد تضطرم فيه النِّيران، ولا يموت.

تزداد سرعة الدَّلك، ما هذا؟ أي شيء هذا القادم؟!! تتشنَّج الساقان، الرأس يرتفع، الوجه يقابل السَّماء، الأسنان تنغرس في الشَّفتين، العينان غمضتا لكنَّهما تريان الدَّبيب الذي لا يُرى، ريح عاتية تضرب كل خليَّة في الجسد المتشنِّج.

اليد صارت مجنونة، ولهب النَّار المتحجِّر يزداد تأجُّجا، القادم! القادم! القادم!

وتدفَّق لبن من طرف ذؤابة النَّار، لبن طار في الهواء مثل قذيفة، وصرخ «سليم»، ركبه الرُّعب، فقفز يريد الوقوف، لم يتمكَّن، يده تفترس اللهب المتحجِّر، لا تريد تركه، يسقط «سليم» على جنبه، فيثور غبار الرَّمل، ويتدفَّق نهر اللبن، ويخور «سليم»، ثم تتوقَّف اليد فجأة، فيخطفها «سليم»، وينظر إلى ما بين فخذيه، ما ظنَّ وقتها غير أن عضوه قد جُرح، وهاله الدَّم أن يكون أبيض.

لحظة لن ينساها الولد «سليم» طوال حياته.

7

في السَّماء طيورٌ مهاجِرةٌ

أعد «حجيزي» زاد رحلته الأخيرة إلى «موط»، يعرف أنه حتى لن يصل إلى «موط»، يلزم ما هو أكثر من ثلاثة أيام للوصول إلى هذه البلدة، وليس متبقيا له من أيام الحياة غير ثلاثة أيَّام، الرُّؤيا جاءت مفسرة بكل وضوح، ثلاث تمرات كان يأكلها، وقال المُعبِّر في داخل الرُّؤيا: ثلاثة أيام وتموت يا «حجيزي».

لن يصل إذًا إلى «موط»، لكنه سيصل إلى شجرة «البرتقال»، سيفشل كل ما يخطِّط له، لو لم يصل إلى هذه الشَّجرة.

لا يريد أن يُدفَن، وفي نفس الوقت، لا يريد أن يُتَرك على وجه الأرض فتأكله الكلاب، أو تنهشه الوحدة، لا يهرب «حجيزي» من الدَّفن، سوى لأنه الوحدة الصِّرف، يحب الونس، ولن يقبله الأحياء بينهم، لو أنه تعفَّن، لو استطاع التخلُّص من التعفُّن، لن ينفر منه الأحياء، وسيتركون جسده بينهم، وإذا كان الخلاص من الموت مستحيلا، فالخلاص من الدَّفن ممكنا، لو أنه أحسن تنفيذ الخطَّة.

- لو أن ولدي «بكير» كان شجاعا، وتعلَّم مني صنعة التَّحنيط، كان نفعني، لكن قلبه مثل قلب فأر.

لن يأكل شيئا أبدا، فقط سيسف مطحون القرض، ولن يشرب ماء إلا بالقدر الذي يسمح بابتلاع هذا المطحون العلقم، فالماء مصلحة لأجساد الأحياء، لكن إذا مات الجسد، صار الماء مفسدة له، وعندما يصل إلى شجرة البرتقال، لابد من أكل ولو ثمرة واحدة، يريد إذا مات أن يعبق جلده برائحة البرتقال، الأحياء سيحبُّونه أكثر وهو يفوح بعطر البرتقال.

..... - قل لي يا «سعدون»، ماذا لو أن الميِّت ما أخرج الرَّوائح العفنة، وأخرج رائحة البرتقال؟

كان «سعدون» ممدَّدا عريانا، إلا من لباسه الدَّاخلي الطَّويل، الذي يداري أسفل سرَّته المختبئة بين ترهُّلات لحم بطنه، حتى أسفل ركبتيه، في الماء الدَّافئ الذي يملأ الحوض المقام فوق هذه البئر السَّاخنة، وكان «حجيزي» غاطسا مثله في الماء حتى الرَّقبة.

- كيف يُخرج الميِّت رائحة البرتقال يا «حجيزي»؟

غمغم «حجيزي»: مالك أنت؟! لكن لو أخرج الميِّت رائحة البرتقال، هل ندفنه؟

أخذ «سعدون» الماء بكفَّيه، وضرب به وجهه فالتمع، قال: والله ما أجيبك إلا إذا قلت لي كيف يمكن للميِّت أن يُخرج روائح البرتقال.

بجوار العين السَّاخنة، شجرات «فيكس» متراصَّة في شكل نصف دائري، كأنَّها تحيط بالعين، تداري المستحمِّين، وعصافير تتنطط بين أغصانها، والشَّمس في علياء الضُّحى، تبرق في صلعة «سعدون»، وتتوهَّج على صلعة «حجيزي»، والصَّحراء منبسطة من ناحية، ومن ناحية أخرى تربض الصُّخور البالغة الضَّخامة، غريبة الأشكال، على صدرها فتهمد.

- نُطعم الإنسان قبل أن يموت برتقالا فقط.

انطلق «سعدون» في الضَّحك، وأراد أن يستلقى، فغطس في الماء، فقبّ وهو شرقان، يسعل ويعطس، ويضحك، ووجهه يحمر، وقهقه «حجيزي» شامتًا في «سعدون»، لكن «سعدون» أفاق من سكرته، وقال: واللّه يا «حجيزي» لو سقيت الميِّت عطرا، فلن يُخرج من دبره إلا فساء عفنا، هذا طبع الميِّتين.

فتوقَّف «حجيزي» عن الضَّحك.

الماء يخرج رقراقا من الحوض إلى جدول صغير، يمتد خيطا أخضر في لوحة الرِّمال الصَّفراء، يتمشَّى ناحية الزُّروع البعيدة، و"أبو قردان» وقف على حافَّته، ينقر الماء، ولا يشرب.

- من قال لك هذا يا حمار؟!

- لا أحد. لكن الميِّتين لن يكونوا فوَّاحات عطور.

- جرَّبت يا أغبى من الضب؟!!

- ما جرَّبت!! وكيف نجرِّب هذا؟!

- جرِّبه معي، أول ما تشعر أنني سأموت تأتي لي بالبرتقال، لا تجعلهم يطعمونني غير البرتقال.

- وإذا لم يكن هناك برتقال؟! المانجه تنفع؟! رائحتها حلوة يا أخي.

صمت «حجيزي» قليلا، وقال: هواي رائحة البرتقال، لكن لو جئت تموت قَبلي، سأطعمك المانجة.

زعق «سعدون»: لا يا «حجيزي»، أنا أريد أن أُدفن في قبر به لحد، سُنَّة الرَّسول يا حبيبي.

زعق حجيزي: هذي سنة الغربان يا ناصح، قالوا الغراب هو الذي علَّم الإنسان الدَّفن.

«سعدون» شهق، كان كلام «حجيزي» متهوِّرا، لكنه قال: ولو، أنا أريد الدَّفن، كل ميِّت وراحته يا أخي!

صرخ «حجيزي»: غور، براحتك، طول عمرك عفن، وستكون ميتًا عفنا أيضا.

- كان نفسي أعمل لـ«زليخة» قبرا مثل غرفة تسع اثنين، وأُدفن معها لمَّا أموت، النَّاس ما أعطوني فرصة.

بدا «غنيمة» قادما من غرب البلد يتهادى مثل ماعز عجفاء، يخطو بين الحقول ببطء.

قال «سعدون»: لكن ما تقوله عجيب، وحلو واللّٰه، جثث الأموات تفوح بعطور الفواكه!

انبسط «حجيزي» لكلام «سعدون»، فقال هاتفا: هل يدفنون موتى يفوحون بالعطور يا «سعدون»؟!

هز «سعدون» رأسه، وقال: واللّه ما أعرف، لكن لو لم ندفنهم، ماذا نفعل بهم؟!

قال «حجيزي»: نبقيهم معنا في البيوت، يعيشون بيننا.

انطلق «سعدون» في الضَّحك، وكان «غنيمة» قد وصل إليهما، فقال: السَّلام على زوج الحمام.

فقال «سعدون» وهو يغالب ضحكه: السَّلام على فرد الغراب.

وقال «حجيزي»: السَّلام على العنزة الجرباء.

وقال «سعدون»: كيف يعيش الأموات بيننا يا «حجيزي»، الأموات لا يعيشون!!

قال «حجيزي»: الأموات يموتون فعلا لما ندفنهم، لكن لو بقوا بيننا سيعيشون، ستكون لهم أدوار أخرى في حياتنا.

«في بيوتنا غرف لنومنا، وغرف ينام فيها أطفالنا، وغرف لخزين غلال حقولنا، وغرف لتخزين بلح نخيلنا، وحظائر لبهائمنا، لن تضيق بيوتنا إذا جعلنا فيها غرفا لأمواتنا، ولن يزعجنا الميّتون طالما هم فوَّاحات عطور».

«غنيمة» نزع ملابسه، ومثلهما بقي بلباسه الذي يداري عورته، لكن عورته أطلَّت من قَطْع في لباسه، جلدة مرتخية مدلَّاة، وقهقه «حجيزي»، ونظر «سعدون» إلى الذي كان «حجيزي» ينظر إليه وقهقه أيضا، و«غنيمة» سارع بتحريك لباسه، فاختبأ الذي كان يطل، ودخل «غنيمة» في الحوض، وغمر نفسه بالماء، وقال: في مرة اشتد فقطع اللباس.

راح «سعدون» في نوبة ضحك، عاد منها على كلام «حجيزي» لـ«غنيمة»: لو كان في فم كلبك أسنان ما كان ترك أكل العظام، بتاعك يقطع اللباس؟! كنت تزوَّجت يا ابن الكذَّابة.

- ما كان يمكن أتزوَّج بعد المرحومة. كم مرة قلت لكم ما يمكن أتزوَّج بعد المرحومة.

قال «غنيمة»: لو أن الميِّتين يفوحون بالعطور ما كنت دفنتها، وما كنت سأضعها في غرفة تكون للميِّتين في البيت، كنت بقيت أنقِّلها معي في كل مكان من البيت، كنت جعلتها تعيش وهي ميِّتة.

«سعدون» يخرج من حوض المياه، والماء ينسحب من على ثنيَّات جسده، ويعود في شلَّالات صغيرة إلى الحوض، واللباس يلتصق بإليتيه وفخذيه، فيبدو بياضهما المشوب بالحمرة، قال «سعدون»: أنت تظن هذا الآن، لكن كنت ستزهق منها، وربما كنت ستنساها في حظيرة الغنم.

كركب صوت «غنيمة»، عاليا غاضبا: أغلق فمك يا «سعدون»، كيف أنسى «لبنى» في حظيرة الغنم، ما تتكلَّم كلمة أخرى.

لم يتكلَّم «سعدون»، كان يلبس جلبابه، والعصافير تتنطَّط بين أغصان شجر البرتقال، وقرادين كثيرة بدأت تتجمَّع على ضفَّتي الجدول الأخضر الصَّغير، المنطلق في بحر الرمال.

* * *

ليل الصَّحراء، سماء بالغة السَّواد، ونجوم ساطعة التَّوهج، ثم لا شيء يبدو بوضوح، فقط بيوت «الوعرة» القديمة تتلاصق مثل نعاج نائمة، تبدو بشحوب يكاد يُخفيها، والمسجد بقبَّته الأقرب لبيت «حجيزي» يبين خيالا، في هذا الظَّلام، كانت البقعة المضيئة أمام البيت تظهر كأنها قطعة من نهار قادم، وكانت اللمبة «العويل» داخل البيت تصب النُّور بلا ملل.

انتهى «حجيزي» و«غنيمة» و«بكير» من الطَّعام، ورُفعت الطَّبلية، وجاء الشَّاي في كوبين من زجاج أصفر غير نقي، وجلسا على المصطبة يرشفانه.

- تعيش حياتك «يا غنيمة» لا تكف عن الكذب، كنت أنت الذي تعمل في قطارات الإنجليز.

سكت «غنيمة»، ورشف الشَّاي، ثم نظر في وجه «حجيزي» وانطلق يقهقه.

جاء «بكير» يحمل كوب شايه، وفي ذيله جاء «سليم» و«سالم» و«سلمان»، قال «بكير»: العيال يريدون سماع بقيَّة حكاية العصفور الذي ركب القطار.

ابتهج «غنيمة»، وقمر مكتمل أحمر ضخم، بزغ فجأة في أفق الشُّروق، يتسلل صاعدا بين النَّخيل.

- الخواجة الإنجليزي عمل بيتا من خشب للعصفور، بيتا كاملا، مثل بيوت المدن، فيه غرف كثيرة، وفيه كنيف! وتركه مفتوحا، ووضعه في ركن من أركان عربة «البولمان»، العصفور نط من الكرتونة، ودخل البيت يهز رأسه، وأخذ يأكل من حبَّات القمح المكوَّمة في غرفة الطَّعام، وترك الخواجة باب العربة مفتوحا، وأخذ يراقب العصفور، هل سيطير ويهرب، أم سيبقى، العصفور بقي، بعد قليل طار، وخرج من الباب، الخواجة حاجباه انثنيا، ورسما حزنا على وجهه، وطلب مني ليمونا، وجلس ينظر إلى بيت العصفور، لكن فرح جدا لمَّا رأى العصفور يعود، وعصفور آخر يطير خلفه.

أنا كنت أتيت بعصير الليمون، وعيناي على بيت العصفور، فوجدت عصفورين، قلت: صارا عصفورين يا خواجه.

قلت لي: عصفور وعصفورة يا ولد.

وصافرة القطار شرخت ضجيج محطة «أسيوط»، وتحرك القطار، وعاد العصفور إلى «الخارجة» معه عصفورة!!

«سلمان» قال: لما وصلا طارا وتركا القطار؟

- ما تركا القطار أبدا، صارا يسافران مع الخواجة وأصحابه المهمِّين، وباضت العصفورة في حجرة النَّوم.

علت قهقهة «بكير»، وضحك العيال الثَّلاثة، ولوى «حجيزي» شفتيه مستغربا الحكاية.

- كأنَّك ما تصدق الحكاية يا «حجيزي»!؟

- طول عمرك تقول حكايات، تخلط الجد بالهزل.

- لماذا لا تصدِّق؟ الإنجليز حركاتهم عجيبة، يتركون بلادهم ويأتون بلاد النَّاس يحتلُّونها، تصرُّفاتهم عجب، ما أعطاني قمحا آكله أنا وولدي، لكنَّه أعطى العصفور قمحا، تعرف؟ هذه العربة امتلأت بالعصافير، وبزاقها غطَّى الكراسي والمناضد، ما عدت أنا ولا العامل النُّوبي قادرَين على متابعة تنظيفها، بقي في العربة ألف عصفور أو أكثر! وبدلا من طرد العصافير، ركنوا عربة القطار «البولمان» الفاخرة، على شريط سكَّة حديدية جانبي، بعيدا عن محطة «أسيوط»، أنت مستغرب هذا؟! وعيَّنوا عليها حراسة كي لا يجرؤ أحد على إزعاج هذه العصافير.

* * *

تجمَّع الرِّجال حول بئر «الرَّاهب»، وجذبت النِّساء المولولات«منيرة» ناحيتهن، كانت تصرخ، وتخمش الأرض بأصابع يديها، لا تريد البعد عن فتحة البئر، و«سعداني» ينهرها ودموعه تهطل، ثم صفعها على صدغها فسكتت ذاهلة، وتركت الأرض، وانصاعت لجذب النِّساء.

الغراب يقف بين سعف إحدى النَّخلتين، يشد رقبته وينعق، ووقف الرِّجال يحاولون حل المشكلة، كيف يخرجون جثَّة الولد «صالح»، المحشورة حشرا في أعماق نبع يميل في الأرض بضيق شديد، لا يمكن

لأقل الرِّجال جسدا وأنحفهم النُّزول، كان الحزن يعظم في قلب «سعداني»، الولد مات، ثم لا يستطيع إخراج جثَّته!

الشَّمس تتَّجه للمغيب، و«سعداني» يتَّجه نحو الجنون، يخلع ملابسه، وصرخ: أنزل البئر، ولدي لا يبقى فيه، أدفنه يا ناس مثل النَّاس في قبر.

لكن الرِّجال أمسكوه، فلم يستطع خلع المزيد من ملابسه، صرخوا فيه: كيف تنزل بئر النَّحس هذا؟ ما تستطيع؟! لو ينفع كان نزل عيِّل من عيالنا!

صوت «غنيمة» كركب: هاتوا حبل «بطان» واربطوا في آخره خطَّاف، وندلِّيه في البئر، يمكن الخطَّاف يعلق في ملابسه، ونجذبه.

«حجيزي» يقف على حافَّة البئر، والنَّخلة وقفت عليها غربان كثيرة، لكنها لا تنعق، ترفرف بأجنحتها، لتتفادى السُّقوط من زحمة الغربان، وولولة النِّساء الخافتة الرَّتيبة، تقطعها صرخات «منيرة» الملتاعة، والنَّخلة الثَّانية تستقبل وفودا من غربان جديدة تأتي من قلب الصَّحراء.

«حجيزي» ينظر في ظلام البئر، ويرفع وجهه ينظر في وجوه النَّاس، وفي وجه «سعداني».

«ماذا يريدون؟! لماذا يحرصون كل هذا الحرص على إخراج الولد؟! يريدون دفنه في التُّراب؟! لم لا يتركونه مدفونا في بئر تجري فيه المياه؟ الماء أم التُّراب أجمل بالنسبة لميِّت؟ لو سألوا الولد وأجابهم، سيقول لهم أبقوني في المياه، هم يريدون إخراجه لتدور عجلة حياتهم،

ليجلبوا الماء لهم، يدفنون الموتى، كي لا ينشغلوا بهم، يريدون العيش من غير منغِّصات قد يصنعها الموتى، ليست هناك مشكلة عندهم لمَّا يصنع الأحياء المشاكل، لكن الموتى!».

أنزل «فُتحَة» الحبل المنتهي بشص ضخم إلى البئر، وجذب قليلا، من خفَّة الحبل أدرك أن الخطَّاف لم يعلق بجثَّة الولد «صالح»، دلَّى الخطَّاف وأخذ يحرِّكه، وجذب، هذه المرَّة شعر بثقل، جذب أكثر، كان الثِّقل يزداد وزنا، ولم يكن الحبل يتحرك، كانت الجثَّة محشورة بقوَّة، وعندما جذب جذبة قوية، انفلت الخطَّاف بعد أن مزَّق قطعة الملابس التي كان قد علق بها، ارتفعت أصوات ناهرة: بالرَّاحة يا «فتحة».

شمس المغيب في أفق الصَّحاري تنشر الشَّجن، مغارب الرِّمال مغموسة في الخشوع، والصُّخور الضَّخمة غريبة الأشكال هناك مثل نساء الجن تتشح بالسَّواد، الغربان زحمت النَّخلتين، تبزغ صرخة لـ«منيرة» الذَّاهلة، وتبزغ نعقة لغراب يستعد لاستقبال الظَّلام، وبئر «الرَّاهب» تعيش لحظات حدث تحرِّكه أقدار مبدعة، تبدع في رسم لوحات الألم.

الحبل يصعد رويدا رويدا، ببطء شديد، عيون الرِّجال تركَّزت على فتحة البئر، ينتظرون وصول ضحيَّة الموت الجديدة، تحتك الجثَّة الصَّغيرة بجوانب البئر، وعندما شارفت على الوصول، علت شهقة «سعداني»، ثم تنفَّس بآهات تختنق: آآآآآآآآه، آآآآآآه.

الموت مؤلم، كيفيَّته في كثير من الأحيان أشد إيلاما، وأحيانا هناك ما هو أشد إيلاما بكثير من الموت وكيفيَّته.

كانت الجثَّة الصغيرة تصعد إلى حافَّة البئر، وقد نكت الخطَّاف نصله في إحدى عيني رأسها.

* * *

قال الشَّيخ «علوان»: القبر أوَّل منازل الآخرة.

وقال: إما يكون روضة من رياض الجنَّة، أو حفرة من حفر النَّار.

وقال: وكان سيِّدنا «عثمان بن عفَّان» يسمع أهوال الآخرة صامتا، لكن إذا ذكر القبر بكى.

«الكلوب» يضيء بالنُّور الخافت، والنَّاس قبل إقامة صلاة العشاء يسمعون، سيرة الموت والقبور تشغف قلوبهم، كأنَّها حكاية مسلِّية، فالحياة في واحة «الوعرة»، مثلما في أي واحة من واحات الصَّحراء، رتيبة، وينخر فيها الملل، كلام الشَّيخ «علوان» تسالي، يقول حكايات عجيبة عن رسول اللّه «محمَّد»، وحكايات غريبة عن حروبات دارت بين المسلمين والكفَّار، وقصص حلوة عن جنَّة فيها ما تشتهي الأنفس، يطلب الإنسان ما يتمنَّاه، في غمضة عين يكون أمامه، وأعجب العجب من أحوال الجنَّة طعام أهلها، وأغرب الطَّعام لحم الطير.

قال الشَّيخ «علوان»، وهو يبتسم ابتهاجا: يكون الطير يرفرف في سماء الجنَّة، طير الجنَّة أجمل من أي طير ترونه يطير في سمائنا، فيشتهي الواحد منكم يأكل منه، فينزل الطَّائر بسرعة النَّجم وهو يسقط، ترون النَّجمة وهي تسقط؟ يسقط الطَّائر بأسرع منها بين يديك، ينزل مشويًّا

كأطيب ما يكون الشِّواء، فيظل الإنسان يأكل منه، حتى لمَّا يشبع، ويحمد اللّه، يعود الطَّائر حيًّا، وينطلق مرة أخرى إلى سماء الجنَّة.

ارتفع صوت «حجيزي» مندهشا: يا شيخ!؟

قال «علوان» باسما: ما تصدِّق يا «حجيزي»؟

- أصدِّق، عندنا في الأرض عجائب، فلم لا تكون في السَّماء عجائب، لكن الطَّير هذا في الجنَّة لمَّا آكله يكون حيّا؟!

قال الشَّيخ «علوان»: كيف يكون حيّا وأنت تأكله يا «حجيزي»؟! يكون مشويّا.

- أنت قلت إنه سيطير بعدما نأكله!

قال الشَّيخ «علوان»: اللّه يحييه مرة أخرى فيطير.

هز «حجيزي» رأسه زهقا، وزعق: أنا لن أستطيع أكل طير أعرف أنه سيحيا بعدما انتهى من أكله! كأني آكله حيا!

سكت «علوان»، لا يجد كلاما، لكن «حجيزي» أكمل: أنا أريد زوجتي في الجنَّة، تمسك الطير، وتذبحه، وتسوِّيه، وآكله، وأمص عظامه، ثم أرمي ما تبقَّى منه لكلب «غنيمة».

وارتفعت أصوات ضحكات المنتظرين لإقامة الصَّلاة.

..... - نسيت اسم صاحب رسول اللّه الذي قال «علوان» إنه يبكي لمَّا تأتي سيرة القبر.

- عليه الصلاة والسلام، اسمه «عثمان بن عفَّان» يا «حجيزي»، كيف تنساه وجَدُّه أصل جَدِّك؟!

كان «حجيزي» قد تمشَّى حتى بيت «سعدون»، ذهب يسلِّم عليه بعد أن عاد هو وزوجته «زليخة» من رحلة السَّفر الطَّويلة إلى «أسيوط».

ليالي الصيف في الصَّحراء ساحرة، و«حجيزي» الصَّديق الأعز لـ«سعدون»، و«سعدون» يعتبر «حجيزي» صاحب بيت، لذلك لا يستقله في الـ«مندرة»، وإنما يدخل به إلى عمق البيت، يحمحمان بصوتيهما، حتى تنتبه «زليخة» لدخول «حجيزي»، و«زليخة» تنتبه، فيعلو صوتها بعبارات التَّرحيب، وهناك في «الوسعاية» أمام حظيرة، «الغنم» يجلسان على قطعة من صوف النِّعاج، يتبادلان الحكي، في انتظار الشَّاي، وأروع ليالي صيف الصَّحراء، هذه الليالي التي يسبح في سمائها قمر مكتمل يصب النُّور، وكانت هذه الليلة من أروع الليالي.

- «عثمان بن عفَّان» هذا مثلي، ما يحب الدَّفن، قال «علوان» إن سيرة الموت ما كانت تزعجه، لكنَّه كان يبكي لما تأتي سيرة الدَّفن، اعرف يا «سعدون» أن الموضوع يضايق كل من عنده إحساس.

وقال «سعدون»: أنا والله عندي إحساس، وأحب الدَّفن، ابن آدم إذا مات صار عورة، وكرامة العورة سترها، الدَّفن سترة يا «حجيزي».

مأمأت ماعز تطل عليهما من خلف باب الجريد، نشَّطها الونس.

جاءت «زليخة»، وأعطت لكل منهما كوبا، وقالت: واه يا عم «حجيزي»، الدُّنيا «أسيوط»، نحن في هذي الرِّمال ما نعيش دنيا «أسيوط» حلوة.

«حجيزي» له طريقة في رشف الشَّاي، تخصُّه وحده، النَّاس يرشفون الشَّاي رشفات طويلة، وهو يخطف الرَّشفات خطفا، وخطف «حجيزي» رشفة شاي، وقال: تحبين الهرج والمرج يا بنت النَّاس، واحتنا نعيمها الهدوء.

قالت «زليخة»: «أسيوط» ونس، و«الوعرة» وِحدة، أنا أحب الونس.

واستدارت، وغابت.

«حجيزي» بحلق عينيه، و«سعدون» نظر إليه بعينين متسائلتين، فخطف «حجيزي» رشفة شاي، وهمس: الونس! امرأتك تحب الونس.

صفَّق «سعدون» بيديه، ثم فرك كفَّيه ببعضهما، وعلت وجهه ابتسامة عريضة، ونظر إلى قمر السَّماء فوقهما، وقال: يا «حجيزي» الليلة جميلة، وأنا بالي رائق، ما تعكِّره بسيرة الموت، أريد أحكي لك ما حدث عند الطَّبيب، ستموت من الضَّحك، طبيب ابن كلب، قليل حياء.

وغطس «سعدون» في الضَّحك.

* * *

«غنيمة» قال: همِّي في قلبي، وأنا فوق سنام ناقتي، والكلب يمشي وراءها، النَّاقة لا يلفت نظرها شيء، فقط تنظر إلى الأمام، إلى الدَّرب الذي لا نهاية له، بينما الكلب يترك المشي خلفها أحيانا ليناوش حرباء، أو يقفز خلف ورن، النَّاقة تتهادى صامتة، لكن الكلب ينبح أحيانا، وأحيانا يعوي، أقلِّب بصري في وسع الصَّحراء، وقلبي يدق بعنف القلق، سافرت كثيرا بالجمال، لكن لم أسافر أبدا بمفردي، ربما لهذا كان القلق يضرب نياط قلبي؟!

وربما لأني كنت خائفا من ألَّا ألحق بـ«زبير»، «زبير» يقضي مصالحه في «الخارجة» ويمضي دون أن يفكِّر أن له أبا وحيدا في هذه الصَّحراء يجب أن يسأل عنه، فيعود مسرعا إلى البلد التي يسكنها في «البحيرة»، يعاشر الفلَّاحين والعرب البدو.

يا «حجيزي»، «زبير» قلبه قاس، الولد يهج وسنُّه عشرون سنة، وتصير سنُّه الآن أربعين سنة ولا أراه حتى مرَّة واحدة، القلب توجَّع بموت المرحومة، لكنه تمزَّق من جفاء «زبير»، كم مرة أقول لنفسي عش حياتك من غير فكر فيه، لكن لا أستطيع، قلوبنا تزني بها قلوب أولادنا، فتعيش طوال عمرها مكسورة لهم.

لكن تكشَّف لي بعد ذلك أن سبب قلقلة قلبي، لم يكن السَّفر وحيدا في صحراء مخيفة لا تنتهي، ولا كان عدم اللحاق بـ«الزبير»، لا، كان قلبي يرى ما لا أرى، كان يرى مصيبة كبرى قادمة.

الونس في السَّفر نعمة يا «حجيزي»، القافلة غالبا تكون منجاة، إذا برز الهلاك يتكالب أهل القافلة على مصارعته، فيهرب النَّاس منه، وإذا لم يهربوا يموتون صُحبة، تتعزَّى قلوبهم بالموت في ونس الجماعة، لكن وحدك في الصَّحراء تتحول إلى فريسة سهلة، وأنا تحوَّلت إلى فريسة سهلة لوحش الصَّحراء العاتي، للغرد، عاصفة الرِّمال الهائجة.

همس «حجيزي» لنفسه: تتعزَّى! ذكَّرتني بالمعزِّي الذي لا يأتي أبدا.

- دائما ترسل العواصف نذيرها، هذه الدَّكنة التي تلوِّن الأفق، والاصفرار الذي يلوِّن السماء، ورياح تهب، ثم تعصف، لكن العاصفة التي افترستني، هبَّت فجأة، جاءت من خلفي تزوم مثل مارد، رياح تعوي، ورمال ناعمة تطير في الهواء بسرعة مارقة، تشرخ ما انكشف من جلد عنقي، الكلب ما لحق ينبح، طار في الهواء أمام عيني، وكنت سأطير لولا أني تشبَّثت بالسرير الخشبي المشدود على سنام النَّاقة، لم يكن من حل أمامي إلا أن أنيخ النَّاقة، وأختبئ في جانبها، بذلت النَّاقة كل قوَّتها لتنيخ، وأنا عملت المستحيل لأرقد جوارها، كل هذا حدث قبل الغروب! ما رأيت في حياتي عاصفة تأتي في المغارب! أظلمت الدُّنيا يا «حجيزي»، وشعرت بنفسي أدفن، الرِّمال السَّفيفة الطَّائرة كانت غزيرة، ما مضت دقائق حتى كانت الرِّمال تعلو لتدفن أرجل النَّاقة، ما كان ممكنا أن أبقى هكذا، وقفت مرَّة أخرى وأنا أتشبَّث بسرير النَّاقة، وأمسكت لجامها الذي يطير منسحبا في الهواء كأن موجا عاتيا يسحبه، لم أكن أرى الكلب، طار كحمامة مذعورة في الرِّيح،

وما عدت أسمع نباحا له، أوقفت النَّاقة التي شعرت بالعصف يحاول رفعها من مؤخرتها، ثم أنختها مرة أخرى، كانت نهايتي تلوح بوضوح، وأنا أعافر لأهرب من خاتمة لا يحبُّها الرِّجال لأنفسهم، الدَّفن على وجه الأرض، لتأتي ضواري حقيرة مثل الثَّعالب والضباع، فتنبش الرِّمال وتخرج المردوم، فتنهش جثَّته من غير رحمة.

كانت معركة بيني وبين الرَّدى، وما كنت أنا الذي أقود المعركة، كان يقودها «غنيمة» آخر، لم أكن أنا يا «حجيزي» الجالس أمامك، كان «غنيمة» آخر غير واع، يتصرَّف بقوة، لكن من غير فهم لشيء، معافرة، خاصَّة والرِّمال السَّفيفة قد أصابتني بشبه عمى، أردت أصرخ في النَّاقة كي تقف على أقدامها، فكدت أختنق من كومة الرَّمل التي اخترقت فمي، والنَّاقة لا تريد القيام، كأنها استسلمت لمصيرها، وسفيف الرَّمل أخفى سيقانها تماما، ويصعد بسرعة مخيفة لردم نصفها الأسفل، نخستها بنصل الخنجر، مصيري في هذي الصَّحاري معلَّق بالنَّاقة، أرأيت ضعف الإنسان يا «حجيزي»، في لحظة مفاجئة يتعلَّق مصيره بحيوان، وتصير روحه الواعية مرهونة بروح بهيمة! لمَّا نخستها بالخنجر فزعت، وهبَّت واقفة، لكنَّها ما كانت ترفع رأسها، وإنما تطأطئها من حدَّة زفيف الرِّيح، ومن كثافة الرِّمال التي تصب صبا، وما عاد بمقدرتي المعافرة، كان يمكنني التَّغلب على قوة الرِّياح، لكن الرياح ورمال تصب صبا! ؟ مستحيل يا «حجيزي»، أنخت النَّاقة، هذه المرَّة أنيخها للاستسلام، وتمدَّدت ملاصقا لها، مخبئا رأسي بين ذراعي، طارت العمامة يا «حجيزي»، ما تصمد العمائم في

مثل هذه العواصف المباغتة، خبَّأت رأسي بين ذراعي، ودسست وجهي في جسم النَّاقة، وسلَّمت أمري إلى اللّه.

عرفت شيئا يا «حجيزي»، غير كل ما يقول النَّاس، عرفت أن الاستسلام لأقدارك يجلب الرَّاحة للنَّفس، لمَّا تعترف بضعفك، وتتوقَّف عن المراوغة، ترتاح!

جاءني هذا الإحساس، وأنا أستسلم للموت، قلت لنفسي: مت هادئا، لماذا تعافر وتنزعج وتتعب نفسك في لحظاتك الأخيرة، سلَّم يا «غنيمة»، وانظر في حال نفسك، وتمدَّد طيَّعا لتموت، مثل خرفان الأضاحي، ستجز العاصفة رقبتك، وسترتاح.

أنا سلَّمت أمري إلى اللّه من هنا، وجاء الفرج الإلهي من هنا، بقيت العاصفة، لكن من غير رمال، ثم بعد فترة وجيزة هدأ الجو، وكأنه لم تكن هنا منذ لحظات رياح الخراب تصفِّر صفير الموت.

الرِّمال تغطِّي كل قطعة من ملابسي، كما أنها اندفعت إلى ما بين ملابسي وجلدي، فكنت أشعر باختناق، ولم يعد ممكنا التَّخلص من هذه الرِّمال إلا بخلع كل ملابسي ونفضها، ومسح جلدي، أخذت كمية كبيرة من الماء الذي في القربة، ونظَّفت نفسي، لم أكن أعرف يا «حجيزي» ما سوف يجري، لو كنت نظرت حولي لما فعلت ما فعلت، لكن ما حولي لم يلفت انتباهي، لأن الشَّمس في غروبها كانت مختفية خلف سحابة من الرِّمال الصَّفراء ملأت السَّماء حتى الأفق، فكان الضَّوء خافتا، فلم أر ما كان يجب علي أن أراه قبل استخدام كل هذه الكمِّية من الماء.

ما رأيته يا «حجيزي» هو الموت نفسه، فما هو الموت إن لم يكن إحساسًا باليأس التَّام من أي أمل في الحياة؟! لم يكن حولي شيء من هذه الملامح التي كانت تبدو لي قبل مجيء «الغرد»، أين الدَّرب؟ أين أشجار «العبل» الصَّغيرة؟ أين الصَّخور النَّاتئة على الأرض الرَّملية الصَّلبة؟ لا شيء سوى رمال ناعمة ليس عليها أي أثر، كأن الصَّحراء قد تم تجديدها، فعادت لم يمسسها بشر، ولم أعرف أين الطريق، وبدأت أعرف أن الموت قادم لا محالة، كانت السَّماء متعفرة بلون الرِّمال القاني، وليس هناك ثمَّة شيء يصلح علامة للاهتداء.

أين الكلب؟!

* * *

«سكيرة» جلبابها ملَّون بزهور وضَّاءة، تمشي بين بنات تلوَّنت ملابسهن بقلوب خضراء وحمراء وصفراء، وبأشجار عجيبة ألوانها بنفسجية وزرقاء، وورود لا يرى «سليم» مثلها أبدا في الصَّحراء، يمضين بوداعة، وضحكاتهن تميس وتتدلَّه، وراء قطعان الغنم التي تضامَّت في قطيع واحد كبير، تتابعه عدَّة كلاب.

قلب «سليم» اختلف، لم يعد هذا القلب الذي لا يهتم بالبنات، وإنما صار قلبا يرتبك لرؤيتهن، ويئن لرؤية «سكيرة» بالتَّحديد، ويتعجَّب «سليم»: «سكيرة»!!

«سكيرة» نفسها ما عادت تنظر لـ«سليم» بنفس العين القويَّة، لأن قلبها اختلف أيضا، ما عاد هذا القلب الفارغ إلا من لهو الطفولة، وإنما

انشغل بصورة ولد اسمه «سليم»، كلَّما رأته انكسرت عيناها، ودق قلبها، فتشعر بجسدها كله يتزلزل، وتتخيَّل أن كل من حولها يكشف حالها، فتروح في دوَّامة كبيرة من الخجل، ومن غير رغبة منها تتذكَّر ما حدث بينها وبين «سليم» لمَّا كانا طفلين.

..... كان ضُحى، وحرارة صيف، و«ثريا» عند الفرن مشغولة بالخبيز، و«سريرة» تجلس على «الدِّكة» تهش بعصاها العصافير التي تحوِّم حول الأرغفة العجين المرصوصة على فراش كبير نُثرت عليه الردَّة، و«سليم» يتسلَّل إلى غرفة «بكير» و«ثريا»، يسحب خلفه البنت «سكيرة»، ولمَّا دخلاها، أغلق «سليم» بابها.

- اقلعي.

قلب «سليم» يدق بقوَّة، و«سكيرة» مرتعبة، لكنَّها خلعت سروالها الدَّاخلي، وتمدَّدت على السَّرير من غير صوت، وتمدَّد فوقها «سليم»، وفقط.

وسقط في دوَّامة حيرة، ماذا يفعل؟! وسأل نفسه: ماذا كان يفعل أبي مع أمِّي في ليلة أمس، لماذا كانت أمِّي تئن وتتأوَّه؟ لم يكن أبي يضربها؟ كيف يضربها وهو يقول لها كلاما حلوا!؟ كان كلاما عجيبا، كان يشخر، ويئن أحيانا، ماذا كانا يفعلان؟

وسأل نفسه: هل ما أفعله الآن هو ما كان يفعله أبي؟! هل كانت أمِّي منسدحة على ظهرها من غير سروال مثل «سكيرة»؟!

«لكن أنا لا أفعل شيئا! أنا فقط ممدَّد فوق «سكيرة»، أريد أن أفعل شيئا، لكنِّي لا أعرف كيف أفعله، لو عملته لابد «سكيرة» ستئن وتتأوَّه مثل أمِّي.

نطقت «سكيرة» بصوت خائف: أريد أمشي.

نطقت «سكيرة» بما أراح «سليم»، فلقد بدأ يغرق في حيرة شديدة، وكان خائفا أن تأتي أمُّه وتراهما، ستكون مصيبة.

«يكفي أنها أخرجتني من تحت سريرها هذا الصَّباح».

..... كانا يلعبان تحت شجرة الجميز أمام البيت، يكوِّمان رمالا متربة، وينكتان فيها قشًّا وأحجارا صغيرة، كانت أكوام «سليم» دائما هي الأجمل، و«سكيرة» بغيظ طفولي تهدِّم أكوامها، ويضحك «سليم»، ويصنع لها أكواما أخرى يتفنَّن في تزويقها، قال: صحوت بالليل، وشعرت بالعطش، فخرجت من الغرفة، لأشرب، وأنا أمر من تحت طاقة غرفة أبي، سمعت أمِّي تتوجَّع، قلت أمِّي مريضة، شربتُ ونمتُ، لكنَّها في الصَّباح، كانت سليمة، وتهدم البيت لو أرادت، نسيت الحكاية، لكن في ليل آخر، صحوت وأنا أشعر بالعطش، وتحت طاقة غرفة «بكير» سمعت أمِّي تتوجع، فعدت إلى غرفتي ولم أنم حتى الصَّباح، وعندما خرجت أمِّي، رأتني جالسا تحت التِّينة أنظر إلى باب حجرتها، شعرها مهوَّش كأنَّها كانت تتعارك، لكنَّها سليمة، وتهدم البيت لو أحبَّت، ويومها كرهتها.

«سكيرة» بأعوامها الخمسة تنظر في عيني «سليم» من غير فهم، مثل يمامة من هذه اليمامات التي تقف على أغصان «الجميزة»، تهز رأسها ثم تحلِّق بعيدا.

- أنا شيطان يا «سكيرة»، كان لابد أن أعرف ماذا يفعل أبي فيجعل أمِّي تتوجع من غير مرض، فغافلتهما في ليلة أمس، ودخلت حجرتها قبلهما، واختبأت تحت السَّرير.

ضحكت «سكيرة»، ونظرت بعينيها نحو قبَّة المسجد، ثم انكسرت عيناها خجلا.

- مم تخجلين يا «سكيرة»؟!

- لا أعرف، لكن خجلانة!

- تحت السرير كراتين وبرطمانات وقفف مليئة بتمر وكشك، تمدَّدت وانتظرت، ثمة دجاجة ترقد أمام عيني تهز رأسها، تشعر بوجودي لكنَّها لا تراني، الدَّجاج لا يرى في الليل، لكنِّي كنت خائفا من أن تراني، دخل «بكير»، وقلبي تخبَّط بين ضلوعي، ودخلت «ثريا».

ضربت «سكيرة» صدرها بكف يدها، وهمست: يا مراري!

وضحك «سليم».

قال «سليم»: ما أعرف الذي حصل! لكنِّي خفت، انطفأت اللمبة «العويل»، وفجأة أهتز السرير فوقي بعنف، ثم بدأت «ثريَّا» تئن وتتوجَّع، لكنَّها كانت مبسوطة، أنا شعرت أنها مبسوطة، و«بكير» يقول كلاما....،

وأنا نسيت أن الدَّجاجة ترقد بجوار ذراعي، فحركته لمَّا آلمني، فاصطدم بها، فَزَعَقَّت.

توقَّف السَّرير عن الارتجاج، وتوقَّف «بكير» عن الكلام الذي لا أفهمه، وتوقَّفت «ثريا» عن التَّوجع، وساد صمت لبرهة، قبل أن يتساءل «بكير»: ما هذا؟!

قالت «ثريا»: دجاجة تحت السَّرير.

- أنا أعرف أنها دجاجة يا نبيهة! لكن لماذا تزعق الدَّجاجة؟

- ربما أفزعها فأر.

- «بكير» صحا في أذان الفجر، كان ناسيا فخرج من الغرفة، لكن «ثريَّا» نظرت تحت السَّرير، كنت قد نعست، وشهقتها الفزعة أيقظتني، ثم مدَّت يدها وجذبتني، فخرجت الدَّجاجة من تحت السَّرير تصيح، تقفز هلعا في أركان الحجرة.

قال «سليم»: أنا ما عرفت ماذا يفعل أبي فيجعل أمِّي تتأوَّه، لو عرفت كنت جعلتك يا «سكيرة» تتأوَّهين مثلها.

احمر وجه «سكيرة» الذي يشبه وجه قطَّة، والضُّحى يزول، وقيظ الصيف يبقى، وشجرة «الجميز» تزوي ظلالها.

* * *

«بكير» يُحكم ربط أجولة التَّمر على ظهر ناقته، والنَّاقة المنيخة يرتج جسدها من عنفوان «بكير»، وتميل رأسها الشَّامخ تنظر إلى ما حولها، وهي تجتر شيئا من طعام في فمها، فيسيل من شدقيها سائل أبيض لزج، كان «حجيزي» قد وقف بجوار «المصطبة» الصَّخرية يمعن النَّظر في «بكير».

.....تأمَّل يا «حجيزي»، هذا «بكير» ولدك، عشت معه عمرا طويلا، والآن ليس لك من أيام تعيشها معه سوى يومين ونصف! تأمَّله يا «حجيزي»، انظر، يشد الرباط بقوة محب للحياة، لكن.. أنا لا أتذكَّر ملامح وجهه بالضَّبط! لون عينيه أسود أم بلون الشاي؟ ما رأيت أذنيه منذ كان صغيرا، على الرغم من أنهما تطلَّان دائما من أسفل عمامته، الولد «سليم» يشبه «بكير»، و«بكير» يشبهني، «بكير» يشبهني في الشَّكل فقط، لا يفكر لا في موت، ولا في دفن، هو يعيش الحياة، لماذا لم تعش الحياة يا «حجيزي» مثلما يعيشها ولدك، ماذا أخذت من تفكير طوال عمرك في قضية لن تفيدك كثيرا بعد موتك؟!

«لا، لن يعيش أبدا من لم يجعل الموت نصب عينيه».

ما الذي عشته يا «حجيزي»؟! ما الذي استمتعت به؟ «بكير» كبر من غير أن تستطعم طفولته، ولا عشت شبابه، فقط الموت هو ما تحياه، الدَّفن هو طريدة تفكيرك، ما عرفت امرأتك «سريرة» غير مرَّات تعد على أصابع اليد الواحدة! تتزوَّجها خمسين سنة، ولا تنجح معها إلا ثلاث مرَّات!؟ حياتك راحت هدَرا يا «حجيزي».

ابتسم «حجيزي» بسمة خائبة.

هذا نفسه ما فكَّرت فيه من قبل، منذ ما يقرب من العشرين عاما، عندما تركت «الوعرة» إلى صحراء أبعد في قلب صحراء بعيدة، إلى جبل الرُّهبان، وكنت تظن أنَّك لن تعود، لمَّا تبعت «يونَّاس» الرَّاهب، ناويا الدخول في دين النَّصارى، تبحث عن قيامة لجسدك بعد الموت، كان «بكير» في عنفوان شبابه، مازال عريسا جديدا، وكنت تترك المكان وترتحل وهو في الغيطان يزرع القمح، فكرت في لون عينيه، ما لونهما بالضَّبط؟ سوداوان أم عسليتان؟ وأذناه؟! كبيرتان أم صغيرتان؟ وعندما عدت يا «حجيزي»، نسيت تنظر إلى عينيه، ونسيت تنظر إلى أذنيه!

أريد أن أرى «سليم» و«سالم» و«سلمان»، ملامح كثيرة من تقاطيع وجوههم أشعر أني لا أحيط بها علما، إنهم في المراعي البعيدة، ودَّعتهم صباحا، لكن يا «حجيزي» ما ودَّعتهم وداع من سيموت، الذي سيموت يجب أن يحفظ ملامح هذا العالم قبل موته، فهو يراه لآخر مرة، وليست هناك فرصة أخرى، الولد «سلمان» في قفاه وحمة تشبه بز الماعز، قالت لي «ثريَّا» عنها، قالت لي انظرها، أنا ما فعلت، نفسي أراها الآن، لكن الولد بعيد، والرَّحيل حتم، وأي تأخير سيُخل بكل ما أدبِّره، وأخسر ما بعد الموت، كما خسرت ما قبله، لابد أهرب من الدَّفن، وإذا كنت لم أستطع العيش بينهم حيًّا، لأحيا بينهم ميتا.

..... نظر «بكير» إلى «حجيزي»، ضحك، وهتف: يا والدي، تعال ساعدني.

- ساعد نفسك، أنا سأدخل البيت أجهز نفسي.

«سريرة» تقف وراء الباب الضَّخم للبيت، تنظر إلى «حجيزي»، و«حجيزي» نظر إليها، ثم نظر إلى الأرض، وتوجَّه إلى عمق البيت، إلى ركن في الفسحاية التي في وسطها شجرة التِّين، وأخرج جوالا ملأه بالقرض، فتحه ونظر بداخله، كانت حبَّات القرض تتراص في لحاها الربَّاني، جافَّة، القرض مراره أصعب من مرار الحنضل.

«في أواخر الأيام تأكل المرار يا حجيزي!»

وشعر بصوت يعلو في تلافيف رأسه «أكلت ثلاث تمرات يا حجيزي، يبقى من عمرك ثلاثة أيام وتموت».

* * *

«يوأنَّس» الرَّاهب يجلس على المصطبة الصَّخرية، يأكل خبزا يابسا مثل الحطب، يغمسه بجبن قديم غاطس في مش شديد الملوحة، و«عبد اللّٰه» حادي القافلة الصَّغيرة يأكل خبزا طريا، يغمسه في بيض مقلي غمره سمن من لبن الجاموس، وجبن أخضر فتِّت في زبد البقر.

قال «حجيزي» للحادي: سامحنا يا شيخ العرب، لو الرَّاهب كان يأكل مثلما نأكل لذبحنا لكما جديا، المقدِّس ما أعطانا فرصة للإكرام.

فقال الرَّاهب «يوأنَّس» بصوت خفيض: لا آكل كل ذي دم مهدر، الرُّوح غالية على أصحابها، ولو كانوا حيوانات.

وقال الرَّاهب «يوأنَّس»: لماذا لا يترك الإنسان العالم من حوله يحيا بسلام؟! كل شيء حوله يعطيه نعمة اللّٰه، الدَّجاج يعطيه بيضا، لماذا لا

يأكل البيض ويترك الدَّجاجة تحيا بسلام، البقرة تعطيه لبنا يصنع منه جبنا وزبدا، لماذا لا يأكل اللبن ويترك البقرة تحيا بسلام! الإنسان متوحِّش جدا، ولولا أن اللّه منحه محبَّته لكان أقل من حيوان.

- لكن قل لي يا مقدِّس، كيف استطاع «المسيح» أن يحيا بعد ما مات؟!

- يا شيخ «حجيزي»، لم يكن «يسوع» شخصا عاديًّا مثلنا، كان إلها، واللّه يستطيع فعل أي شيء.

- اللّه لا يموت يا أبونا.

- وإذا مات، يمكنه ببساطة أن يقوم من موته، ويحيا خالدا.

- أنا أريد أن أقوم من موتي، أو إذا مت لا أدفن، وأبقى بين النَّاس.

- كل مسيحي يموت، وكل مسيحي يقوم من موته.

دارت رأس «حجيزي»، ورأى هامات النَّخيل البعيدة تنخلع من جذوعها لتنطلق ترفرف صاعدة إلى غور السَّماء، وأخذت الكلمة تتردَّد في تلافيف عقله مثل صدى، تتخبط بين جوانب صدره مثل كرة حديدية ثقيلة، «كل مسيحي يموت، وكل مسيحي يقوم من موته»، «كل مسيحي يموت، وكل مسيحي يقوم من موته»، «كل مسيحي يموت، وكل مسيحي يقوم من موته».

نظر «حجيزي» إلى قبَّة المسجد، فبدت له غريبة، هذه ليست قبَّة، إنها انتفاخ فطسان، يتحدَّث تحته الشَّيخ «علوان» عن موت ليس بعده

قيام، وعن أجساد حتما ستتعفن، وسيأكلها الدُّود، وسينخرها السُّوس، لتتحوَّل إلى تراب، ليصير الإنسان بعدها نسيا منسيا.

دق قلب «حجيزي» في صدره مثل طبل يقرع، وهو يهمس في أذن «يوأنَّس» الرَّاهب: انتظرني بعد مسيرة يوم، لأني سأتبعك.

نظر الرَّاهب في عيني «حجيزي» مندهشا، كانتا غائمتين، ونور شمس الظَّهيرة يسطع مبهرا، وبيوت «الوعرة» تغرق في وهجه، وفي السَّماء طيور بيضاء مهاجرة.

8

مِن أجْل هذِهِ الكَلِمةِ أغفِرُ لَك

- لا أعرف كيف يعيشون في هذه البنايات التي تشبه العُلب المتراصَّة؟!

- «غنيمة» قال إنهم يسمُّون بيوتهم شققا!

- واللّه بيوتهم تستحق هذا الاسم، إنها غرف ضيِّقة في مساحات صغيرة.

- لكن زوجتك «زليخة» أحبَّت بلاد «أسيوط»!

- عيادة الطَّبيب كانت في شقَّة من هذه الشُّقق، فوق، في الطَّابق الخامس.

- في الطَّابق الخامس!

- واه يا «حجيزي»، هذه بناية فيها عشرة طوابق! الطَّبيب قال لي: هات عيِّنة من...

سكت «سعدون»، وأخذ يحلق بعينيه يحاول تذكُّر ما قاله الطَّبيب، لكنَّه قال: لبن الرَّجل يا «حجيزي» له اسم عند الأطبَّاء، آه تذكَّرت، قال لي: هات عيِّنة من السَّائل المَوَني، أو المَنَوي.

أنا ما أعرف ما هو السَّائل هذا! قلت له: آتي لك بهذا من أين؟

فنظر لي نظرة عجيبة من تحت نظَّارته، تعرف، كأنه ينظر إلى حمار، قلت له: فهِّمني يا طبيب.

ابتسم ابتسامة خبيثة، وقال: من حمامتك.

حمامتي؟!

ابن الكلب يا «حجيزي» أوقعني في هم أكبر، ويا ليته كان اكتفى بهذا. قلت له: عندي في الواحة حمام كتير.

انفجر «سعدون» في الضَّحك، والدُّموع سالت من عينيه، واستغرق في الضَّحك حتى أنه توقف فجأة، وأمسك بقبضة يده بِزَّه الأيسر، وقال: أشهد ألَّا إله إلَّا اللّٰه وأن محمَّدا رسول اللّٰه.

القمر كامل الاستدارة، يسطع في سماء كاملة الصَّفاء، وثغاء متقطِّع خافت لحَمَل صغير داخل الغنم. ويرشف «حجيزي» الشَّاي رشفاته الخاطفة.

قال «سعدون» وقد عاد وجهه للابتسام: أخذ الطَّبيب يضحك بأعلى صوته، وما استطاع أن يمسك نفسه، فانفلت ذراعه وخبط زجاجة الحبر، فانسكب الحبر الأسود منها على الورق الذي أمامه، وما توقَّف عن

الضَّحك، وكنت أنظر إليه مندهشا، لكن سكت بعد قليل، وهو يمسح زوايا عينيه من الدُّموع قال: أنا ما أقصد الحمام الحمام يا عم «سعدون»، أنا أقصد قضيبك، أقصد ذكرك.

أنا قلت في نفسي: يظهر أني وقعت مع طبيب خول ابن كلب، لكنّه نظر لي جادا وقال: أثناء نومك مع امرأتك، وأنت تأخذ حقَّك منها، عندما تصل لآخر حقِّك، ينسكب من قضيبك ماء..

أنا قاطعته لمَّا فهمت: قصدك يا طبيب لبن الرجل؟!

خبط على ظهر يدي بالقلم الذي كان يمسكه وهو يقول مبتهجا: عفارم عليك، هذا هو، أنا أريد عيِّنة من هذا.

وعندما رآني أنظر إليه وأنا محتار، نظر إليَّ وهو محتار، فقلت له: كيف؟! لابد من السَّفر أسابيع طويلة حتى أستطيع أن أعود إليك بالعيِّنة.

فقال لي: تكون العيِّنة فسدت من طول السفر، ادخل في دورة المياه الآن داخل العيادة، وتصرَّف.

قلت له: كيف أتصرَّف في دورة المياه؟!

بحلق عينيه في وجهي، وقال:......

بحلق «سعدون» عينيه، ومال على «حجيزي»، وقال هامسا: قال كلمة غريبة يقصد بها أن أضرب عشرة، مثل ما كنَّا نعمل أيام بُلوغِنا، آه، تذكَّرت، قال: استنمي! استمني!

قال «حجيزي» وهو يدعك وجهه بكفَّيه، ويبتسم: هذه فضائح، ملعون أبيها الخلفة، وبعد؟!

قال «سعدون»: ما فهمت كلمته، فقال لي: ادعك ذكرك بيدك، ما عملتها أبدا وأنت شاب؟!

وسكت «سعدون» لحظة، ثم واصل الهمس مثل أفعى: قل لي يا «حجيزي»، أما عملتها وأنت شاب؟!

وقلب «حجيزي» وجهه، وهمس: يا ابن الكلب.

ضحك «سعدون»: أنا قلبت وجهي في وجه الطبيب، وكنت سأمسك في رقبته، لولا أنه انكفأ ينظر إلى ورقة كان يكتب فيها دائما.

ثم قال وهو ينظر في عيني «حجيزي» نظرة ماكرة: لكن أنا عملتها وأنا شاب.

- تعرف يا «سعدون»، وأنا شاب كنت أقضي الأيام والليالي في تحنيط الحيوانات، أساعد والدي «شديد»، الذي يحنِّط الحيوانات، ثم يرصّها متجاورة في أعمق حجرة في البيت، أنا تعاملت طول شبابي مع جثث، أصابعي كانت مشغولة دوما بالبحث في أجوافها عن الأحشاء وتفريغها، فروج إناث الحيوانات مقرفة، لحم ينطبق على لحم، وقضبان الذكور ليست إلا عضلات مقززة، كنت وقتها دائما ما أفكِّر هل فروج النِّساء مثل فروج إناث الحيوانات؟ وكنت أعرف الإجابة، قضبان الرِّجال تشبه قضبان ذكور الحيوانات، تبقى الفروج تشبه الفروج. يا «سعدون» لم تكن بي رغبة كي تتحسَّس أصابعي عضوي.

زعق «سعدون» مناديا «زليخة»، ولمَّا ظهرت طلب منها أن تعد شايا آخر.

- أكثر ما يتعب الإنسان منَّا ويفقده بهجة حياته هو التفكير العميق! أنا لا أعمل مثلك، أنا أمشي وراء رغبتي، تطلب مني أنام مع المرأة، أذهب بعضوي المنتصب وأنام مع المرأة، أنت عبيط «ياحجيزي»، كل من يفعل مثلك لن يستمتع بامرأة أبدا، حتى لن يستمتع بعضوه مع نفسه!

- نستمتع بعقولنا يا بهيمة، نرى ما لا ترونه يا بهائم.

همس «سعدون» وهو يهم بإطلاق عاصفة ضحك: النِّساء لن يستمتعن بعقلك ورؤيتك يا «حجيزي»، يستمتعن بهذا.

وقبض على ذكره، وانطلقت عاصفة الضَّحك، ولم تتوقَّف العاصفة إلا بقدوم «زليخة» تحمل الشَّاي، وقالت وهي تضحك: دائما «سعدون» يضحك فشَّته تعوم، يضحك وفقط، لو انطبقت السَّماء على الأرض يضحك، لماذا تضحك يا «سعدون»؟!

توقف «سعدون» عن الضَّحك، لكن «حجيزي» هو الذي انفجر ضاحكا واندهشت «زليخة»، ونظرت إليهما مستعجبة، وتركتهما بعد أن وضعت الشَّاي على الأرض.

همس «سعدون»: تعرف يا «حجيزي»، ألذ وأمتع شغل مع زوجتي عملته في عيادة الطَّبيب في أسيوط!

لما خرجت إليها من غرفة الطَّبيب، رأت في عيني الحيرة والقلق، قالت لي: مالك؟!

قلت لها: الطبيب يطلب مني موضوعا صعبا.

قالت: ماذا طلب منك يا حبَّة عيني، اللّه يوجع قلبه مثل ما وجع قلبك.

قلت: يريدني على آخر الزَّمان أضرب عشرة!

انطلقت عاصفة ضحك أخرى من صدر «سعدون»، وجاءت «زليخة» بالجوزة، وضحكت من ضحك «سعدون»، وقالت وهي تمضي: ما يبطِّل ضحك أبدا، سيموت «سعدون» وهو يضحك.

اعتدل «سعدون» من ميلته، ومسح عينيه بكفَّيه، وكركرت الجوزة في يد «حجيزي»، وقال «سعدون»: نظرت إليَّ مندهشة وقالت: يوجع قلبه عديم الرحمة، وهل تستطيع تضرب واحدا حتى يطلب منك تضرب عشرة، أصغر عيل يغلبك الآن.

السَّماء صافية تماما، سوادها مدلهم، تبرق فيه آلاف من نجوم مرحة، والقمر المكتمل يميل نحو النِّصف الغربي من الظلام السَّاطع، ونسمات برائحة القمح تتسكَّع في فسحات البيوت، وصوت «سعدون» صافي مثل جمر حجر «الجوزة»، ممزوج بضحك منفلت من «حجيزي».

- قلت لها الطَّبيب ما يقصد هذا، الطَّبيب يقصد....

أنا سكت ما قدرت أكمل، أكمل أقول ماذا؟! لكنِّي أمسكت يدها وجذبتها إلى دورة المياه، مشت ورائي وما استطاعت تفتح فمها، «أسيوط» بلاد غربة، لكن في دورة المياه نظرت لي بضيق مشتعل، وقالت لي: ماذا تريد يا «سعدون»؟!

أنا أبرزت لها الأنبوب الزجاجي الذي أعطاه لي الطَّبيب، وقلت لها: أريد أملأ هذا.

أنا يا «حجيزي» عرفت لماذا يزني النَّاس في الحرام، لأنهم يزنون وهم خائفون، أحلى واجب مع امرأة هو الذي تؤدِّيه بخوف، كنَّا خائفْين ونحن نفعلها في دورة المياه، وكانت تهمس لي طالبة مني أن أنتهي، وأنا ما كنت أريد أن أنتهي رغم إني خائف من أن يفاجئنا أحد ويفتح دورة المياه، أو يتلصَّص علينا أحد من زبائن العيادة، أول مرَّة أعملها وهي تعطيني ظهرها واقفة، متعة يا «حجيزي»، متعة.

كان «حجيزي» يشد نفس «الجوزة» وعيناه تسرحان، و«سعدون» تمتلئ عينيه بالدموع غارقا في موجة ضحك عاصفة جديدة.

* * *

- أسمع نباحا أشبه بأنين الاحتضار، لكنِّي لا أرى الكلب، بعد معاناة من البحث خلف الصوت على رمال الغرد السفيفة، رأيت نصف رأسه بيرز من الأرض، لقد دُفن الكلب بكامله!

سحبت «المسحاة» المعلّقة بظهر النّاقة، وحفرت الرمال من حوله، وأخرجته، نظر لي وهو يهز رأسه وذيله، ويعوي عواء خافتا، ثم أخذ ينفض جسده بشدة، فيتناثر الرَّمل من شعره.

تعرف يا «حجيزي»، هذا الكلب ربَّيته عشر سنوات، يطوف حولي عشر سنوات، لكنَّه كلب، لم أتأمل عينيه أبدا، ولم أعرف أن له أحاسيس أبدا، أعرف أن الكلب وفي، لكن يا «حجيزي» ما وُجد على الأرض كلب أكثر وفاءً من كلبي...

انقطع كلام «غنيمة» وأخذ يشهق ويبكي.

كانا يتكلمان في المسجد، بعد أن صلّيا الصُّبح، وبعد أن مضى الجّميع إلى مصالحه، حتى «سعدون» الذي ليس وراءه مصالح.

هذا صدى صوت بكاء "غنيمة» يتردَّد بين جدران المسجد السَّميكة، ورائحة البحر.

- النَّاقة غير الكلب، النَّاقة قابعة في مكانها، رأسها ثابت، وعيناها ميتتان، كأن كل ما حدث لم يفاجئها، لكن الكلب ظهر في عينيه انكسار، حتى أني رأيت فيها دموع، ورأيته يدور برأسه، ويطلق نظرات التِّيه، كان مثلي، امتلأ خوفا، هكذا ببساطة يمكن أن نُدفن تحت الرِّمال! ثم إذا نجونا من الموت دفنا، ها نحن نسقط في براثن الموت تيها..

مسح «غنيمة» دموعه، و«حجيزي» قال: أحمد اللّه أنك نجوت من الدَّفن، وإلّا ما كنت عدت لتحكي ما جرى.

قال «غنيمة»: لو دُفنت كان أحسن، ما كنت رأيت الذي رأيت، بعدما سلَّمت أمري للّه وأيقنت بالهلاك، كانت عودة الحياة لي مسألة مباغتة، فعدت لها من غير ذاكرة، وجدت ذاكرتي ناصعة البياض مثل ذاكرة طفل وليد، تُصدِّق يا «حجيزي»! كنت أرى آخر احمرار في الشَّفق الذَّاهب، أعرف أن شمسا هناك، لكنِّي نسيت، هل هذه شمس الغروب أم شمس الشروق، ولمَّا أظلمت عرفت أنها شمس الغروب، لكني نسيت الغروب في أي اتِّجاه، أنا أين؟! ذاهب إلى أين؟! أين العَمَار؟! إلى أي جهة يجب أن أمضي؟! ما عرفت إلى أي جهة يجب أن أمضي، والكلب أخذ ينظر لي كأنه يقول ماذا ستفعل يا ابن آدم يا واعي، والنَّاقة ما تفعل شيئا، غير أنها أخذت تجتر طعاما في سكينة، تمنَّيت وقتها لو أن لي قلب ناقة، وقرَّرت أن أبقى في مكاني حتى أهتدي لعقلي.

قال «حجيزي»: غريبة يا ابن الكلب، يضيع عقلك لمجرد عاصفة؟!

- ضاع من قدوم الموت يا «حجيزي»، ليس من العاصفة، الموت هو الذي يطيح بالعقل وبالإحساس أيضا، «ورداني» بقي في فراشه ثلاثة أشهر يئن من قسوة المرض، لكنَّه بقي ليلة كاملة هادئا، ومات في الفجر، رحمة ربنا، يسحب العقل والإحساس من الإنسان قبل أن يموت، أنا متُّ وعدت للحياة، فقدت الإحساس لما سلَّمت أمري للّه، وما عاد لي عقلي بعد أن عدت للحياة، ثم بعد ذلك حصل معي ما يعصف بأكبر عقل، الليل جاء يا «حجيزي»، وجاء معه قمر أحمر كبير من إحدى جوانب الصَّحراء، والكلب ربض بجوار النَّاقة ملتصقا بها،

ويهز ذيله، كان مضطربا، كأنه يستشعر خطرا، وكنت أجلس ملتصقا بظهري إلى النَّاقة، وبفخذي إلى الكلب، أفكر في حالي، من أين جئت؟! وإلى أين أذهب؟! حتى حدث يا «حجيزي» ما أذهل الجزء الحاضر من عقلي.

تململ «حجيزي»، وشمس الشُّروق بدأت تسطع في فتحات قبَّة المسجد، وقال: الغنم تنتظرني يا «غنيمة»، تريد ترعى، وأنت حكايتك طويلة، ونصفها كذب، تموت في تأليف الحكايات.

صمت «غنيمة»، وجرت الدُّموع مرة أخرى في عينيه، وقال بصوته الذي يكركب: تقول هذا وأنت الذي رأيت حالي لما عثر عليَّ العيال الرُّعاة؟! وماذا ستقول لمَّا أقول لك باقي ما حدث، أنا ما سأقول لك شيئا آخر، اذهب لغنمك يا ولد عمي.

كان «حجيزي» قد همَّ بالوقوف للمغادرة، لكن صوت «غنيمة» النَّائح أجبره على الجلوس مرَّة أخرى، والاتِّكاء إلى العامود، وقال: قل يا «غنيمة».

تمنَّع «غنيمة»، وقال: لن أقول لك شيئا آخر.

«أنت يا «حجيزي» قلبك مثل صخرة، صاحبك يريد أن يحكي لك ليفضفض، وأنت تتَّهمه بأنه كذَّاب! لكن هو فعلا كذَّاب. من قال لك أنه كذَّاب؟! هو يا «حجيزي» يسافر ويتحرَّك، من يسافر ويتحرَّك يرى العجب، ومن يركد في الصَّحراء لن يرى إلا الرِّمال في مكانها،

والصُّخور في مكانها، والنَّخيل، والنَّاس، كل شيء في مكانه، ليس هناك جديد، وطالما ليس هناك جديد، فليس هناك غريب، ولا مدهش، والغريب المدهش لما نسمعه نكذِّب صاحبه!».

مال «حجيزي» إلى رأس «غنيمة» وقبَّلها بقرف، وقال: أنا قبَّلت رأسك، أكمل كلامك يا «غنيمة».

ابتسم «غنيمة»، وقال: ما تريد تعرف الذي حدث بيني وبين «جاله»؟

- من «جاله» هذا؟!

- «جاله» بنت يا «حجيزي»، امرأة فارسيَّة كانت مع جيش فارسي كبير جاء زمان إلى صحارينا هذه، فطلع عليه «غرد» كبير، وردمه كاملا.

- جيش فارسي جاء زمان إلى بلادنا هذه؟!

- نعم يا «حجيزي».

- زمان متى؟!

- زمان جدا قبل العثمانيين، ويمكن بعدهم، لأ، قبلهم، سمعت مهندسا مصريا في شركة المعادن يقول هذا الكلام لصديقه الإنجليزي عن الفُرس، قال إنهم كانوا يعرفون قيمة مصر أيضا، فاحتلُّوها أيام الفراعنة، والفراعنة يا «حجيزي» كانوا قبل العثمانيين.

قال «حجيزي» ساخرا: تفهم الرَّطن يا «غنيمة»!؟

قال «غنيمة»: المهندس الإنجليزي كان يفهم عربي، وكان المصري يكلمه بالعربي.

ضرب «غنيمة» عينيه ناحية بُرصَين يتقافزان، يحاول أحدهما اللحاق بالآخر، عند شق كبير ظهر في ركن الحائط بجوار سقف المسجد، وهمس: مصر ما تخلص من ناس حتى يركبها ناس!

* * *

نظر «سليم» حوله، صحراء ما لها نهاية، مرعى جديد يبتعد كثيرا عن «الوعرة»، حتى أنه يبتعد عن المكان الذي وجدوا فيه «غنيمة» ملقى بجوار عظام ناقته، كان المرعى بكرا، الرِّمال ملساء كالحرير، ليس عليها أية آثار لأقدام بشر، فقط آثار متناثرة لِحَيَّة «الدِّفان» التي تنساب تحت الرِّمال، ولأقدام أرانب جبلية، وثعالب، وضِبان، وآلاف من أشجار «العبل» الصَّغيرة، وأشجار شوكية أخرى، تحب الأغنام أكلها.

ضُحى الصَّحراء صيفا يشبه الظَّهيرة، قاس وملهب، لكن الغنم تكون جائعة، فتنهمك في أكل الأشجار غير مهتمة بالقيظ، ويتوزَّع الرُّعاة الصِّغار يجلسون في ظلال بعض هذه الأشجار، أو في ظل صخرة ناتئة، ينهمكون في مشاغباتهم الطُّفولية، لكن عيونهم تبقى منتبهة للقطعان.

«سكيرة» تجلس بين صويحباتها، تضحك معهن، لسانها يتكلَّم بينما عيناها تخطفان نظرات متتالية ناحية «سليم» الذي وقف ينظر ناحية

صخرة صغيرة نبتت بطول فتى يافع مثله، كانت الصَّخرة الوحيدة النَّابتة في هذه الصَّحاري، بينما في الأفق العازل بين هذا المرعى وبين «الوعرة» وقفت غابة الصُّخور العملاقة غريبة الأشكال.

وعندما علا صوت الطَّرق على الحديد، جرى «سلمان» ناحية «سليم»، كان «سليم» يضرب بجاكوشه الصَّغير على الأزميل المغروس سنُّه في قمَّة الصَّخرة، وهتف «سلمان»: تنحت كل هذه الصَّخرة يا «سليم»؟!

وبدون أن ينظر إلى أخيه ابتسم، وقال: صخرة جميلة يا «سلمان»، ملفوفة وطيِّعة.

- ستنحتها على أي شكل؟

- تمثال مثل تماثيل الفراعنة.

- المساخيط؟!

- لأ.. المساخيط هم الموتى، أنا سأنحت تمثالا لواحدة حيَّة.

- من؟!

مسح «سليم» عرقا نزَّ من مسام جبهته، وقال: ستعرفها بعد أن أنتهي من النَّحت.

عاد «سلمان» إلى رفاقه وهو يجر قدمه اليمنى، يسحبها في الرَّمال السَّفيفة، مستمتعا بنعومتها، فرأى «سكيرة» تشير إليه، ذهب إليها، وضحكت، وهمست: ماذا يصنع «سليم».

- ينحت تمثالا لواحدة حيَّة.

همست: لمن؟

قال وهو يمد أطراف أصابعه الصَّغيرة، ويداعب قرطها الذَّهبي: لا أعرف.

..... لم تتكرَّر محاولة «سليم» النَّوم مع «سكيرة»، بعد محاولته الفاشلة، لمَّا كانا صغارا، بل إن هذه المحاولة نفسها أسهمت في نماء حالة من الخجل بينهما، كانت نتيجتها ابتعاد كل منهما عن الآخر ابتعادا إراديا، ما عادا يلتقيان أمام البيت، تحت شجرة «الجميز»، ولا عند بئر «الرَّاهب» عندما يصحب كل منهما أمَّه في العصاري لجلب الماء، حتى في المراعي، كانت «سكيرة» تلزم صحبة من البنات، بعيدا عند قطعانهم، بينما هو يبحث في الرِّمال عن الصُّخور الصَّغيرة الملوَّنة، صارخا بين كل فترة وأخرى في أخويه، للسيطرة على إحدى الغنم، تريد الانفصال عن القطيع، تغريها أعشاب بعيدة، لكن بقي بينهما خطف النَّظرات المتبادل.

لو أراد يمكنه في أي وقت الآن محادثتها، سنون مضت على الحادث المخجل، لكنَّه يمتنع، ما سبب الامتناع؟! لا يعرف، لا يشعر بأن الخجل هو ما يمنعه، لكن حالة من الرَّهبة، ليست تلك الرَّهبة التي تنتابه عند غضبة أبيه «بكير»، أو جدِّه «حجيزي»، وإنِّما رهبة من نوع آخر، رهبة الإقدام على كسر المعتاد، في النِّهاية، صار «سليم» إذا انفرد بنفسه، وأمن

من اختراق أحد ما لعزلته، يبكي، يلوح له وجه «سكيرة» الشبيه بوجه قطّة، فيذرف الدموع، سأل نفسه عمّا يعانيه، فقالت له «العشق»، قال لنفسه: أنا عاشق «سكيرة».

ولمّا عشق «سكيرة»، انطفأت شهوته، وما عاد يبحث عن خلوة اللذة، لكن في خلوة الأحلام صار يقبّلها كثيرا، يلمس خدّيها بشفتيه، أو يضعهما بين شفتيها، وفقط.

يضرب «سليم» بعنفوان، والأزميل يقتطع من الصَّخرة قطعا كبيرة، إنه في مرحلة التشكيل، لتأخذ الصَّخرة هيئة إنسان أوَّلا، ثم ينحتها لتتصوَّر بنتا يعشقها، الغنم ربضت في مساقِط الظِّل، والرُّعاة يغفون في تيقُّظ، والطرقات لا تخفت، وعينا «سكيرة» مصوَّبتان نحو جسد «سليم» العفي وقد انكفأ على الصَّخرة، يكاد يحتضنها.

* * *

نظرت «سريرة» إلى «حجيزي» وهو يغسِل النَّاقة، سيرحل، رحيله هذه المرَّة لن تتبعه عودة، كل ما بدر منه هذا الصَّباح يؤكِّد أن رؤيته التي باغتته في منامه صادقة، وتفسيرها واقع لا محالة، قلبها يرتعش في ضيق الصَّدر، يفرفط بين ضلوع تنكمش لتقبض عليه.

«لماذا تحزنين عليه يا سريرة؟! ما الذي قدَّمه لك طوال هذا العمر المديد الذي عشتِه معه؟! خمسون سنة زواج».

هشَّت ذبابة كبيرة تطوِّف حول وجهها، كانت عصاها مركونة بجوارها إلى حافَّة المصطبة الصَّخرية، وكان الجو قائظا، مثقَّلا بلهيب «مسرى»، وشجرة «الجميز» راكدة، وشواشي رءوس النَّخيل تبدو في البعيد كخطوط كثيفة مرسومة على زرقة السَّماء، لم تكن هناك أيَّة نسمات تعمل على تلطيف الحرارة.

«خمسون سنة قضيتِها معه، لم تسمعي منه كلمة ثناء، أي كلمة ثناء من أجل أي شيء، لا أثنى على طبخة أكلها من عمل يديك، ولا على جلباب جميل ارتديته يوما، ولا حتى على خدمة خدمتِها للغنم».

رقَّت نظرتها إلى «حجيزي» رغم ما يدور في نفسها، كأنَّها تلوم أفكارها هذه، عاشت طوال عمرها تكره المرأة التي تشكو تصرفات زوجها لأحد، المرأة بنت النَّاس تقبل مر زوجها كما تقبل حلوه.

«أنا لا أشكو حجيزي لأحد، أنا أحدِّث نفسي!».

«الخطأ بدايته حديث نفس يا سريرة، ليكن ما بداخلك مدفونا أبدا في أغواره العميقة، لأنه لو خرج إلى النَّفس، صار مثل عفريت القمقم، مع أقل لمسة للقمقم ينطلق العفريت إلى الفضاء المعلن، وتصير فضائح».

رغم أن «حجيزي» انهمك في غسل النَّاقة مثل شاب مقبل على الحياة، وهو يعلم أنه في سبيله إلى رحلة لن يعود منها حيًّا، إلَّا أن هذا لم يُدهش «سريرة»، إنها اعتادت غرائبيته، تحاول دائما أن تتذكَّر فعلا واحدا

طبيعيا له طوال معاشرتها فلا تفلح، لن تنسى أبدا عينيه المرتعبتين وهو يبتعد عن عريها في ليلة دخلتها، لم تسأله عن هذا أبدا، هل تسأله الآن؟ أم تترك للموت هذا السِّر، يميته كما سيميت صاحبه؟

في المقابل لن تنسى هذه الضَّمة الهصور التي كاد فيها أن يخلع ضلوعها، وهو يقترب من لحظة الانتشاء، يخور مثل الثَّور، وتشخر مثل بقرة تذبح، تغرس أطراف أصابعها في ظهره، وينكت أظافره بين لوحي كتفيها، بينما يطبق بأسنانه على عظمة ترقوَّتها.

تبتسم بسمة حزينة.

«مرَّة من ثلاث مرات طوال خمسين سنة».

«كانت أول مرَّة بعد عشر سنين من ليلة الخيبة، ليلة الدخلة».

«من أجل هذه الثَّلاث مرَّات على فراش مهجور طوال خمسين سنة ستحزنين عليه؟!».

لماذا تبدو عيناه صافيتين؟! لماذا لا يضرب فيهما خوف الموت، يغسل النَّاقة بهمَّة أكثر من كل مرَّة، وبُحب، يعطي النَّاقة متعة الاستحمام، وهي مبتهجة، تدير رأسها وتطلق رغاءً فرحًا، كانت «سريرة» هكذا في هذه الظَّهيرة البعيدة، رأسها يسبح في كومة شعرها المنثورة على الوسادة، تديره يمينا وشمالا، بينما يد «حجيزي» تتخبَّط في أركان جسدها، لم يكن خبيرا بأسرار أجساد الحريم، مفاتيح الرَّغبة، وبوَّابات الشَّهوة، وكانت جائعة، أي لمسة لجسدها تؤجِّج فيها النَّار المكبوتة.

«ليس من أجل هذه الثَّلاث مرَّات فقط سأحزن عليه، ولكن من أجل كلمته التي قالها لي منذ قليل، كنتِ أجمل بنت في بنات أيَّامك يا سريرة، نعم، من أجل هذه الكلمة أغفر له قحط كل هذه السِّنين».

ترى «سريرة» «حجيزي» جيِّدا من خلف سحابة عينيها العجوزتين، تراه يتمتع بقوَّة تجعل عضلاته ما زالت تتراقص، ووجهه حسن رغم عشرات التَّجاعيد التي تنهكه، ولحيته المهذَّبة بشكل ربَّاني تضفي عليه رجولة ساحرة.

انحدرت من عينيها دمعتان، مسحتهما، ثم قبضت على عصاها، وأسندت ذقنها إلى كفَّيها المرتاحتين إلى انعقافة العصا، أخذت تملأ عينيها من «حجيزي»، وهو يغيب وينظر إليها بالتفاتة مخطوفة.

السَّماء لا تكف عن فتح أحضانها لهجرة الطُّيور، طيور مُشكَّلة وملوَّنة، أسراب من غير حصر ولا عد، بعيدة، في قلب سماء شاهقة، ترحل من غير ضجيج.

وقفت، تريد أن تنسحب للدَّاخل، دفقة من بكاء لا تخضع لسيطرة «سريرة» تحاول الانفجار، وهي تتوكَّأ لتبدأ الحركة ناحية الباب الكبير، لمحت بسمة في وجه «حجيزي»، كانت النَّاقة تدور برأسها، وتقرِّب مشفري فمها ناحية فم «حجيزي»، كأنَّها تريد أن تقبِّله، «حجيزي» عندما يبتسم يبدو جميلا جدا، لن تنسى بسمته التي ارتسمت على وجهه ليلة أن استطاع إنهاء أول علاقة على السَّرير بنجاح.

ما الذي انطلق فجأة يأكل جسد «سريرة»؟! ما الذي ضرَّج خدَّيها، الغائرين بين فكَّيها الخاليين من الأسنان، بلون تفَّاح طازج؟! ما الذي جعل عينيها تصفوان من غبشتهما لتسترجعا بعضا من ألقها القديم؟! همست لنفسها وهي تبتسم: «سريرة!».

«زوجي، حجيزي زوجي، ما في ما يعيبك يا سريرة».

«لكن آخر مرَّة كانت من عشرين سنة، وقت صحَّته ما كان يقدر، وقت روقان باله ما كان يقدر، الموت دائما لابد في مخِّه، تحنيط الجثث قتل حبه للجسد، وقت أن كنت يا سريرة بنت نغَّاجة ما كان يقدر، مجنونة لو ظننت أنه يمكن أن يقدر الآن».

نظرت «سريرة» إلى «حجيزي»، كان يلتفت إليها التفاتة خاطفة، عندما رآها تنظر إليه وتبتسم، بل وتناديه بصوت منخفض مكسور: يا «حجيزي».

«عوَّدني حجيزي على العجائب، ما لم يقدر على عمله وهو مقدم على الحياة، ربما يستطيع أن يعمله وهو مقدم على الموت».

- «حجيزي».

ترك «حجيزي» غسيل النَّاقة، ولمَّا تأكَّد ممَّا في عينيها اندهش.

* * *

رغم أن «صالح» ليس أكثر من طفل صغير، مات قبل أن يكمل النِّصف الأول من عامه الثَّاني، إلا أن رجال «الوعرة» خرجوا كلِّهم في جنازته.

في ظروف الموت العادية، لا يتبع جنازة الأطفال أكثر من عشرة رجال، لكن موت «صالح» غرقًا في بئر «الراهب»، وإخراجه منها بصعوبة بالغة، جعل لموته وقعًا أقسى حزنًا، وأعتى مهابة، أخرج كل الرِّجال لتشييع جنازته.

تحرَّكت الجنازة بعد صلاة الفجر، النُّور بالكاد ينبثق من آفاق الشَّرق، تتحرَّك الجموع في صمت مهيب، لا صوت إلا صوت حفيف أطراف الجلابيب عند اصطدامها بالسِّيقان المهرولة، يتحرَّكون إلى الشَّرق مسافة ساعة، قبل أن ينحرفوا إلى الجنوب، ليخترقوا عمق الصَّحراء، إلى حيث بلاد الموتى، القبور، الجبَّانة.

«سعداني» يحمل ابنه مكفَّنا بالبياض على ذراعيه المنصوبين أمامه، لفافة صغيرة تتأرجح خفيفا، تماما كما تتأرجح المياه الحارة في عينيه.

أكثر من مرَّة «سعداني» ينسى، ويُقدم على رفع جثَّة ولده، ليضعه على كتفيه، كما كان يفعل معه وهو حي، فيسارع المحيطون به ليأخذوا منه الجثَّة الصَّغيرة، بقصد إراحته، لكنَّه يرفض بإصرار، ويشهق ويبكي.

- وحِّد اللّٰه يا «سعداني»، ما هكذا يكون فعل الرِّجال يا شيخ!

«حجيزي» في آخر الجنازة، بجواره «سعدون»، يبذلان الجهد في المشي السَّريع، لكنَّهما يتأخَّران رغم أنفيهما، والجنازة تبتعد.

همس «حجيزي»: الخطَّاف مزَّق عينه اليسرى، وخرج سنه من أعلى جمجمته، ورقبته التوَت، وانكسرت وهم يجذبونه من البئر.

نظر «سعدون» إلى الأمام، حيث الجنازة تبتعد ببطء، بينما سحابة من الرَّمل السَّفيف، تنساب إلى أعلى، ولم يفتح فمه.

- العين أغلى ما في الإنسان يا «سعدون»، أغلى من العقل، عاقل أعمى يتعب، ومجنون مبصر لا يشقى.

نسمة تحلِّق حول «حجيزي»، فيشم رائحة البحر، يأخذ شهيقا يملأ صدره، ويقول ملتفتا بوجهه ناحية «سعدون»: تشم رائحة البحر؟!

احمرار الشَّمس الصَّاعدة يضرب وجه «سعدون» وعمامته الملقاة على رأسه كيفما اتفق، «سعدون» احمرَّ وجهه الأبيض واربدَّ، يمشي لاهثًا، كرشه يرتج، هتف «حجيزي»: مالك يا «سعدون»؟!

- حزين من أجل «سعداني»، مسكين، يحمل على ذراعيه جثَّة ولده الوحيد، تخيَّلت نفسي في مكانه، ما أستطيع أحمل «جميل» على ذراعي وهو...

- أنت رجل سوء وفقري يا «سعدون»! تفاءل بالخير يا أخي.

هزَّ «سعدون» رأسه كأنه يستفيق من كابوس، ورسم على وجهه بسمة صفراء، وقال: إه! مالك يا «حجيزي»؟! أنا يا أخي حزين على «سعداني».

الجنازة تبتعد أكثر وأكثر للأمام، وكاد «حجيزي» و«سعدون» يبدوان كنقطتين وحيدتين في الرِّمال التي لاحت في أفقها الشرقي الجنوبي أربع صخور ضخام، ظهرت كسحابات حمراء تلبَّطت بشبُّورة من عتمة تتمسَّك بالبقاء رغم شروق الشَّمس.

قال «حجيزي»: رأيت يا «سعدون» عين «صالح» ولد «سعداني» لمَّا اخرجوه من البئر؟!

تضايق «سعدون»، لكنَّه قال: لم أرها. الحمد للَّه أني لم أرها.

- أجمل ما في الإنسان العين، وما في الحيوان أيضا، لمَّا كنت أحنِّط الحيوانات مع «شديد»، كنت أقرف من كل أحشائها إلا العيون، تشعر بها في يدك كأنها جوهرة، أنا ما رأيت الجوهرة، لكن «غنيمة» يقول إنها مدوَّرة وتلمع، رآها في محلات «أسيوط». شيء آخر يعجبني في العيون، الحياة، حتى بعد أن نقلعها من محجرها لا تموت، تبدو دائما حيَّة وتنظر لك. كانت عينا الفارس الذي حنَّطه «شديد» مليئة بالحياة.

تقترب الصَّخرات الأربعة، شاهقة، ضاربة في السَّماء، مفزعة، كأنهن أربع مومياوات متقابلة، يحرسن فيما بينهن مربَّعا شاسعا رُصَّت فيه القبور.

هناك، إذا عصفت الرِّيح، صرخت المومياوات.

* * *

ركب «حجيزي» ناقته، وقبل أن تهبَّ واقفة نظر إلى بوَّابة بيته، كانت من خشب عتيق من شجر «السرو»، مطلي بدهان زيتي مثل لون الزرع، بهت اللون في بعض أجزائه، وانمحى تماما من أجزاء أخرى، و«سريرة» تقف في وسط فراغ البوَّابة، تنظر إليه بينما تهش ذباب الصيف المتكاثر، تبدو «ثريَّا» واقفة خلفها، تفتح عينين حزينتين، وعندما نخس النَّاقة، هبَّت للوقوف، وقال: عندما نعود يا «بكير» لابد من أن تعيد طلاء البوَّابة.

كان «بكير» راكبا ناقته هو الآخر، ويقف منتظرا تحرُّك ناقة «حجيزي»، قال «بكير»: إن شاء اللّٰه نعود بالسَّلامة ونطلي البوابة.

ابتسمت «ثريَّا» وهي تغمز ضلوع «سريرة» بكوعها غمزة رقيقة: يقول نعود يا «سريرة».

همست «سريرة»: إن شاء اللّٰه يعود.

تحرَّكت النَّاقتان إلى الشَّرق، وبعد وقت قليل كانت «الوعرة» قد انحدرت للخلف، أوقف «حجيزي» ناقته، ثم استدار بها مواجها الواحة الصغيرة.

البيوت تتلاصق في مواجهة وحشة الصَّحراء، بينما تحيط بغربها وشمالها بساتين واسعة من زروع وأشجار زيتون، وتخترق السَّماء هامات نخيل من غير عدد، ونخلتا بئر «الرَّاهب» في الشَّرق جنوب «الوعرة»، ثم إلى الجنوب غربا قليلا بدت أشجار «الفيكس» وهي تخبئ بئر «السَّخنة»، وحمام يرفرف فوق البيوت والحقول في أسراب متفرقة.

أخذ «حجيزي» ينظر إلى كل شيء نظرة عميقة، وضربه هاجس مفاجئ، «القعبة» التي يشرب فيها كل صباح اللبن الرَّائب، كيف حافظت عليها «سريرة» كل هذه السِّنين الطَّويلة دون أن تنكسر؟!

هاجمته حالة اشتياق شديدة لرؤية «سريرة»، وفكَّر في أنها مازالت قريبة، مازالت البيوت في مرمى البصر، ليعُد، ولينظر في وجه «سريرة» لآخر مرة، هذا شيء متاح الآن، لكنَّه سيصبح مستحيلا بعد يومين ونصف، بعد أن يموت.

استدار، فرأى نظرات الدَّهشة في عيني «بكير». دار بناقته مرَّة أخرى واستلم المدق النَّازل إلى «موط» البعيدة، مضت الناقتان بتؤدة على طريق السَّفر، بينما دمعتان تمضيان منحدرتين ببطء من عيني «حجيزي»، تنزلقان لتذوبا في تجاعيد وجهه، وهمس: لماذا يدفن النَّاسُ أعزَّ النَّاس؟!

ورفع صوته، يريد أن يُسمع «بكير» الماضي خلفه: لماذا يدفن النَّاسُ أعزَّ النَّاس يا «بكير»؟!

واصل «بكير» صمته، قبل أن يقول: لأنَّهم يتعفَّنون بعد موتهم، لو ما دفنَّاهم تأكلهم الكلاب يا «حجيزي».

كان هذا السُّؤال مباغتا، فصمت «بكير»، بينما أصدرت ناقته رغاء قصيرا خافتا، كأنَّها تئن.

9

جَبَلُ الرُّهبَانِ

مسيرة يومين كاملين في رمال لا يتغيَّر لونها إلَّا مع تغيُّر مواضع الشَّمس، الشُّروق والضُّحى، والظَّهيرة، والعصاري، والغروب، أصفر حائل إلى البياض، أو أصفر ذهبي، أو أصفر متوهِّج، أو أصفر يحولُ إلى الدَّكنة، لا مدق ثابت وحيد تدب عليه خفاف النُّوق، وإنما مدقَّات متعدِّدة تتقارب أحيانا، وتتقاطع، لتفترق افتراقا نهائيا، فأماكن الرُّهبان في الصَّحراء متغيِّرة، ونادرا ما تتَّجه القوافل إلى رهبان قاطعوا الحياة بصخبها، وإن اتجهت إليهم فإنها تكون قوافل صغيرة جدا، ناقتان، أو ثلاث على الأكثر، تحمل خبزا جافا، ولحوما مجفَّفة، وبعض عصائر، وكثير من التَّمر.

ربما طوال نهار كامل لا تقابلهم سوى شجرة يتيمة، وبعض من أرانب الصَّحراء التي تفزع لمرآهم فتختفي في الرِّمال مثل أشباح، النَّاقة الأمامية يعتلي «يوأنَّس» الراهب سنمها، يمشي بحذائها «عبد الله» صاحب النَّاقتين، بينما اعتلى «حجيزي» سنام النَّاقة الثَّانية.

مضى يومان ولم يأكلا طعاما سوى مرَّة واحدة.

قبل مغيب شمس الأمس، أوقف «عبد اللّه» الناقتين ليستريحا، ومدَّ الرَّاهب يده إلى خُرج صغير تعلَّق بسنام إحداهما، أخرج خبزا جافا، وقِطعة من جبن قديم قاسية مثل حجر، وأشار لهما كي يأكلا، ثم مضى على مقربة منهما، وبينما «حجيزي» ينظر ناحية الرّاهب باندهاش، همس «عبد اللّه» وهو يدس لقمة في فمه: كل يا شيخ «حجيزي»، الرُّهبان لا يأكلون.

- يا مقدِّس، تعال كُلْ معنا.

نظر «يوأنَّس» الرَّاهب إلى «حجيزي» وقال: آكل عندما أجوع.

- لنا يوم كامل ما أكلنا طعاما!

ابتسم الرَّاهب ابتسامة هادئة، وقال: آكل عندما أجوع.

ضحك «عبد اللّه»، وقال: قلت لك يا شيخ «حجيزي» الرُّهبان لا يأكلون كما نأكل.

مدَّ «حجيزي» يده، وكسر خبزة، مسح بها قطعة الجبن المتحجِّرة، وهمس في أذن «عبد اللّه»: وهل هذا طعام يؤكل؟ نفس الرَّاهب مسدودة.

وضحكا، وصاح «حجيزي» موجِّها كلامه للرَّاهب «يوأنَّس»: متى تجوع يا مقدِّس؟

نظر الرَّاهب إليهما طويلا قبل أن يقول: هل يجوع من أكل على مائدة الرَّب؟!

قال «حجيزي» ساخرا: ربما تقصد أنه لا يجوع من أكل بالأمس القريب خبزا وجبنا في ضيافة «حجيزي»!

الشِّتاء رحيم، شمسه دافئة، ونهارة قصير، لا يعيق الارتحال، وعندما أوشكت شمس اليوم الثاني على المغيب، أوقف «عبد اللّٰه» النَّاقتين، وقدَّم لهما الرَّاهب خبزه الجاف وجبنه المتحجِّر، أكلا، ولم يأكل الرَّاهب.

في منتصف الليل، تماما كالليلة السَّابقة، توقَّف الرَّكب، ترتاح النَّاقتان، وينامون بضع ساعات حتى شروق الشَّمس، في منتصف الليل ألق سكون الصَّحاري، أروع الصَّحاري هي تلك البعيدة عن فعل الإنسان، التي مازالت في بكارة خلقها الأوَّل، قبَّة سماوية حالكة السَّواد، تبرق فيها آلاف النجوم، تنحني أطرافها بحنان لتحتضن الآفاق، وأسوأ ما في الصحراء زمهرير البرد، برد الصَّحراء قاتل.

النَّار تنبعث متألِّقة من كومة حطب جمعه «عبد اللّٰه» من الأغصان الجافَّة لتلك الأشجار الصَّغيرة المتناثرة على مسافات بعيدة، الوجوه الثَّلاثة تتوهَّج بالاحمرار، والنَّاقتان تبدوان ككومتين من رمال تهتزَّان مع اهتزاز ألسنة اللهب، بينما حشرات صغيرة قليلة بدأت تطوِّف حول النُّور.

«عبد اللّه» في أربعينيات عمره، أسمر، نحيل، وجهه ممصوص، عيناه تتقدان بذكاء البدو وحذرهم، بعينيه هاتين نظر إلى «حجيزي» وقال: ما الذي يجعلك تأتي مع الرَّاهب يا شيخ «حجيزي»؟!

صمت «حجيزي»، لكن الرَّاهب «يوأنَّس» نظر في عيني «عبد اللّه» وقال: «حجيزي» يبحث عن خلاص روحه.

همس «حجيزي» وهو يقلِّب النَّار بجزء من غصن محترق: لا يا أبونا «يونَّاس» أنت قلت كل مسيحي يقوم من موته، اتَّبعك لأني أريد أن أقوم من موتي، لا أريد أن أدفن.

ابتسم الرَّاهب «يوأنَّس»، فبدت أسنانه ناصعة البياض، وفي كامل هيئتها، مثل أسنان مراهق، لكن «عبد اللّه» قال: فهِّمني يا أبونا، ما معنى أن المسيحي يقوم من موته؟!

كان للرَّاهب «يوأنَّس» صوت عميق، وقعه يريح القلب، فقال: معناه أنه يحيا ويترك قبره.

ضحك «عبد اللّه»، وقال: النَّصارى لهم مدافن كبيرة في «أسيوط»، يدفنون فيها موتاهم، ولم نسمع أن واحدا منهم خرج من قبره بعد دفنه وذهب إلى بيته!

النَّار تدفئ الأيادي والوجوه والصُّدور، لكن يظل البرد ينكت خناجره في ظهورهم، ويكاد يمزق أصابع أقدامهم، ليل الشتاء طويل، والنَّاقتان تجترَّان طعاما، وقد أغلقتا أعينها.

- المسيحي لا يترك قبره ليعود مرة أخرى إلى قبور الدُّنيا، التي تسمُّونها البيوت، إنه يصعد إلى الملكوت، حيث الرَّاحة الأبدية، والنَّظر في وجه الرَّب.

نظر «حجيزي» إلى الرَّاهب «يوأنَّس» نظرة من يشعر أنه يكاد يقع في خديعة ما، وقال: لكن أنا أريد أن أقوم وأعود إلى بيتي.

كان صوت «يوأنَّس» الرَّاهب عميقا جدا، وعيناه تحلِّقان نحو نجمة كبيرة لامعة، عندما قال: الذي قام بجسده بعد الموت هو ربُّنا «يسوع» المسيح، اتبِعه بقلب مملوء به يعلِّمك كيف قام من بين الأموات، لكن حتى المسيح نفسه لمَّا قام لم يذهب إلى بيته الدُّنيوي، وإنما ذهب إلى بيته السَّماوي، وجلس على يمين أبيه.

وقال: اتبِعني يا «حجيزي» أعلِّمك الطريق إلى ربِّنا «يسوع» المسيح....

اخترق صوت «سعدون» تلافيف عقل «حجيزي»:

- قسسة النَّصارى مقرفين يا «حجيزي»، يموتون في الخَراء، حتى أنهم عبدوا إنسانا يخرأ، ربهم يخرأ يا «حجيزي».

وغرق في الضَّحك، ثم قال: أولاد الكلب لهم كنائس كبيرة في «أسيوط» ناسهم كثيرون في هذه البلد.

قال «حجيزي»: لكن «يوحنا» الرَّاهب استطاع بكلمتين عمل ما لم تستطع صلواتنا كلنا أن تعمله، أوقف جفاف البئر من الماء!

قال «سعدون»: يا ضعيف الإيمان، هذا من أعمال الشَّيطان، القسسة أحفاد الفراعنة، والفراعنة سحرة، والسحرة إخوة شياطين...

غاب صوت «سعدون»، وتجلَّى صوت «يوأنَّس» الرَّاهب جَهوريا عميقا:... فقط لتصبر، وسيفتح الرَّب عينيك كما فتحها لـ«بولس» الرَّسول، ولمئات غيره.

- بولس الرَّسول! من بولس الرَّسول؟!

- ستعرف كل شيء في حينه، الآن ناما قليلا لتستريحا.

وبينما «حجيزي» و«عبد اللّٰه» يتمدَّدان على فرشين من صوف الغنم، ويفردان على جسديهما دثارين ثقيلين من وبر الماعز، كان «يوأنَّس» الرَّاهب يتَّكئ على عصاه مبتعدا في الظَّلام، وصوته قد تذلل وخشع: أرفعُ عينيَّ إلى الجبال، من حيث يأتي عوني، معونتي من عند الرَّب، صانع السَّماوات والأرض.

* * *

ها هي غزلان تشرئب برؤوسها، تنظر إلى القافلة، وتقفز قفزات سريعة، وتختفي خلف الكثبان الصَّغيرة، لابد أن القافلة تمضي في أماكن نائية جدا، حيث تظهر حيوانات لم ترض بمعاشرة الإنسان، فنأت عنه، «عبد اللّٰه» يركب النَّاقة الأمامية، و«حجيزي» يركب النَّاقة الثَّانية، بينما الرَّاهب «يوأنَّس» يدبُّ على قدميه وعكَّازه، متأخِّرا قليلا عن قافلة تتعمَّد السَّير ببطء.

- أبا «هند»، توقَّف، أريد أن أشرب.

كان صوت «يوأنَّس» الرَّاهب متحشرجا، فأوقف «عبد اللّٰه» ناقته، فتوقَّفت الثَّانية تلقائيا، وعندما همَّ «عبد اللّٰه» بإناخة النَّاقة، قال «يوأنَّس» بحدَّة: لا، أنا فقط أريد أن أشرب.

قال «عبد اللّٰه»: نتوقَّف يا مقدِّس، ربما تحتاج إلى الرَّاحة قليلا.

- لا، أنا أحتاج فقط إلى جرعة ماء.

سحب «عبد اللّٰه» قربة صغيرة معمولة من جلد مدبوغ لجدي صغير، أعطاها لـ«يوأنَّس» الرَّاهب، الذي أخذها ووضعها على فمه، ورغم أنه كان متلهِّفا إليها، إلَّا أنه لم يشرب سوى جرعة واحدة، وأعادها إلى «عبد اللّٰه» الذي ألح عليه في أن يشرب المزيد، إلَّا أنه رفض بإصرار.

- لا يغلبني الجسد الفاني.

وكان صوت «حجيزي» ساخرا، تتراقص في تجاعيد وجهه ابتسامة صغيرة، عندما قال: ألم يكن على مائدة الرَّب ماء يا مقدِّس «يونَّاس»؟!

قال «يوأنَّس»: وهل كان على مائدة الرَّب طعام يا إنسان؟!

ما قاله الرَّاهب كان صادما لـ«حجيزي»، وبدا له أن كلام «يوأنَّس» يناقض بعضه بعضا، فلقد قال بالأمس إنه أكل من مائدة الرَّب! لكن الثِّقة التي يتكلم بها الرَّاهب، جعلته يشعر أنه يفهم تماما ما يقول، ولم يحب «حجيزي» أن يبدو غبيا فسكت، وقد بدأ يفهم أن الرَّاهب «يوأنَّس» يصارع جسده.

عندما صعدت النَّاقتان أحد الكثبان العالية ظهرت فجأة شجرة ضخمة تتلوَّى أغصانها العارية من أية أوراق، مثل أفاعٍ متشابكة في صراع مسموم، فقال الرَّاهب: بضع ساعات ونصل، قبل المغيب سنصل.

وعندما مضى الرَّكب بجوار الشَّجرة الأفعوانية هذه، زلزلت رعدة مفاجئة قلب «حجيزي»، صاحبت إحساسا طاغيا داهمه بأن حياته التي يعيشها تشبه تماما هذه الشَّجرة الجرداء الكئيبة، بل هو نفسه ليس أكثر من شجرة مثل هذه، غريبة ليست مثل أي شجرة، بعيدة عن الحياة، رغم أنها تنبت فيها.

وعندما انحدرت النَّاقتان، واختفت الشَّجرة، كان «حجيزي» يعاني من وجيف قلبه، وقد وصل إلى قناعة محبطة، مفادها أنه ضيَّع حياته في مهاترات، وهو يظن أنه يعيشها كما ينبغي.

«ما الذي أتى بي خلف هذا الرَّاهب؟! أنا أبحث عن صحة جسدي بعد موته، وهو يبحث عن هلاك جسده المملوء بالحياة!».

في هذه اللحظة جاء صوت الرَّاهب من خلف القافلة الصَّغيرة، التي تمشي الهوينى، ضعيفا كأنه ينغرس في الرِّمال مثل قدميه وطرف عصاه: الرَّب عمل لك خُطة يا «حجيزي»، وسترتاح روحك المتعبة.

«ولماذا روحك متعبة يا حجيزي؟»

«لأنك شغلتها بألد أعدائها، الموت»

«وبعد يا حجيزي!؟».

«لا شيء، لا أحد يريد أن يعيش تعيسا، ستتعس أكثر لو عشت الحياة كما يعيشها سعدون، أيام تقتنص منها أوقات سعادة ثم تموت لتتحوَّل إلى تراب في قبر!».

«إذًا أنت صح يا حجيزي».

«نعم، أنا صح».

أقنع «حجيزي» نفسه بجدوى ما يفعل، مثلما يفعل دائما طوال رحلته الطَّويلة في الحياة، كلَّما كاشفته نفسه بما في داخلها من قلق، فذهب وجيف قلبه، وتأكَّد من أن له الحق في أن يعطي جسده فرصة في الهرب من الدَّفن، وأن مصاحبة الرَّاهب «يوأنَّس» ضرورية فعلا.

وتكشَّفت له رمال واسعة ذهبية امتدت تحت شمس العصاري، وفي الأفق بدا وكأن جبلا عاليا يلوح، وشيء ملقى على الرِّمال يقترب ليتضح أنه هيكل عظمي لأحد الجِمال، كان «حجيزي» هو الذي يمشي، بينما الرَّاهب قد جلس على سنام النَّاقة.

هتف «عبد اللّه»: هذا جمل شارد، ربما افترسته ذئاب الجبل، وربما قتله الجوع والعطش، فنهشت النُّسور والضِّباع لحمه.

قال «حجيزي»: لكنَّنا لم نر طوال سفرنا ذئابا أو ضباعا أو نسورا.

ضحك «عبد اللّه»: نحن لم نرها، لكن هي بالتأكيد رأتنا، إنها أسياد هذه الصَّحراء.

قال «يوأنَّس» الرَّاهب، وصوته العميق لم يتأثَّر باهتزازات جسده المتشبَّث بسنام النَّاقة المنطلقة برتابة: عندما ترى يا «حجيزي» الذِّئب ينام وقد وضع رأسه على فخذ الرَّاهب «مرقس» المسكين، ستعلم من هو السيِّد الحقيقي.

«ما الذي أتى بهذا الجمل إلى هذه الفيافي القاحلة البعيدة ليلقى مصرعه هنا؟!».

ارتعد جلد «حجيزي».

* * *

وصلت القافلة الصَّغيرة إلى سفح الجبل، لم يكن جبلا شاهقا، كما أنه ليس بالمنخفض، تناثرت عليه فوَّهات كهوف ومغارات بالقرب من سفحه، كما أن بعضا من أشجار مورقة تمتد على طول هذا السفح، فأعطت راحة للنَّظر والرُّوح.

ما كان غريبا أن عددا من النَّاس كانوا يقفون وعلى وجوههم فرحة هادئة، هيئة وقوفهم تشي بأنهم رهبان أيضا، وأنهم ينتظرون القافلة.

كانوا عشرة، وربما يزيدون، طالت وتشعَّثت شعور رؤوسهم ولحاهم، أجسادهم نحيفة كهياكل عظميَّة، جلود وجوههم مشدودة مثل وجوه المومياوات، اثنان منهم بلغا من العمر عتيا، ربما تعدى عمرهما المائة عام، أما الآخرون فهم بين الأربعين والستين.

توقَّفت القافلة، وأناخ «عبد اللّٰه» النَّاقتين، وبدأ يفك الحبال التي ربطت بها بعض الأجولة واللفائف.

هؤلاء الرُّهبان لم ينطقوا حرفًا واحدًا، لكنَّهم كانوا يتابعون ما يفعله «عبد اللّه» مثل دُمى مبتسمة، نظر «يوأنَّس» الرَّاهب ناحيتهم، وقال: أتينا بدشيشة البهائم.

«هل يربون البهائم؟! لكن أين دشيشة البهائم هذه؟! ما معنا على النَّاقتين غير خبز وعصائر وجبن وتمور؟!».

قال «يوأنس» الرَّاهب بصوت جلجلت فيه بحة الفوز: وأتيت لكم بجسد «المسيح» ودمه.

فتح «حجيزي» عينيه مبهورا بما سمع، هل كان برفقتهم قتيل دون أن يدري؟! المسيح؟!

«أيكون هو المسيح الذي قالوا إنه قام بجسده حيًّا من بين الموتى؟! هل قام ثم قُتل ولم يستطع القيام مرة أخرى من الموت؟! وكيف أتى هذا المعتوه بجسده الغارق في دمائه ليأكلوه؟!».

وبينما يدور برأسه ناظرا ناحية الجوال الكبير، متسائلا بعينيه إن كان فيه جثَّة «المسيح» فعلا، تذكَّر أن هذا الجوال بالتحديد، هو الجوال الذي أخرجه من بيته، وعبأه تمرا للرَّاهب «يوأنَّس»، لمَّا مر عليه في «الوعرة».

لم ير «حجيزي» فزعا في عيون أولئك الرُّهبان الواقفين في أماكنهم من غير حركة، بل إن الابتسامة ما زالت ترتسم على شفاههم، أو بالأحرى اتَّسعت قليلا.

كانت عينا «حجيزي» بارقتين بالسؤال: أين خبأ هذا الرَّاهب جثَّة المسيح؟!

نظر الرَّاهب «يوأنَّس» إلى الأجولة المعبَّأة بالخبز الجاف والتمور، وابتسم قائلًا: ها هو هناك.

«هذه أجولة مملوءة بخبز وتمر! هل جُن الراهب؟!».

كان الرُّهبان يهمسون بكلمات التراتيل، بينما ينقرون بأطراف أصابع أيديهم جبهاتهم وأجناب صدورهم، وقد توقَّفوا عن الابتسام.

ظلُّ الجبل يغطِّي الأشجار القليلة المتراصَّة في سفحه، ويغطِّي مساحة كبيرة ملقاة أمامه، والرِّمال البعيدة بدت مثل بحيرة من ذهب تمتد حتى الآفاق، الشَّمس تغرب.

الرُّهبان يلتفُّون حول الأجولة واللفائف، يقتسمونها فيما بينهم من غير ضجيج، «عبد اللّٰه» يعدُّ نارا لصنع الشَّاي تحت إحدى الأشجار، وقد جلس بجواره «حجيزي»، ينظر ناحية الرُّهبان نظرة حائرة.

- أنت تعرف أننا نحمل جثَّة طوال هذه الرِّحلة؟!

- أي جثَّة يا عم «حجيزي»؟!

- قال لهم إنه أتى بجثَّة المسيح ودمه! ألم تسمع هذا؟!

كان «عبد اللّٰه» قد نفخ في الدخان ليشتعل، فسال دمع عينيه، لكنَّه قال وهو يبتسم: الرَّاهب يقصد الخبز والتمر الذي سيصنعون منه خمرا.

عينا «حجيزي» دارتا أكثر في محجريهما، فقال «عبد اللّه»: قال لي أحد الرُّهبان زمان، إنهم عندما يأكلون هذا الخبز، ويشربون هذا الخمر، فكأنهم أكلوا جسد المسيح، وشربوا دمه.

امتعضت تجاعيد وجه «حجيزي»، وقال: اللّه يقرفهم، يشبِّهون الخبز بلحم النَّاس! وكيف هم رهبان يشربون الخمر؟ يكون «سعدون» صدق في كلامه عنهم؟!

اشتعلت النَّار حول «كوز» ممتلئ بالشَّاي اسودَّت جوانبه بالهباب، «حجيزي» نظر إلى «عبد اللّه» الذي يقبض على «سلك» ملفوف حول الكوز المغموس في ألسنة اللهب.

قال «حجيزي»: يبدو أنهم مجانين.

قال «عبد اللّه»: هم مجانين بالتَّأكيد يا عم «حجيزي»، يتركون الحياة والنَّعيم، ويأتون ليلقوا بأنفسهم في جحيم الصَّمت هذا، أنت تظن أنهم يأكلون الجبن ويشربون العصائر؟! لا، إنهم يقولون عنها دشيشة البهائم، لا يجرؤ أحدهم على الاقتراب منها، وإلَّا اتهموه في صدق صلاته، لكن هناك من يخضع لمتطلبات جسده فيأكل، ثم يرحل، منهم بالتأكيد من سيعود معي، لكن أغلب الجبن والعصائر تلقى لتأكلها وتشربها هوام الجبل، ويأكلون هم أوراق هذه الأشجار وثمارها، تعينهم عصائرها على العطش، كما تعينهم مياه المطر، قلبوا العيشة يا شيخ «حجيزي».

وبينما يرشفان الشّاي، يقوم الرُّهبان وقد حمل كل واحد منهم بين يديه نصيبه من نعمة اللّه التي حُملت إليهم على ظهري النّاقتين.

قال «عبد اللّه»: رأيت رهبانا في صحاري قاحلة، يمصُّون أوراق شجر «العبل» المرَّة، وتمر أمامهم الأرانب، فيتركونها! يا عم «حجيزي» أنت طول عمرك تأكل وتشرب، هؤلاء تعوَّدوا على الجوع والعطش، هؤلاء ليس وراءهم عيال ولا مال، وأنت وراءك بيت وزرع ومال، ما توحشك ضحكة «بكير» يا أخي؟! أنا قلبي يدق كالعاشق كلَّما تذكرت بُنيتي «هند»، أريد واللّه أرسم صورة وجهها على كل رمال المسافات التي أقطعها في الرحيل الذي ما ينتهي أبدا.

«يبدو أنني أخطأت بالمجئ خلف هذا الرَّاهب، فكل ما يقوله أو يفعله حتى الآن هو ضد حياة الأجساد».

حدَّث «حجيزي» نفسه، وهو يرشف آخر قطرة شاي من الكوب الزُّجاجي فاقد الشَّفافية، وآخر شعاع من الشَّمس الغاربة ينزوي، والظُّلمة تفتح فمها.

* * *

ينكأ «عبد اللّه» النَّأقة بكعبي قدميه في جنبيها فتهب واقفة وهي ترغي، الرَّاهب الذي بالكاد عمره تجاوز الأربعين هو من ركب على سنام النَّاقة الأخرى، بينما وقف «حجيزي» بجوار «يوأنَّس» ينظران إلى القافلة الصَّغيرة يودِّعانها، قال «عبد اللّه» وهو يبتسم: آه يا عم «حجيزي»،

أمامك فرصة حتى الآن، ربما تحب العودة في أي وقت آخر فلا تجد من يحملك، اللّٰه وحده يعلم متى يمكن أن تأتي قافلة أخرى إلى هنا.

لم يرد «حجيزي»، وابتسم الرَّاهب «يوأنَّس»، وتدحرجت القافلة ببطء لتغطس في العتمة القادمة.

استدارا ليواجها الجبل، ثم مدَّ الرَّاهب يده نحو كتف «حجيزي»، ودفعه قليلا ليتحرك، وبينما يمضيان ببطء يناسب عجوزين صحراويين، بطء راسخ، قال الرَّاهب: أنا هنا يا حجيزي منذ أن كان عمري أربعين عاما، الآن يقولون إن عمري تعدى المائة، أكثر من ستين عاما أجوب هذه الصَّحاري، لكني لا أنسى أبدا هذه اللحظة الأولى التي تركني فيها البدوي الذي حملني بناقته إلى وحشة هذه الصَّحراء، ووحشة الصَّحراء مهلكة لإنسان وحيد، ورغم أن عَمَارا هائلا بالمسيح يملأ قلبي، إلا أنني لن أنسى أبدا رعدة جلدي، لمَّا نظرت حولي فلم أجد إلا حفرة بالكاد تسع إنسانا، نحتتها يد اللّه في صخرة وحيدة ضخمة، ملقاة في بحر من رمال، أُشهد الرَّب أن «المسيح» كان يملأ قلبي، لكنِّي رغم ذلك شعرت بدوار، وارتميت على الرِّمال أبكي، كنت قادما من الدُّنيا، رغم أني كنت قد قضيت سنين طويلة في الكنيسة، لكن الكنيسة كانت مزروعة في قلب دنيا «أسيوط»، وجسدي مستأنس بأجساد أهلها، لكن روحي تاهت هناك، وبينما روحي ترفرف في نعمة اللّه السَّعيدة في أولى لحظات الوحدة في هذه الصَّحاري، كان جسدي يتألم وهو يفارق ونس أجساد النَّاس وشهواتهم، كنت يومها أشبحه على صليب الوحدة وأنا لا أعرف.

وصلا إلى المكان الذي كان يتجمع عنده الرُّهبان، ثمَّة جوال متوسِّط امتلأ بالخبز والتَّمر والأطعمة الأخرى، أشار إليه الرَّاهب، وهو يقول لـ«حجيزي»: هذا نصيبك، ستحتاج إليه بشدة في أيَّامك الأولى.

- وكما صرخ الرَّب يسوع المسيح، وهو معلَّق على صليبه، يطلب من اللّه أن يعينه في محنته...

قاطعه «حجيزي»: تقولون إن اللّه هو المسيح! كيف يطلب اللّٰه أن... يا مقدِّس قل كلاما معقولا!

- المسيحيَّة دين قلب يا «حجيزي»، بالعقل وحده لن يؤمن أحد، عندما تتبع «المسيح»، ويغسلك بالرُّوح القُدُس، ستستريح روحك، ويهدأ قلبك.

«نظر يوأنَّس حوله يكاد الفزع يفتك به، فهو عندما طلب من رئيس الدَّير السِّياحة في الجبال، لم يكن يتخيَّل أن وحشة الصَّحراء يمكن أن تكون بكل هذا العنف، لا شيء يشي بحياة، أيَّة حياة، حتى ولو أفعى تزحف، ليس إلَّا أشجار «العبل» القصيرة الطَّالعة من الرِّمال هنا وهناك، كما لا يوجد ماء، ولا يملك خبرة في التَّعامل مع كل هذا القحط، لا أحد من الرُّهبان الذين عادوا من سياحتهم قصَّ له عمَّا وجده من صعوبات، كلُّهم يتكلَّمون عن نعمة الرَّب الموجودة في كل مكان، ولا أحد منهم يُخبر بأن قسوة ما وجدوه هو ما أعادهم إلى الونس، وإنما يقولون

دائما إن سبب عودتهم هو مشيئة اللّٰه، وفي لحظة فكَّر أن مشاعره هذه ليست أكثر من نفخات شيطان، فَلم يُقدم الإنسان على عمل يحارب به الشَّيطان، إلَّا وجرَّبه، لقد جَرَّب «المسيح» نفسه، هذا الملعون، تجاربه مرعبة، لكن نعمة الرَّب يسوع أقوى».

- عندما غابت الشَّمس يا «حجيزي»، ورأيت شناعة الظَّلام القادم وأنا وحيد، والصَّمت يَوِش في أذنَّي مثل ترنيمة شبح، ساخت ساقاي، وركبتاي اصطكَّتا ببعضهما، ولم أشك في قدوم الموت.

في لحظة تحرَّكت شفتا «يوأنَّس» بكلمة: الرَّب.

سمع نفسه يقول: الرَّب.

- الصَّمت عدو الإنسان الأول يا «حجيزي»، هو الذي يقتلك في خوفك، عندما تخاف تكلَّم، سيتبدَّد خوفك، أنا سمعت صوت روحي، روحي تكلَّمت بما تحب، تكلَّمت باسم «الرَّب»، سمعتها فآنستني قليلا، فقمت وصرخت في وسع الصَّحراء: أرفَعُ عينيَّ إلى الجبال، من حيث يأتي عوني، معونتي من عند الرَّب صانع السَّماوات والأرض.

«تهلَّل وجه يوأنَّس فجأة، وكأن صوته قد نشر في الصَّحراء كامل الحياة، ها هو صوت إنسان يكسر وحشة السُّكون، صوت سمعه بأذنه، ولم يمثِّل مشكلة بالنِّسبة له أن الصَّوت لم يكن غير صوته، فالغريق يتعلَّق بقشَّة، ويتعلَّق بما هو أهون من ذلك، يتعلَّق بالوهم».

يتقدَّمان ببطء ناحية إحدى المغارات، وأقدامهما تحاول انتقاء أماكن آمنة في وعورة الصُّخور.

- أحسست بسكينة تحطُّ في قلبي، فعرفت أن الرَّب معي، وأنه يُعد لي فعلا خطَّة تخصُّني وحدي، فتخلَّصت من قوَّتي، وانتظرت قوَّة اللّٰه، وأخذت ألح عليه في أن يرسلها لي فورا: اللهم التفت إلى معونتي، يارب أسرع وأعنِّي.

وصلا عند فوَّهة المغارة، ألقى «حجيزي» من على كتفه الجوال الممتلئ بنصيبه من الأطعمة، وقال الرَّاهب وهو يشير إلى المغارة: هنا تختلي مع اللّٰه، اسأله بإخلاص أن يمنحك الطَّريق الصَّحيح الذي يؤدِّي إليه...

قاطعه «حجيزي» بضيق: يا أبونا لم آت إلى هنا لأسأل اللّه عن الطَّريق الصَّحيح، أنا أعرف طريقي، أنا أتيت كي تدلَّني على ما لا يجعلني بعد موتي أدفن في قبر، أنا أريد أن أبقى في هذه الدُّنيا التي عمَّرتُها.

إرهاصات حيرة عظيمة تضرب ملامح وجه «يوأنَّس» الرَّاهب، لكن لفح الظَّلام خبَّأها عن عيني «حجيزي»، همس «يوأنَّس»: حتى هذه سيقدِّم لك «المسيح» إجابة عنها.

- متى؟

- عندما تتَّبعه.

- كيف اتَّبعه؟

- تؤمن به ربًّا ومخلِّصا.

- لماذا لا يقدِّم المسيح حلا لمشكلتي من غير أن أؤمن به ربًّا ومخلِّصا؟!

- ولماذا يقدِّم لك حلولا وأنت لا تؤمن به.

- لا أحد يعطي من دون أخذ، حتى الرُّسل!؟

تنهَّد الرَّاهب بعمق، ثم رفع عينيه إلى السَّماء، وقال: ومع ذلك أطلب منك يا «يسوع» أن تُرِي هذا الحائر إحدى معجزاتك، بدون مقابل.

كان القمر يصعد من أفق الشَّرق، دائرة أرجوانية مهيبة، تنتصب على حد الخلاء اللامتناهي، وعوى ذئب.

* * *

لم يكن بمقدور «حجيزي» النَّوم، ليس خوفا من هذا الجبل، ولا من تلك الصَّحراء، فعدد المرَّات التي نام فيها وحيدا في الصَّحراء لا يستطيع أن يُحصيها، أثناء ترحاله ما بين «الوعرة» و«موط» لقضاء المصالح، نام وحيدا في الصَّحراء لمَّا كان يدب بقطيع الغنم إلى مناطق بعيدة، فيقرِّر البقاء أيَّاما لتشبع أغنامه.

في كل الأحوال كان يفرش الصُّوفة ويتمدَّد عليها، ويغرق في النَّوم، بعد سرحة قصيرة لعينيه بين نجوم السَّماء.

لكنَّه الآن يشعر بغربة عن هذه الصَّحراء التي يعرفها، فها هو جبل شاهق يحدُّ من وسعها، وأناس يعيشون حوله في كهوف مثل الأشباح، لا لهم صوت، ولا حركة، ثم هذا الـ«يونَّاس» الذي يطلب منه بوضوح شديد أن يصير نصرانيا، دون أن يضمن له بشكل أكيد القيام من موته.

«لقد خدعك يونَّاس يا حجيزي»؟.

- لم يخدعك «يوأنَّس» يا «حجيزي»، وإنما يخدع نفسه عندما يظن أنه لما انقطع للرَّب فقد قدَّم له الخدمة التي يستحقُّها.

الرَّاهب «يوأنَّس» يقول هذه الكلمات في وهدة الليل وهو يتقدَّم ناحيته ببطء على الحصى، وفرح به «حجيزي».

سيؤنس «يوأنَّس» وحدته.

علا وشيش رفرفة أجنحة تخفق، أجنحة كثيرة، ورفع «حجيزي» عينيه إلى السَّماء، ففوجئ بسحابة من طيور تنساب نحو الشَّمال في صمت مهيب، ينعكس عليها ضوء القمر، فترهج بلمعة الفضَّة، كانت الطُّيور تطير قريبا جدا من سطح الصَّحراء، حتى ظن أنه يستطيع الإمساك بإحداها، كانت سحابة كبيرة من طيور، لم تنقشع إلا بعد دقائق طويلة، و«يوأنَّس» جالس بجوار «حجيزي» الذي ظهر العجب على وجهه.

- أوَّل مرة في حياتي أرى الطُّيور المهاجرة تطير مقتربة من الأرض كل هذا الاقتراب!

ابتسم «يوأنَّس»، وقال: ها أنت الآن تعود شابا يا «حجيزي».

- أعود شابا لأني رأيت هذه الطُّيور!

- لا، لأنك تعجَّبت من قربها، لأنك اندهشت.

حاول «حجيزي» أن يفهم كلام الرَّاهب، فلم يفهم، وقرَّر ألا يسأله عن معنى كلامه، فالرَّاهب خدعه، حتى وإن كان قد جاء الآن ليزيل عنه وحشته، فليس معنى هذا أنه لا يواصل خديعته.

قال الرَّاهب: الفرق بين الشَّباب والهِرم هو هذا الاندهاش، أيام شبابي كنت أندهش من أشياء كثيرة، ربما لم تكن مدهشة، والآن يا «حجيزي» لو نزل ربنا «يسوع» المسيح، ودخل مغارة عزلتي ربما لن أندهش.

الأشجار المتراصَّة في سفح الجبل معتمة تحت ضوء القمر، وتكمل صورة الوحشة.

قال الرَّاهب: نحن نواصل ما تبقى لنا من حياة بسبب لحظات دهشة يمنحها الرَّب لنا، ويوم أن تمتنع عنَّا الدَّهشة سنموت.

وتنهد الرَّاهب «يوأنَّس» قبل أن يقول: الطيور المهاجرة أمنت شر الإنسان هنا، فاقتربت من الأرض، أنا أطلب من ربِّنا أن يريك كيف يضع الذئب رأسه في حجر القدِّيس «مرقس».

- لماذا ألقيت بنفسك في هذه الصَّحاري يا مقدس «يونَّاس»؟! لماذا تركت ونس النَّاس؟

- لأنغمس في ونس ربِّنا يسوع المسيح.

- لا نبحث يا مقدِّس عن ونس اللّه، إلا عندما تتعبنا الوحدة في الدُّنيا، ماذا عملت بِك الدُّنيا؟

نظر الرَّاهب «يوأنّس» في عيني «حجيزي»، كانتا متوهِّجتين، ويلمع فيهما القمر الصَّاعد، وكان فيهما شيء آخر دفع الرَّاهب لمحاولة الوقوف على قدميه كالملدوغ، وهو يهمهم بغضب: أنا المخطئ، سأظل لا أتعلم أبدا أنني مع «يسوع» أفضل جدًّا، وأنني مع البشر في خطر وحزن، أنا ذاهب إلى قلايتي.

«لابد الدُّنيا عملت به عملا مشينا، وإلَّا ما غضب هكذا، ماذا عملت بِك الدُّنيا يا مقدِّس؟!».

أصوات قدمي الرَّاهب فوق الصَّخور تخفت وهو يبتعد، بينما صوته يصل إلى أذني «حجيزي» واضحا، رغم ارتعاشة نبراته التي تؤكِّد أنه يبكي، كان يتوسَّل بإلحاح: يارب لا بغضبك تُبكِّتني، ولا بزجرك تؤدِّبني، ارحمني يارب فإني ضعيف، اشفني يارب فإن عظامي وهنت، ونفسي جزعت جدا.

عاد «حجيزي» إلى وحدته المستحكمة، بعد أن اختفى صوت الرَّاهب تماما، ليعاوده الإحساس بأنه يخوض مغامرة، مغامرة كبيرة، عليه في الصَّباح أن يبدِّل دينه.

«ما المشكلة؟ ربما دين هذا الرَّاهب هو الذي سيحل مشكلتي، سأتبع مسيحهم، وسأرى إن كان يمكنه حفظ جسدي بعد الموت أم لا! الرَّاهب

«يوحنا» هو الذي حفظ الماء في بئر الوعرة، ولو لم يقدِّم لي هذا المسيح ما أضمن به حفظ جسدي بعد الموت سأتركه».

شعر «حجيزي» بأنه يحتاج إلى كوب من الشَّاي الثَّقيل، ففتَّش في أمتعته عن الشَّاي والسُّكر، أخرجهما في كيسين من القماش الأبيض الذي حال لونه إلى الاصفرار، وذهب يجمع بعض الحطب، من تلك الشجيرات الصغيرة النابتة بين الصُّخور، القمر يضيء الصَّحراء، وكل ما حوله يبدو واضحا تماما.

«لماذا ينقبض قلبي هكذا؟».

بضعة طيور تتصايح، وهي تعبر في السَّماء القريبة، تبدو منزعجة، تمد رقابها، ورغم بُعدها عن «حجيزي» إلَّا أنه تخيل في عينيها نظرات قلقة.

«لابد أنها طيور تخلَّفت عن السِّرب الكبير».

«ستبدل دينك، ولا تريد لقلبك أن ينقبض؟! طوال عمرك أنت مسلم، تؤمن بإله عزَّ وجلَّ ليختفي خلف الغياهب والحجب، ثم في آخر عمرك، تؤمن بإله......».

..... وتجلَّى صوت «سعدون» السَّاخر، ممزوجا بشهقات ضاحكة: طالما يأكل ويشرب مثلنا، يبقى في بطنه خراء مثلنا، هؤلاء بهائم لا يعملون عقولهم يا حجيزي.

..... جمع الحطب، صبَّ من القربة ماء قليلا في «كوز» صفيحي صغير، وضع شايا وسكَّرا، ومزجهما بالماء، مستعملا قطعة من أغصان الشُّجيرات الجافة.

«يخرأ، أو لا يخرأ، أنا أعبد من يقدر على حل مشكلتي، أنا لا أريد أن أُدفن بعد موتى، أريد أن أبقى في هذه الحياة التي شاركت في صنعها، الذي عزَّ وجلَّ قال: المسلم يُدفن. ثم اختفى خلف الحُجب، الرَّاهب يونَّاس قال: المسيح قام من الأموات، وكل مسيحي يقوم من الأموات. الرَّاهب يونَّاس لا يقنعني، غير فاهم، لكن ربهم يضع الفكرة في رأسه، يحترم جسده، ويُحيِيه، ويهرب من قبره، رافضا الدَّفن».

أعمل «حجيزي» القدَّاحة في الحطب، انبثق اللهب من بين لسانيِّ الحديد، وتوغَّل داخل فراغات ما بين الأعواد الجافة، والتصق بها، لتتأجَّج النَّار، لكن ما إن وضع «كوز» الشَّاي عليها، حتى حدث ما هو عجيب، دفقة من هواء، كأنها خرجت من فتحتي أنف ناقة نافرة، ارتطمت بكومة الحطب المشتعلة، فأطفأتها.

لم يندهش «حجيزي» كثيرا، رغم أن هذه هي المرة الأولى في حياته التي تنطفئ نار أشعلها من غير ريح عاصفة، أو مطر غزير، بل لمجرد دفقة هواء ضالَّة في الأجواء، ولماذا يندهش أصلا؟ فكل ما حوله كان غريبا، جبل، أشجار، كهوف مغلقة على رهبان يشبهون أشباح الموتى، وفكرة اتِّباع دين النصارى، وطيور مهاجرة قريبة من الأرض.

أعمل «حجيزي» القدَّاحة في كومة الحطب مرَّة أخرى، ونبتت النِّيران بين الأغصان، وعندما تأجَّجت، وعلت ألسنة اللهب، وضع «حجيزي» «كوز» الشَّاي مرة أخرى داخل الكومة المشتعلة، لكن دفقة الهواء ارتطمت ثانية بالنَّار، فأطفأتها.

قبل أن يفكِّر «حجيزي» فيما يحدث، ضربت قلبه هذه الصَّرخة التي انسابت في صمت الصَّحراء، قادمة من ناحية أحد كهوف الجبل، صرخة حادَّة، رفيعة، ممتدَّة، ممتلئة بالهلع والرُّعب، فوقف شعر رأس «حجيزي»، حتى تخيَّل أن عمامته تتحرك ناحية السُّقوط إلى كتفيه.

ثم سمع عواءً ممتدًّا، عواء لا يخطئه أبدا، فنظر ناحية العواء، ووجده هناك، يقف على صخرة ناتئة بين الأشجار، يرفع رأسه ناحية القمر، فاتحا فكَّيه نصف فتحه، كأنه يبكي.

الذِّئب.

10

قَلبِي يَرعَى في مُرُوجِ البِنتِ

«أحبُّك يارب، فقوِّني، أنت أيها الرَّب ثباتي وملجأي».

دموع تنساب على وجنتيه، دافئة، وتائهة.

يضع كفَّه اليمنى على شق صدره الأيسر، ويعصر ثديه، يكاد يخلعه، كأنه يريد أن ينتزع قلبه، أو يقبض على جذوة مشتعلة فيه، فيفتِّتها ويطفئها.

«لا نبحث عن ونس اللّه، إلا عندما تتعبنا الوحدة في الدُّنيا، ماذا عملت بِك الدُّنيا يا مقدِّس يونَّاس؟».

«كنت نسيت ما فعلته الدُّنيا بي يا راعي الغنم، لماذا ذكَّرتني يا بدوي؟».

* * *

أحبُّك يارب، يا «يسوع»، وأنت تعرف «صبحي»، عبدك الذي غمرْتَه أيضا بمحبتك، «صبحي»، ابن القروي الفقير «فهيم» الإسكافي، الذي

سكن في نجع صغير، تابع لإحدى قرى مديريَّة «جرجا»، نجع «أبو ليلة»، الذي فيه كنيستك العتيقة، والتي تحيط بها بيوت المسلمين، فلا نستطيع توسعتها.

في يوم قلت لأبي: لماذا بنيتم الكنيسة بين بيوت المسلمين؟

فقال: المسلمون هم من بنوا بيوتهم حول كنيستنا.

كان أبي يومها يجلس على أكمة من ثرى دَكَّه الزَّمن، في أول حارة النَّصارى، حارتنا المفتوحة في نهايتها على الحقول البراح، يدق نعل حذاء مهترئ بالمسامير، توقف عن الدق، وأشار بسبَّابته ناحيته الكنيسة، التي حال لونها الأبيض إلى لا لون محدَّد، وسقطت مساحات واسعة من جير طلائها القديم، بينما بدا برجها الخالي من الجرس، مثل خيال مآتة، نُكت في قِمَّته صليب صدئ، سقط جناحه الأيمن، وقال: انظر لكنيستنا، وانظر لبيوتهم، كنيستنا قديمة، بناها أجداد الأجداد، وبيوتهم جديدة، كنيستنا الأصل، وبيوتهم طارئة.

قلت: كيف استطاعوا أن يبنوا بيوتهم حول كنيستنا؟

ابتسم أبي، وعاود دق المسامير في النعل، ثم أخذ نفسا عميقا، وقال: بنوا بيوتهم عندما فرَّطنا لهم في أراضينا، نحن يا ولدي من تسبَّبنا في هذا الوضع.

- لماذا لا نضع جرسا في برج كنيستنا، القسِّيس يقول إن لأبراج الكنائس أجراسًا.

- صليل الجرس يضايقهم، قالوا لنا: إنكم قليلو العدد، وكلكم تسكنون بجوار الكنيسة، ليس منكم من يسكن بعيدا حتى تنبهه الأجراس لمواعيد الصلاة.

- إنهم يكرهوننا يا أبي.

بدأ «فهيم» يخصف النعل بنصل حاد، قال: لو كانوا يكرهوننا ما أطفأوا النَّار التي كادت تأكل كل حارتنا، لولاهم لاحترقت أمُّك، وما خرجت أنت إلى هذه الحياة، المسلمون وقفوا معي في مآزق عديدة، لم يقف معي خلالها أعمامك المسيحيون.

- إذًا يكرهون «المسيح».

- «المسيح» في قرآنهم رسول كريم، يخلق مثلما يخلق اللّٰه، يعترفون أنه أتى من غير أب، وأن أمَّه العذراء بتول طاهرة، لو أراد لهم «يسوع» خيرا لفتح بصائر قلوبهم أكثر، وكانوا فهموا أن من ليس أباه الإنسان، لابد وأن يكون أبوه اللّٰه نفسه، إنهم يحبُّون «المسيح» على قدر فهمهم يا «صبحي».

«الحيرة بدت في عيني يا يسوع، أنت رأيتها ولا شك، كما رآها فهيم أبي، وألقيت في روع أبي أن يقول كلماته الغريبة: إنهم احتلوا بلادنا منذ زمن طويل، والمحتل يتكلم دائما بلسان القوة، ويعشق السَّطوة وفرض الإرادة».

- من الذي احتل بلادنا يا أبي؟!

«فهيم» هو الذي امتلأت عيناه هذه المرة بالدَّهشة، وهمس: ألم يخبركم القسيس أبدا عمَّن احتل بلادنا؟!

- لم أحضر كل دروس القسِّيس.

- المسلمون يا بني، المسلمون هم الغزاة المحتلُّون، صحيح هم لم يكرهوننا مثل أي غاز سابق، لكنهم أحبُّوا السَّطوة، وفرض الإرادة.

- من أخبرك بهذا يا أبي؟!

- السَّفر يا «صبحي»، البلاد كتب ضخمة، ومعاملة النَّاس أعظم دروس.

«ها أنت ترى يا يسوع، أنني نشأت أحمل همَّ كنيستك، مشغول بقضاياك، وكان يجب أن تضع بين يدي نورا أهتدي به، ولا تتركني لظلمات نفسي، فأتخبَّط في صخور حياتي، وأغرق في بحورها».

حزن أبي لما قرَّرت السَّفر، وقال لي: أول ما تسافر تسافر للرِّزق؟ السَّفر للأرزاق يطول يا ولدي، ولا يعرف الإنسان متى يعود منه إلى بيته وناسه.

لكنَّه فرح أيضا، وقال لي: الرِّجال هم من يسعون وراء أرزاقهم، أنت رجل يا «صبحي».

وقال لي: سافر إلى «أسيوط»، بلاد الرَّب المباركة، هناك أصل جذور عائلتنا، وهناك سيحفظك «المسيح».

«أنت الوحيد الذي تعرف السبب الحقيقي لمغادرتي القرية، الغضب يا يسوع، الغضب لأجلك، فما كان ممكنا أن أبقى في بلد لا تستطيع كنيستك أن تتَّسع فيه، ولا حتى أن تُطلى بطلاء جديد، ولا أن يَدُق فيها ناقوسك المبارك، حتى صليبك المكسور لا نستطيع إصلاحه، كما أنك يارب ترى شعبك القليل ذليلا فيها، لسنا أكثر من خدم للمسلمين، وزعوا أجدادنا وآباءنا على قبائلهم، صار شعبك عبيدا، ترى عيونهم مملوءة بسطوة السِّيادة، وترى عيوننا مملوءة بهوان الذُّل، أسمع أن عنايتك مسبوغة على شعبك في «أسيوط»، أسبغ عليَّ عنايتك يا يسوع».

ودَّعت أمِّي النَّائمة منذ زمن في فراشها تأكلها الأمراض، وكان الوداع الأول والأخير، وقتها نَظَرَت في عيني، نظرة طويلة، ثم تحوَّلت عيناها لتجول في كل وجهي، ونزلت إلى رقبتي، وإلى صدري، مدَّت يدها الشبيهة بغصن جاف متيبِّس، فمددت لها يدي، فَخمَشَتها، جذبتني لأجلس على حافَّة فراشها، فجلست، كان المكان معبأ برائحة المرض، الممزوجة برائحة الفقر، لا شمس تدخل هذا الخُن المسمى بيتا، الإضاءة تنسل من طاقة ضيِّقة اقتربت من السَّقف، أوان ملقاة هنا وهناك بغير عناية، ملابس مكوَّمة ومشتبكة ببعضها مثل أفاع وليدة، تمرح الصَّراصير فوقها، لا يمكن لآدميِّين العيش في مثل بيوتنا، لكن تعيش فيها الجرذان والثَّعالب، تألفها حيوانات الجحور.

فهمت نظرات أمِّي بعد ذلك بسنين طويلة، نظرات المودِّع، نظرات من لن يراك مرَّة أخرى، فيريد أن يحتفظ بكل التفاصيل، يتفحصّك،

ليذهل من كونه يرى ما لم يره من قبل، وأن من عاش معه العمر الطَّويل، لم يكن هو نفسه هذا الواقف أمامه في لحظة العمر الأخيرة.

* * *

علت صرخة الرَّاهب «برسوم»، تلك الصَّرخة الحادة، الممتدَّة، ثم عواء الذِّئب، انفتحت عينا الرَّاهب «يوأنَّس»، بعد أن خطفتها صرخة الرَّاهب، وعواء الذِّئب، من رؤية زمن غائم بعيد، إلى رؤية حاضر مرسوم بوضوح، فنهض واقفا على قدمين واهنتين، واتَّجه إلى فتحة الكهف، المغطَّاة بستارة من جلد الماعز، أزاحها، فتدفَّق نور القمر المكتمل إلى الدَّاخل، وانسابت معه نسمات باردة منعشة، وسطع النُّور أيضا على وجه «يوأنَّس»، فبدا قدِّيسا مهيبا.

تحرَّك إلى خارج المغارة، واستند إلى حاجز من صخور ناتئة، ونظر إلى أسفل، حيث الأشجار البادية في نور البدر، مثل قطع من عتمة تأبى المغادرة، كان الذِّئب مقعيا على الصَّخرة البارزة بين الأشجار، يرفع رأسه، ويعوي، وشبح «حجيزي» متصلِّبا، جالسا القرفصاء أمام خيط من دخان، يتصاعد ليتمزَّق ويتشتَّت بفعل الرِّيح الهادئة، التي تسرح في ليالي الصَّحراء السَّاكنة، كان شبح «حجيزي» ينظر ناحية الذِّئب.

دق قلبُ الرَّاهب «يوأنَّس»، وقلَّب وجهه في السَّماء السَّوداء المتلألئة بالنُّجوم، وقال لنفسه: توقعت يارب أن تسبغ نعمتك على راعي الغنم الضَّال، سُقه إلى حظيرتك بمحبَّتك.

قفز الذِّئب من فوق الصَّخرة، وخطا خطوات قليلة في اتِّجاه «حجيزي» الذي تحوَّل إلى صنم جالسا القرفصاء، توقف الذِّئب، ومطَّ رقبته وعوى، ثم بدأ يخطو مقتربا من «حجيزي»، خطوات قاتل يستعد للفتك، ناباه بارزان، ونار حمراء تطلع من عينيه الصَّفراوين، وكان «حجيزي» أيضا ينظر في عيني هذا القادم بالشَّر، ثم بدأ الذِّئب يتحرَّك حركة غريبة، يُميل رأسه مثل كلب يبدأ المؤالفة، ولتختفي من عينيه نظرة الافتراس!

وبدا أن «حجيزي» قد عادت الليونة إلى جسده، فها هو يحاول الوقوف، لكنَّه ثبت في قرفصائه لمَّا سمع زعيق الرَّاهب «يوأنَّس» يأتيه هادرا من فوق الجبل: اثبت مكانك يا «حجيزي»، وتقبَّل هدية الحَمَل الوديع، اقْبَل الذئب، يَقبَلك الخروف.

* * *

كان عمري لم يتجاوز الخمسة عشر عاما عندما عملت في محل المعلِّم «نظير تكلا»، سنِّي صغيرة عن تحمُّل متاعب الأرزاق، هشَّة عن حمل الهم، وأنا قروي غريب في مدينة «أسيوط» الواسعة، لكني رغم ذلك صرت أحسن حالا بكثير، صرت أمسك النِّكلة بيدي، وأرى التعريفة والقرش في يد المعلِّم، وهو يعد نقوده لأي سبب من الأسباب، ورأيت المعلِّم، رغم أنه نصراني مثل ناسي في نجع «أبو ليلة»، عزيزًا في مكانه، يُجالسه التُّجار المسلمون، يشربون الشَّاي ويضحكون، ويدخِّنون الجوزة فينفلت وقارهم، ويتكلَّمون عن النِّساء بكلام أفهم بعضه، ولا أفهم بعضه، لكنَّهم كانوا يقهقهون مثل المساطيل.

وعندما ينتهي العمل، أذهب إلى غرفتي على سطح العمارة التي يمتلكها المعلِّم «نظير»، ويسكن فيها أيضا.

الليل الكئيب، دائما الليل كئيب، في نجع «أبو ليلة» كئيب، وفي «أسيوط» كئيب، لأنه في «أسيوط» عندما أتمدَّد للنوم كنت أتذكر نجع «أبو ليلة».

ومرَّت الليالي السَّوداء يا سيِّدنا، ومع كل نكلة أدَّخرها يخف سوادها، ولمَّا صار معي خمسون قرشا عشت ليلة ولا كل الليالي، لم أر ظلاما، ولا أحسست بسواد، وإنما تراقص أمامي حلم كبير، أن أصبح صاحب محل «منيفاتورة» مثل المعلِّم «نظير تكلا»، وأكون قويا مثله، وأجلس في شارع السُّوق، أمام دكاني، معلِّما محترما بين المعلِّمين، نصارى ومسلمين.

وعندما صار معي جنيه ورق كامل، طار النَّوم من عيني، وأخذت أقلِّب الجنيه أمام اللمبة العويل، وأتأمل رسوماته، جَمَل واقف وجَمَل قاعد، وألوان حمراء فاتحة تحيط بهما، وكلام مكتوب لا أفهمه، أربعة جنيهات أخرى وأستطيع أن أنفرد بتجارة تخصُّني وحدي.

تعرف يا «حجيزي»، هذا الجنيه استنزف من عمري سنتين كاملتين كي أجمعه، عرفت هذا لأن طارقا طرق باب غرفتي هذه الليلة، وعندما فتحته، رأيت المعلِّم «نظير»، وبجانبه وقف أبي، الذي انهار باكيا، وأخذ يولول، وصوته يخرج مخنوقا، يقول: سنتان يا ابن الكلب! سنتان لا تسأل عن أب أو أم، طيِّب أمُّك ماتت يا «صبحي».

أمِّي ماتت، وما المشكلة في أن تموت أمِّي؟ عاشت لا تنفعني بشيء، ولا أنفعها بشيء، ما فائدة حي لا يفيد؟! ميِّت نافع أفضل.

- الميِّتون ينفعون يا مقدِّس «يونَّاس»؟!

- لو ورَّثونا نفعونا يا سيِّدنا.

أمِّي ورَّثتني الصَّلاة، كانت في الفارغة والمليانة تضم أطراف أصابعها إلى بعضهما، وتنقرهما نقرات متتالية على صدرها وجبهتها، تُصلِّب كثيرا، من غير أن تهمس بكلمة، كانت لا تعرف أي كلمة من الإنجيل، ولا تحفظ شيئا من كلام الصَّلوات، أقول لك، كانت لا تفهم حكاية «المسيح» الذي جاء إلى الدُّنيا من غير أب، لم تصدِّق هذا أبدا، وكانت تعتقد أن ستَّنا «مريم» تزوجت صاحبها «يوسف» النَّجار سرا، وأنجبت منه «المسيح».

لم يكن أبي يتحدَّث إليها كثيرا، تعرف أنت طبائع الرِّجال، خاصَّة في «الصَّعيد» القاسي، الصَّمت، والصَّمت في البيوت يقتل العِشرة، كان إذا تكلَّم معها ينهرها بسبب ضعف إيمانها، ويقول لها: ما فرقت عن المسلمين في شيء.

كانت أمُّي تعبد إله المسلمين من غير أن تدري، وكانت هناك صورة كالحة للمسيح مصلوبا، معلَّقة على الجدار، أبي يهتم كثيرا بأن ينظر إليها وهو يصلِّي ويدعو، لكن أمِّي تصلِّي وتدعو وهي رافعة وجهها للسَّماء.

وفي يوم نهرها أبي: متى تُقبل صلواتك وأنت لا تنظرين إلى صورة الرَّب «يسوع» المسيح؟

يومها قالت كلمة لم أفهمها، كانت غريبة، فبقيت لاصقة في عقلي، حتى فهمتها لمَّا وعيت، قالت: أنت تنظر يا «فهيم» إلى الصُّورة طول عمرك وما فهمت شيئا، أنا نظرت إليها مرَّة واحدة، وفهمت كل شيء، ها هو «المسيح» نفسه يا «فهيم» يرفع وجهه إلى السَّماء، وينادي أحدا فيها، من هذا الأحد إن لم يكن اللّه الكبير؟!

أمي ورَّثتني حبَّ الصَّلاة، وورَّثتني هذه الجملة التي قالتها لأبي، وفقط.

الجنيه الثاني جمعته لمَّا اكتمل من عمري عشرون عاما، ووضعت الجنيهين بجوار بعضهما، وأخذت أنظر إلى الجَمَلين الواقفين، والجَمَلين القاعدين، وأحلم باليوم الذي يكتمل لي فيه عشرة جِمَال واقفة وقاعدة، في هذه الليلة، فتحت البَّاب لما سمعت صوت طرقات خفيفة تصدر منه، ورأيت المعلِّم «نظير»، وبجواره وقف عمِّي «نعيم»، المعلِّم «نظير» تركنا، وعمِّي «نعيم» دخل غرفتي، وجلس على فرشتي المبسوطة على الأرض، وقال: خمس سنين لا تأتي البلد لتطمئن على ناسك، يا قلبك القاسي يا «صبحي»، طيِّب، أبوك مات هو الآخر.

أبي ورَّثني بيتا حقيرا، مثل جحر الثَّعلب، قال لي عمي «نعيم»: ارجع وافتح البيت، حرام يخرب.

قلت له: افتحه أنت يا عمِّي.

وأعطاني كيس نقود فيه خمسين قرشا فكَّة، وبصمت على مبايعة البيت له.

تعرف يا «حجيزي»، حزنت على أبي حزنا عميقا، حتى أني لم أفتح كيس النُّقود، رغم أن خمسين قرشا كاملة، ستوفِّر لي من عمري سنة على الأقل، لكن الوالد جِذر عفي في دنيا الرِّجال، وانقطع الجِذر.

سألت عمِّي قبل أن يمضي إن كانوا قد ركَّبوا ناقوسا في برج الكنيسة، فقال وهو يشوح بذراعه: الأول نصلح الصَّليب المكسور!

* * *

القمر يصب النُّور صبا، الرِّمال تقذفه متوهِّجا، النِّسمة عليلة، وقلب «حجيزي» يدق، دقَّاته تضج في الصَّحراء مثل طبل رتيب منزعج، وعيناه مثبتتان في عيني الذِّئب الخابيتين، الذِّئب الذي يقترب منه متسحِّبا، كان «حجيزي» قد عاد لجلسة القرفصاء لمَّا سمع زعيق الرَّاهب يوأنَّس، وهو يأمره بالسُّكون مكانه.

لكن ها هو الرَّاهب صوته يدوِّي من فوق الجبل: اجلس يا «حجيزي» اجلس على مؤخِّرتك، وارخ فخذيك.

تهلَّل صوت «يوأنَّس» عميقا، كأنه نازل من ملكوت السَّماء: سبِّحوا الرَّب تسبيحا، لأن الرَّب يصنع عجائب.

كان الذِّئب قد اقترب من «حجيزي» جدا، فلم يكن أمامه غير أن يخضع للأمر، فجلس، بينما رأسه بكامل انتباهته يصوِّب نظراته نحو هذا المتقدِّم صامتا، نحو صناعة العجيبة.

خيطا دخان واهنان يتصاعدان من كومة النَّار المطفأة، وثلاثة طيور أطلق أحدها صياحا، وهي تمرق نحو الشَّمال فوق الشَّجرات المتراصَّة، وليس بين الذِّئب و«حجيزي» أيَّة مسافات، حتى أن «حجيزي» بدأ يحرِّك رأسه إلى الوراء ببطء، وفجأة، الذِّئب أقعى مثل كلب.

وبينما الرَّاهب «يوأنَّس» يهبط في المدق الضيِّق بين صخور الجبل، مسرعا بحول عجوز، متساندا على عصاه التي ليست أكثر من جذع شجرة رفيع ويابس، أراح الذِّئب رأسه على فخذ «حجيزي» المرتعش.

رأى «يوأنَّس» تمام المعجزة، فزعق وهو يهبط: سبِّحوا الرَّب في الأعالي، الحي الذي ما توقَّف عن إعطائنا المعجزات، يا «مرقس»، يا «برسوم»، أخرجوا من كهوفكم وانظروا صنيعة الرَّب، يا «حنَّا»، تعال متِّع قلبك بمعجزة «يسوع».

كان الرُّهبان يطلّون من قلاليهم الصَّخرية، الكهوف، وينحدرون ببطء نحو الرَّاهب «يوأنَّس»، الذي يقترب من «حجيزي» والذِّئب، وهو يزعق بصوت يتهدَّج بالبكاء: يا «شنوده»، يا «متَّى»، تعاليا مجِّدا «المسيح» الحي.

وعندما اقترب «يوأنَّس» من «حجيزي» ألقى عصاه، وانكب يقبِّل رأسه، وهو لا يتوقَّف عن الكلام، قَبِلت الذِّئب يا «حجيزي» فَقَبِلَك الحَمَل، لن نعمِّدك بالماء، فأنت تعمَّدت بيد «المسيح» نفسه، تعمدت بمعجزة.

بلّلت دموع «يوأنّس» عمامة «حجيزي»، و«حجيزي» صامت مدووش، والتف حوله الرُّهبان بلحاهم الكثّة المشعثة، وشعور رؤوسهم المتنافرة، كأنهم أشباح، صعدت أصواتهم الهادئة، يترنّمون كأنهم يغنّون: هالولويا. هالولويا. من هؤلاء الطّائرون كسحاب، وكالحمام إلى بيوتها.

قال «يوأنّس» لـ«حجيزي»: الأرض يرثُها الودعاء يا وديع.

همس «حجيزي» بصوت متحشرج: هذا ذئب أم كلب؟!

ابتسم «يوأنّس»، ومسح عينيه من الدُّموع، وقال: سؤال ما يسأله بدوي أبدا يا قس «وديع».

نظر «حجيزي» في وجه الرَّاهب «يوأنّس»، لم يكن باستطاعته أن يندهش أكثر، كان قد بلغ قمّة الاندهاش عندما وضع الذِّئب رأسه على فخذه.

قال «يوأنّس»: ما يجب أن يُقال لك الآن يا «حجيزي»، ولكن يا سيِّدنا.

همس «حجيزي» بصوته المتحشرج: لكن أنا ما عرفت إجابة الشَّرط، ما عرفت كيف لا أدفن بعد أن أموت!

رفع «يوأنّس» وجهه إلى صفحة القمر البرّاقة، الذي مال نحو الغرب، وقال: أنا هو القيامة والحياة، من آمن بي ولو مات فسيحيا.

ثم نظر إلى «حجيزي»، بوجه ملأه السُّرور إلى الغاية، وقال بصوت يكاد يرقص: فكيف و«المسيح» بنفسه قد آمن بك!

* * *

المعلِّم «نظير» تعب من مرض «السُّكر»، وطاف في أواخر أيامه على المستشفيات والعيادات، في «أسيوط»، وفي «مصر»، حتى أطبَّاء الجيش الإنجليزي، فلم ينفعه طب ولا دواء، وكنت أنا الذي أدير المحل، طوال فترة غيابه في رحلات البحث عن علاج، وفي ليلة طرق باب غرفتي طارق، قلبي ارتجف، لا أحد في العادة يطرق باب غرفتي، تمر الأشهر وباب غرفتي صامت، والمرَّات القليلة التي حدث فيها غير ذلك، كانت مربوطة بموت أحد ما، موته يوجع قلبي.

فتحت الباب، كانت السِّت «جميلة» زوجة المعلِّم «نظير»، قالت بأعصاب هادئة، عمَّك «نظير» يموت، وطلب أن يكلِّمك.

لما دخلت من باب الشقَّة، رأيت «سيرين» فأحسست بضربة في قلبي، وشعرت بروحي تحترق، كانت «سيرين» تقف حزينة، ودموعها تجري ولا تقف، لم يكن المعلِّم «نظير» يسمح لها بالمجيء إلى المحل أبدا، يقول: السُّوق مليئة بالرعاع والأوباش.

ولم أكن رأيتها في كل هذه السِّنين سوى مرَّة واحدة، لمَّا كان عمرها فوق العشر سنوات بقليل، الآن عمرها ستَّة عشر عاما أو سبعة عشرة، وفاضحة الجمال، ودموعها غسلت وجهها بحسن فتَّان، وغمزت لها السِّت «جميلة» بعينين عابستين، فاختفت في حجرة جانبية، لكنَّها سطعت في قلبي.

كان المعلِّم «نظير» غاطسا في فراشه، ولولا رأسه المنحوت على الوسادة المحشوَّة بالحرير ما رأيته، أغلقت السِّت الباب من الدَّاخل، ووَقَفَت تنظر إلينا.

دعتني عيناه للاقتراب، فجلست بجواره، ولصقت أذني بفمه، لم تكن أنفاسه لها العزم الذي أعرفه، لما كان يقهقه في جلسات الأنس مع أصدقائه التُّجار أمام المحل، كانت أنفاسه ميتة.

همس: لي خمسة من الإخوة، ولك خمس سنين معي، هل رأيت منهم واحدا؟

هززت رأسي بالنَّفي.

قال: كتبت كل ما أملكه لـ«سيرين» وأمِّها، لكن المحل ستديره أنت، المحل يا «صبحي» لا يذهب بعيدا، ووقت أن تفكِّر «سيرين» في بيعه، اشتره أنت.

وعندما ابتعدت برأسي عنه، همس: اقترب.

اقتربت، فقال: إياك و«سيرين»، «سيرين» بنت «نظيم تكلا»، من أكبر تجار المانيفاتورة في «أسيوط»، مدينة «المسيح» المباركة، لكن أنت مهما فعلت ستظل ابن «فهيم» الإسكافي، القادم من نجع في إحدى قرى مديرية «جرجا»، لا تدق فيه أجراس الكنائس.

ارتجف قلبي، ودار رأسي، وزحفت يده العجفاء، وامتدت إلى التَّسريحة نحو جنيه أحمر، فيه جَمَلان، أحدهما واقف، والآخر رابض، قرَّبه منِّي، وهمس: خذ هذا الجنيه، واحفظ الوصيَّة.

صعدت إلى غرفتي، وفي نور اللمبة «العويل» رأيت أن المعلَّم «نظير» قد وجَّه لي لكمة وعرة، كأن الرَّجل كان كاشفا لحلمي طوال الوقت، لكنِّي يا معلِّم «نظير» لم أحلم يوما بـ«سيرين»، فلماذا تحذِّرني من التفكير فيها، ولماذا قلت لي الآن ما لم تقله لي يوما أبدا، الكلام الذي يذكِّرني بأنني ابن صرماتي حقير؟

رصصت الجنيهات الثلاثة، وأخذت أتأمل الجِمَال السِّتة، لماذا لا يقوم الجَمَل النَّاخخ أبدا؟!

تعالت طرقات خفيفة سريعة على الباب، لابد المعلِّم «نظير» قد مات، ولمَّا فتحت الباب، طالعني وجه «سيرين» متلألئا بدموعه، فسقط قلبي يا سيِّدنا في هوَّة حبها.

«أنت إنسان يا يسوع، لكنَّك إله وابن إله، لا يغويك جمال النِّساء، ولا عطورهن، ولا هذا الشُّعاع الذي ينبثق من قلوبهن ليقيِّد قلوبنا، دعكت المجدليَّة قدميك بعطرها، وما تحركت فيك ذرَّة حب، ولا ذرَّة عشق، لكن مَن مِن الرِّجال يمكنه أن يفلت من غواية عيني سيرين، وأنا شاب فائر، يحمل بين ضلوعه قلبا غشيما، لم تصقله من قبل تجربة، وأنت يارب في الأعالي، تضع النِّساء في طريقنا، والحبَّ في أرواحنا».

في الصَّباح جهَّزنا المعلَّم «نظير» للدَّفن، ووضعناه في تابوت لونه بني، يلمع خشبه مثل مرآة، ثم دفعنا بالتَّابوت إلى داخل عربة مزوَّقة بالمذهَّب، يجرها حصانان، وتَثبَّت في سطحها العلوي من أمام ملاكان من خشب، ومن الخلف أيضا، ومشى أمامها صفان من رجال يلبسون

بذلات كاكية متشابهة، مثل عساكر الإنجليز، وينفخون في أبواق نحاسية كبيرة، فيصدر منها عويل رهيب.

أمشي في الجنازة، لا أرى عربة حمل الموتى، ولا التَّابوت الذي تسجَّى فيه جثمان المعلم، وإنَّما كنت أرى جسد "سيرين» المحشو حياة معبأ في ملابس سوداء، يتساند من فرط الحزن على أكتاف نسوة مشفقات، وكنت أرى روح المعلِّم تحلِّق فوق رأسي، وتهمس بصوتها الميِّت: اِحْذَر.

تعرف يا سيِّدنا، ربما لو لم يحذِّرني المعلِّم «نظير» من التفكير في «سيرين» لما فكَّرت فيها، ولما كانت المأساة، ولما كنت الآن هنا، أحكي معك وحولنا كل هذا الخواء.

تعرف، ربما لو لم يحذِّر اللّه أبينا «آدم» من أكل ثمار هذه الشَّجرة الملعونة، ربما لو لم يخلق له «حواء»، ربما لو لم يَجمع عليه غوايتي «احذر» و «حواء»، لما كانت كل هذه البشرية تعاني في هذه الأرض القاسية، التي لا تعطيك شيئا إلا وتأخذ مقابله جزءا من عمرك معجونا بالآلام، مسكين «آدم»، يلومونه في الكنائس والأديرة على خطيئته، وأبسط منها يقعون فيها بكل يسر، ثم يكرِّرون قصة النَّفي.

اللّه نفى «آدم» من الجنَّة إلى الأرض، ونحن ننفي أنفسنا من ونس الدُّنيا إلى وحشة الصحراء.

وأنا واحد من ملايين البشر الذين قُدِّر عليهم أن يكونوا أبطال نفس الرِّواية، حاصرتني غوايتا «احذر» و«سيرين»، المعلِّم «نظير» قال لي: احذر أن تأكل من هذه الشَّجرة، إن أكلت منها موتا تموت.

لكن «سيرين» قالت: كل من هذه الشجرة تحيا يا مغفَّل.

لن أكون أبدأ أكثر إيمانا من «آدم»، الذي خلقه اللّه بيديه، أكلت مثله.

ما أن انقضى أسبوع العزاء، وفتحت الدكَّان، حتى وجدت «سيرين» تدخل، فستانها أسود، ووجهها أبيض مخضَّب بلون الورد، وشعرها حرير ذهبي يسيح خلف رقبتها، كل هذا الجمال امتزج بمرح طفولي آسر، من يستطيع أن يربط قلبه عن الرَّعي في مروج بنت مثل «سيرين»؟! لا أحد، و«المسيح» الحي لا أحد، و«المسيح» الحي يعرف هذا.

أنا ارتبكت، قالت: صباح الخير يا «صبحي».

يااااه، كم هو اسمي جميل، «صبحي»، كل النَّاس نادت عليّ، وقالت «صبحي»، لكن صوتها كشف لي ما لم أكن مكتشفه من قبل، إن في اسمي معنى الصَّباح، وإن في روحي ضياء.

جلست على الكرسي، وقالت: يا «صبحي» اعمل لي شايا.

وعملت لها الشَّاي، وقدَّمته لها، وأخذته مني وهي تنظر في عيني، كانت مبتسمة، ومن غير كلام كانت تقول لي: لماذا أنت مرتبك هكذا.

وأنا مرتبك من دخولها المفاجئ إلى عالمي، ومرتبك من نظرات أصحاب المحلَّات والعمَّال، التي ترقب ما يحدث بتعجُّب، أعرف أفكارهم التي دارت في رؤوسهم، البنت ما إن مات أبوها حتى بدأت تمشي على حل شعرها، وجاءت إلى الدَّكان لتجلس بشعرها المنساب بين الرِّجال والشباب.

وكنت مرتبكا من أجل شيء آخر، هذه الرُّوح القلقلة التي أراها تحوِّم حول رأسي، تذكِّرني بحفظ الوصيَّة، وألَّا اقترب من «سيرين».

أنا لم أقترب أبدا، هي التي اقتربت، حتى التصقت بي.. لم أقترب أبدا، لكنِّي كنت مستعدا للالتصاق بها، بل والانصهار فيها.

في ليلة، جاءتني، دخلت غرفتي بعد أن فتحت الباب، لم يكن لها مطلب، فقط تريد دخول غرفتي، جلستَ على حافة السَّرير، نسيت أقول لك يا سيِّدنا إنني اشتريت سريرًا، المهم، قالت وهي تهز رأسها: يا «صبحي» اعمل لي شايا.

قلت لها: الست «جميلة»....

قطعت كلامي، وقالت: أعطيتها قرصا مهدئا، ستنام حتى الصباح مثل الميِّتة.

قلت: الست «جميلة» تتعاطى مهدئات؟!

بدا الضِّيق النَّاتج عن ضجر، يرفرف في سماء وجهها الصافي، قالت: منذ الليلة ستتعاطاها.

قلت: لماذا؟!

كان وشيش الوابور خافتا، لكنه ملأ غرفتي بحالة من التوتُّر، وكنت أضع عيني في الكنكة، أراقب الشَّاي، الذي لمَّا يبدأ في الغليان، سيفور منسكبا على النَّار المتدفِّقة.

قالت: أريد أن آخذ راحتي، أريد أن أجلس من غير أن يضغط القلق على روحي، كفاني ما أُصبت به من كبسة أبي على نفسي.

فار الشاي، وارتفعت طبقة كثيفة منه تريد الانسكاب، فرفعت الكنكة من على النَّار قبل هذا الغليان.

قلت: كان خائفا عليك.

قالت: كان خائفا على نفسه، لمَّا كان يعرف أنني تأخرت يوما عن ميعاد عودتي من المدرسة إلى البيت، يترك المحل ويأتي ليضربني، ليس له ولد ولا بنت سواي، ورغم ذلك كان يضربني ضربا بشعا، ويزعق: تريدين أن تأتي لنا بالعار!

كان خائفا من العار يا «صبحي».

بعد أن أدرت مفتاح نَفَس الوابور، خرج الهواء المكبوت في قلب فنطاسه الصغير ليمتزج بهواء الغرفة، فانطفأت النَّار، وخمد وشيشها.

قالت: وأمِّي صارت مثله، تخاف من العار اللابد في جسمي.

صببت الشَّاي في الكوب الوحيد الذي أمتلكه، الكوب الذي أخذته من نجع «أبو ليلة»، كان الكوب الوحيد من زجاج في بيتنا، ولم يكن

ضروريا لي أن أشتري أكوابًا أخرى، فليس لي ضيوف أقدم لهم شايا في أكواب.

وعندما رفعت وجهي، مادًّا يدي بكوب الشَّاي إليها، رأيت ما لم أتخيَّل أبدا أن أراه، أعجب منظر، أعجب حتى من منظر الذِّئب وهو يضع رأسه مطمئنا على فخذك، أو على فخذ الرَّاهب «بولس».

كانت «سيرين» تفتح بلوزتها، ملابسها العلوية، لتكشف عن صدرها.

«يا يسوع ارحمني، أنت دعوت الآب ألَّا يضعك في التجربة، فلماذا تضعني فيها؟»

كنت قد نسيت «المسيح» طوال السِّنين التي مضت، مع أن «أسيوط» هي بلاده المباركة، لكن «أسيوط» هي أيضا بلاد القرش والتعريفة، تعريفة تضعها على تعريفة تصيران قرشا، والقرش على القرش بمرور الأيام يصيران جنيها، وقعدتي مع المعلِّم «نظير» علمتني أن «الجنيه» قوَّة عظمى، والتُّجار المسلمين صاحبوا المعلم «نظير» من أجل الجنيه، لا من أجل «المسيح»، النَّصارى في نجع «أبو ليلة» جيوبهم خاوية إلا من «المسيح»، فلم يُغر «المسيح» المسلمين بالجلوس مع شعبه هناك، الجنيه أقوى من «المسيح»، فانشغلت به عنه، ولم أكن مخطئا، فأي غبي في هذه الدُّنيا يمكن أن يهتم بالأضعف؟!

كان باب غرفتي مفتوحا حتى هذا الوقت، فقامت «سيرين» وأغلقته، كنت جالسا على كرسي خشبي واطئ أمام عدَّة الشَّاي، وكوب الشَّاي

ما زال في يدي الممدودة، وقلبي يضرب ضلوعي، لماذا تفتح «سيرين» صدرها وتغلق الباب؟!

اضَّطَجَعَت على السرير نصف اضطجاعة، متَّكئة على كوعها، أخذت مني كوب الشَّاي، وصدرها العاري يتوهج بحمرة أشعَّة النُّور الطَّالع من فتيل اللمبة «العويل»، آه يا خطيئتي، وحق «المسيح» بلواي أشق وأصعب من بلوى «آدم»، هو فتنته شجرة، ثمرة ممنوعة، طعام أكل، لكن أنا فتنتي «سيرين»، شجرة ملآنة بكل أنواع الثِّمار، شجرة حيَّة، لها عينان شبقتان، تقولان «أقبل وكل أيها الجائع»، و«المسيح» الحي بلواي أوعر من بلوى «آدم».

قالت: «بابا» كان يدخل غرفة نومه، فكانت «ماما» تدخلني غرفتي، تطفئ أضواء الشَّقة، إلَّا من لمبة وحيدة أمام الحَّمام، ثم أسمع باب غرفة أبي ينغلق برفق، وأحس بوحدة قاتلة تحوطني، ولولا صورة ستِّنا «مريم» العذراء، الملتصقة بالجدار المقابل لي، كنت مت من الخوف.

في ليلة قلت لـ«ماما»: لماذا تنامين في غرفة بابا، ولا تنامين معي؟! هو كبير لا يخاف، وأنا صغيرة، وأخاف.

ضحكت، وقالت: الكبار ينامون مع الكبار يا «سيرين».

قلت لها: لكنَّك تأكلين معي، وتقعدين معي طوال النَّهار، فلماذا تتركيني عندما يأتي الليل؟

رشفت «سيرين» من كوب الشاي رشفة هامسة، وابتسمت، ودارت برأسها تنظر إلى جدران حجرتي، ثم قالت: لولا أني أعرف إنك مسيحي

لظننتك مسلما، ولا صورة للمسيح، أو ستّنا «أم النُّور»، أو الملائكة التي تقبض بأياديها على الرِّماح، ولا حتى صورة قدِّيس واحدة!؟

قلت لها: غطِّي صدرك العاري يا «سيرين»، «المسيح» لمَّا يكون في القلب أفضل.

كانت فرصة لكي أُظهر تديُّني، ومحاولة دفاع في مواجهة هجوم غوايتها، لكنَّها لم تغط صدرها، بل لَوَت شفتيها بنصف ابتسامة ماكرة، وهزَّت ثدييها، فارتفعا ليظهر نصفهما.

«اغفر لي يارب كلامي الآثم الذي أقوله الآن، لكن أقوله كي يعرف هذا الشَّيخ ماذا فعلت بي الدُّنيا، وليعرف أني، رغم كل ما جرى، ما جئت إلى هذه الصَّحراء ملوَّثا بإثم».

رشفت «سيرين» رشفة شاي أخرى، وكركرت بضحكة فاتنة، وقالت: أمِّي ارتبكت ولم تُجبني، لكنَّها زعقت: صدَّعت رأسي يا «سيرين»، كلامك كثير، اسكتي.

قالت: سكتُّ، لكنِّي تكلَّمت مع صديقتي «روزا»، قلت لها: «بابا» و«ماما» يتركاني ليلا، ويدخلان حجرتهما، ويغلقان بابها.

فقالت لي «روزا»: مثل «بابا» و«ماما» أيضا، لكن أنا عرفت لماذا «بابا» و«ماما» يغلقان الباب، إنهما يتشاجران، تسلَّلت مرَّة من غرفتي، واقتربت من باب حجرتهما، وسمعت «ماما» تئن، وسمعت «بابا» يتأوَّه، إنهما يتشاجران كل ليلة يا «سيرين»، مع إنهما طوال النَّهار يكونان مثل «سمن» على «عسل»!

كان عمري ست سنوات، وكنت أحب «ماما» جدا، وكنت أحب «بابا» أيضا، لكن «ماما» طول عمرها حنونة، تقبِّلني كثيرا، وتشتكي لي أحيانا من جفوة «بابا»، كانت تصعب عليَّ لمَّا أراها راكعة أمام صورة «المسيح»، وتشتكي له همومها، كلام «روزا» جعلني أفكر في أن «بابا» ربما يضربها ليلا.

في هذه الليلة تسحَّبت من فراشي، مشيت في الطُّرقة المعتمة، حتى اقتربت من باب غرفتهما، هناك صمت، وكنت أشعر بخوف، أحس أني اعمل شيئا خاطئا، لكنِّي اطمأننت على «ماما»، وعندما استدرت منسحبة، انبثق صوت أمِّي بتأوُّه خاطف، توقَّفت مكاني، لكن الصَّمت كان قد حلَّ مرة أخرى، ليحل في قلبي رعب، كانت صورة الشهيد «مار جرجس» الرَّاكب على فرسه، وقابضا على حربة، يرشق سنَّها في قلب التنِّين، معلَّقة على الجدار المقابل للطُّرقة، صورة كبيرة، وظلال الضَّوء القادم من اللمبة الوحيدة المضاءة عند الحمام، تسقط شاحبة عليها، أحسست بالتنِّين يتحرَّك، يحاول الاعتدال من استلقائه تحت سيقان الفَرَس، الفزع شلَّني، و«مار جرجس» يرفع الحربة ويغزُّها مرَّة ثانية بكل قسوة في قلب التنِّين، يبِّستني حربة الشَّهيد، فوقفت مرعوبة، لترتفع تأوُّهات أمِّي متتالية، كأن سكِّينا تمزقها، رجَّني الهلع، فاستدرت، وانكببت على باب غرفتها، وأدرت الأكرة، فانفتح الباب، لأرى في ضوء اللمبة السهَّاري الخافتة أغرب مشهد.

11

يَا دِينُ «محمَّد»

- أنا رأيت هذا الجيش يا «حجيزي».

- الجيش الفارسي؟!

- نعم.

- الجيش الفارسي مازال في «مصر»؟!

- نعم، مازال في مصر، مدفونا بكامله تحت الرِّمال، هنا، في صحرائنا.

..... في صمت الصَّحراء، وبعد أن انسحب «الغرد» القاتل، لم يكن مسموعا لي غير ثلاثة أصوات، تَنَفُّس النَّاقة، ولهاث الكلب، ودقَّات قلبي، غير أن صوتا آخر بدأت أسمعه، ضعيفا، هامسا، مثل طنين نحلة بعيدة، لم التفت للأمر، رغم أن نحلة تبقى لتطن بعد هذا «الغرد» الماحق، هو شيء يلفت الانتباه، لكنِّي بدأت أنتبه لمَّا علا الصَّوت قليلا، لأسمع صهيل خيول تتقدم من أفق لا أستطيع تحديده.

هببت واقفا، وأمل مرتعش تدفق فجأة إلى روحي، هذه خيول تصهل، لابد على صهواتها رجال، ووجود رجال الآن يعني العودة إلى الحياة من بعد موت.

لكن الأمل خفت فجأة، ربما هذه الخيول تمضي من أفق إلى أفق، من غير أن تعبر هنا.

لم يكن هناك مفر من الصِّياح، حتى وأنا متيقِّن من أن صهيل الخيول لن يسمح لركَّابها بسماع صياحي، لكن ليس أمامي شيء غير الصِّياح.

- ياعرب، ياااااا عرب، يا عراااااااب.

عاد الأمل يتدفَّق إلى روحي، فالصَّهيل يعلو، وهذا يعني أن الخيول تقترب، وبدا في نور القمر، فيض رمادي ينساب قادما من بعيد، فيض يملأ مسافة كبيرة من الأفق!

ونسيت فجأة أنني بين الحياة والموت، لأسأل نفسي مندهشا: كل هذه أفراس؟!

وسمعت صيحات متقطِّعة، صيحات رجال يملؤهم العزم، لابد أنهم يُحفِّزون خيولهم، كنت أسمع قهقهات أيضا، لكن بطء حركة الفيض كان يؤكد أن الخيول لا تركض، وإنما تمشي مشيا حثيثا.

كان الفيض الرمادي يتضخَّم مثل سحابة تنساب على الرِّمال، ولونه الرَّمادي يتحول إلى سواد، ومع صهيل الخيول، وحمحمتها، وأصوات الرِّجال، سطعت أصوات نسائية تتكلَّم وتضحك، ضحك نساء لم أسمع

مثله من قبل، واللّه يا «حجيزي» نساؤنا ضحكهن عويلا، الواحدة منهن تضحك وهي خجلة، فتكتم الضَّحكة قبل أن تأخذ راحتها، وتستوي بهجتها، الضَّحك الذي سمعته قادمًا في هذا السَّواد المنسكب تجاهي، ضحك آخذ راحته، منطلقا هاربا من الخجل والحياء، ضحك حر.

كل ما يحدث كان غريبا جدا، وفكَّرت، ربما يكون ما أراه هو قبيلة من قبائل الغجر تمشي في طريق التِّرحال الدَّائم.

لكن حتى قبائل الغجر لا تصنع كل هذا الصَّخب في ترحالها، كما أني لا أعرف قبيلة غجرية واحدة ممكن أن تبلغ في كبرها حجما يسد الأفق هكذا.

اعتدل الكلب ناصبا ساقيه، بينما أقعى على فخذيه، وتشنَّجت أذناه، وبرق القمر في عينيه، ونبح.

حتى قبائلنا العربية الأصيلة توقَّفت عن التِّرحال، وإذا قرَّر أحد بطونها الرَّحيل، علمت بهذا كل القبائل من قبل تحرُّكه، كما أن قبائلنا تتنقَّل في الصَّحاري بِصمت يتنافى مع مثل هذا الضَّجيج، ثم أين هذه القبيلة التي إذا تحرَّكت سدَّت الأفق؟!

ظهرت ملامح الخيول، وهياكل الأجساد التي تمتطيها، أفراس ضخمة، ورجال كأنهم العماليق، ثم طوفان من جِمَال فوقها الهوادج تتمايل، وبشر يسيح مثل النَّمل، وكانوا يتصايحون بكلام كأنه رطن الإنجليز، كلام غير مفهوم أبدا.

وفي لحظة خاطفة، كان كل هذا يجتاحني، الرِّجال يرتدون الحديد، السِّيوف في أغمادها المعلَّقة بجنوبهم، الهوادج تهتز فوق أسنمة النُّوق، تكاد تسقط على رأسي، وغرقت في بحر من كائنات تتحرَّك إلى اتجاه واحد، ثم اصطدمت بي هذه المرأة، «جاله»، وكانت تجر بغلا.

ماذا أقول لك يا «حجيزي» عن «جاله»؟! أقول: كل حريمنا ضعهن في كومة، و«جاله» ضعها في كومة وحدها.

لمَّا صدمتني بكتفها، نظرت لي بعينيها، فنظرت فيهما، فنسيت ما أنا فيه، ولمَّا الزِّيادة كانت ابتسامة انسطلتُ، فما شعرت بها وهي تمسك يدي، ولا شعرت بها وهي تعتلي البغل، وتركبه بالمقلوب، ثم تجذبني لأعتليه، فيصير وجهي مقابلا لوجه أجمل الحسناوات، «جاله».

«جاله» لها عينان، ما هما بعيني بقرة، ولا بعيني غزالة، ولا هما الليل، «جاله» عيناها أيام وليالي، وشجن ضاحك، وغنج رصين، وسعادة الحزن، ما أعرف كيف يكون هذا؟! لكنه كان.

ولها وجه يا «حجيزي»، لا تقل لي بدرا منيرا، ولا رغيفا طازجا، «جاله» لها وجه يرتع في جمال ما رأيت له مثيلًا أبدا.

ضحكت في وجهي، ورطنت، وبسطت كفَّها على صدرها، وقالت: «جاله».

وغرست طرف سبَّابتها بين ثدييَّ، وهزَّت رأسها، كأنها تسألني عن اسمي، فقلت: «غنيمة».

أحاطت بكفَّيها جانبَي وجهي، فسرت رعدة في جلد جسمي كله، كانت البسمة تملأ وجهها، رطنت هامسة، ما فهمت شيئا من رطنها، لكنَّها مالت برأسها ناحية رأسي، وقبَّلتني.

«جاله» جسمها لدن، مليان ومربرب، وبشرتها حمراء، نور البدر يلمع فيها، وشفتاها طريَّتان، لكنهما أكلتا شفتَي، وضغطت على فَكَّي ففتحتهما، لتتلقَّف لساني، وتمصُّه، حتى كادت تقلعه من جذوره، هذه قُبلة «جاله» التي ضعضعت أعصابي، وجعلت دمي يجري هادرا في عروق مستسلمة، ليشتد الضَّعيف، وينتصب المرخيُّ.

الحمحمة، والصَّهيل، وتصايح العساكر، وغناء فارس تستشعر في بحَّة صوته أحزان الغريب، وثغاء النُّوق، وأنا ما عدت أنا، لمَّا أحاطت «جاله» رقبتي بذراعها، تأكل شفتي، وبيدها الأخرى تقبض على الذي انتصب، وتدلكه.

شيء موضوع في أجسادنا يا «حجيزي»، إذا استفزَّته النِّساء، طيَّرونا لنعود إلى الجنَّة، ونساؤنا ما يعرفن الذي فينا، «جاله» تعرفه، واستفزَّته، فَطِرت، غبت عمَّا هو حولي، إلا «جاله» التي كانت تطير محلِّقة، وملتصقة بي، تدفع أجنحتي، فأعلو.

«جاله» هاجت مثل جَمَل غاضب، فضغطت بكل جسدها عليّ، لأستلقي إلى الوراء، وتركبني، والبغل يرجُّ جسدينا، فيتحرَّكان متماوجين مثل لساني لهب، تداعبهما نسمة.

كانت تصهر جسدي كلَّه، بجسدها كلِّه، كأنها تريد أن تدخلني فيها، أو تدخل فيّ، وكنت أغيب وأفتح عيني، فأرى شعرها الذَّهبي يتراقص تحت منديل موشًّى بزروع خضراء.

وكعادة «الغرد»، يهاجم بقوة، وبسرعة خاطفة، هجم كالبرق، فرأيت منديل رأسها يطير، وشعرها ينسكب مفرودا في اتِّجاه الرِّيح مثل نار، لكن «جاله» لم تنتبه، كانت منهمكة في التهامي، وأسنانها تكاد تقطع صدغي، لكن أنا أعرف «الغرد»، وأعرف أنه قادم لنا بالدَّفن تحت الرِّمال، فحاولت أن أدفعها عني، لكنَّها صارت قطعة مني لا يمكن نزعها.

وضرب «الغرد» ضربته العاتية، ليقلعنا من فوق البغل، ويلقى بنا فوق الرِّمال، فانفلتت «جاله» مني، وجلبابها الواسع المعقود حول وسطها بحزام قماش يرفرف كأجنحة الطُّيور، كان الرِّجال يحاولون إناخة النُّوق، والنِّساء تصرخ من الرُّعب، وضاع صهيل الخيول في عزيف الرِّيح الجبَّارة.

انفك نظام الجيش الفارسي، كنت أرى المخاليق تحاول الجري نحو النِّياق والخيول والبغال، انتزعت الهوادج من فوق أسنمة الجِمَال، وطارت في الهواء مثل عُلب الصَّفيح، لتخبط النَّاس وهي تسقط، كان هناك من يحاول التَّشبث خلف هذه الهوادج، وأخرج الكثير منهم سيوفهم، وغرسوها في الرِّمال، وحاولوا التَّعلق بها، غرسوا الرِّماح أيضا.

أمسكت بجسد «جاله»، احتضنتها، واحتضنتني، كانت تبرطم في هلع، صوتها خافت مستغيث، كان كل منا يحاول التشبُّث بالآخر، ركلتنا الأقدام الفزعة، لكن دحرجتنا الرِّيح، ليبدأ بعدها أسوأ ما في الأمر، بدايات الدَّفن.

رمال خفيفة، مقذوفة، تضرب الجلد مثل رؤوس حراب من نار، وتملأ العيون باللهب، «الغرد» يُخضع المخاليق بهذه الرِّمال السَّفيفة، يُعجزها عن الحركة لمَّا يضطرها إلى غلق العيون، فتستسلم راغمة إلى السُّكون، والسُّكون في «الغرد» يعني الموت، ولا شيء آخر.

بهت ضوء القمر النَّاصع، وصرنا كأننا في سحابة شاحبة أيضا من دخان، ولم أعد أرى سوى قباب ظهور الحيوانات، وأكوام من النَّاس ملقاة حولها من غير حركة، وصياح الرِّجال المرتعب يختلط بعويل النِّساء، لتطيِّر العاصفة هذا المزيج من الأصوات البائسة إلى البعيد.

والتصقت بـ«جاله» أكثر وأكثر، كانت بوَّابات الرِّمال قد انفتحت في السَّماء، فبدأت تنصبُّ صبًّا، لتستسلم كل الأجساد تماما للرَّدم، سمعت حشرجات «جاله» تخرق أذنَي، كنت أواجه الموت أيضا، وما كان بمقدوري فعل شيء غير التمني على اللّه في علاه أن ينهي كل شيء بسرعة، ومن غير عذاب طويل.

وفعلا، أظلمت الدنيا فجأة، ولم أشعر بأي شيء.

* * *

انتهى «سليم» من نحت التمثال، دارت الأطفال الرُّعاة حوله، ودارت «سكيرة» تنظر إليه مبهورة، تسأل نفسها: كيف استطاع «سليم» عمل هذا؟!

كانت تنظر إلى نفسها، التمثال يشبهها تماما، هي نفسها، لكنها مقدودة من حجر، حجر دبَّت فيه الحياة، يضحك، ويشم وردة.

«سليم» يمعن النَّظر في عينيها المذهولتين، فيرى فيهما إعجابا يركض، فيشف وجهه بابتسامة خجولة.

يصرخ «سلمان»: دي «سكيرة»!

حتى لكأن الغنم أعجبها التمثال، إذ أنها تركت الرَّعي، وأخذت تتكاثر حول الأطفال، الذين كانوا ينقِّلون أبصارهم بين «سكيرة» والتمثال بأفواه مشدوهة.

لم تكن «سكيرة» تظن أنها جميلة هكذا، ولا رقيقة هكذا، وتمنَّت لو أن بيدها الآن وردة، لتشمَّها مثلما يفعل تمثالها الجميل.

- زين، حلو.

- أعجبك؟!

طأطأت رأسها، ونظرت إلى الرِّمال، وهو أيضا.

* * *

النَّاقتان تمضيان على نفس النَّغم الرَّتيب، كأنَّهما خُلقتا لصنع الرَّتابة والملل، يهتز جذع «حجيزي» على الأولى، وجذع «بكير» يهتز على الثَّانية.

اختفت «الوعرة» تماما، بينما أطلَّت من الأفق قمم الصَّخرات الأربع الشَّاهقة، تلك التي تحيط بجبَّانة الموتى، تلك التي تشبه المومياوات الفاتحة أفواهها، تريد ابتلاع السَّماء.

بدا «حجيزي» وكأنه يريد أن يبتلع بعينيه كل المشاهد، فكل ما يراه الآن لن يراه مرَّة أخرى، انقضت فرص الحياة، وتمَّت الخسارة.

«متى بدأت خسارتك يا حجيزي؟»

«بدأت منذ بدأت تفتِّش، لا يعيش الحياة من يقضي أوقاتها في التفتيش، ثم إن «شديد» أباك علمك التفتيش في أخطر صندوق، جسم الإنسان، ومن يعلم سر صنعة الإنسان، يكرهه».

..... عندما قرَّر أهالي «الوعرة» بناء «ميضأة» للمسجد، بدأوا يحفرون لها أساساتها، وفي لحظة صاح أحدهم: أعوذ باللّه، يا دين «محمد»! تعالوا انظروا.

تكوَّم النَّاس فوق الحَفر، ونظروا باندهاش وفزع لرأس حصان يتكشَّف تحت الرِّمال، رأس حصان بلحمه الطَّري، محاط بسيور لجام من الجلد، ولمَّا سحب أحدهم جفن عينه جحظت مثل الزُّجاج، وأخذ النَّاس في سحب الرِّمال، لتتكشَّف رقبته، وشعر عُرفه، ثم صدره وساقاه

الأماميتان، كان النَّاس يهلِّلون وهم يضربون أكفَّهم ببعضها، وعيونهم حائرة من العجب، يعلمون أن «الوعرة» واحة عمرها مئات السِّنين، هل يُعقل أن يبقى حصان ميِّت، مدفونا في الرِّمال مئات السِّنين، كما هو؟! لا تتهرَّأ من لحمه أدنى قطعة، ولا تنبعث منه شمَّة عفن؟!

اتسعت الحفرة، وأخذ النَّاس يسحبون الرَّمل أكثر وأكثر، كان «شديد» أكثرهم حماسا، يزيح الرِّمال بيديه وكله لهفة، كمن وجد كنزا، لم يكن مندهشا بقدر ما كان فرحا، كل أهل «الوعرة» يعرفون عشقه وغرامه بالجثث، يأخذها، ويشق بطونها، ويحنِّطها، ويرصّها في حجرات بيته، فتبدو وكأنَّها حيَّة، حتى يأتي بعض الرُّهبان بصحبة إنجليز أو فرنساويين ويشترون محنَّطاته هذه؟

زاد هياج النَّاس لمَّا تكشَّفت لهم قدم إنسان، قدم كاملة في كامل بهائها، تلبس حذاء جلديا خفيفا أحاطها بسيور سميكة، وتفجَّرت طاقة أهل «الوعرة»، والتف الأطفال حول الرِّجال، وتسرَّبوا من بين سيقانهم، ليطلُّوا برؤوسهم ناحية النَّاس في باطن الأرض، وقد مالوا على شيء لا يرونه، ويرفعون الرِّمال في الغُلقان، كان «حجيزي» يطل هو الآخر باحثا عن أبيه «شديد».

استلزم استخراج جثَّة الفارس وحصانه نهارا كاملا، كان «شديد» حريصا على عدم تمزُّق الجثَّتين، بحكم خبرته يعلم أنهما ليستا بالقوة التي تبديان عليها، وإنهما عند أقل حركة غير مدروسة من الممكن أن تنهارا مثل جرف.

وعلى ضوء المشاعل بدأ الرِّجال والأطفال التفرس في ما يرونه من عجيبة، حتى النِّساء تلصَّصن للفرجة على الفارس الذي بزغ من تحت أرض المسجد، ميتا مع فرسه منذ مئات السِّنين، لكنه كامل البهاء تماما، مثل فرسه.

الفارس ملابسه غريبة تماما، لا تشبه ملابس أهل «الوعرة»، ملابسه قصيرة، وثقيلة، تغطَّى أغلبها بصفائح حديدية مصطفة بإحكام، أخذت شكل ريش طائر ضخم، وتحصَّن رأسه بخوذة من نحاس أصفر برَّاق، فخبَّأت كل وجهه، ما عدا عينيه المسبلتين، ولحيته السوداء القصيرة، ورقبته الغليظة.

كان الفرس مستلقيًا على الأرض، بجواره الفارس، بديا تحت أنوار المشاعل المهتزَّة ضخمين، وعندما حاول أحد الرِّجال نفض الرِّمال عن فخذ الفرس، زعق «شديد»: لا أحد يلمسه، الشَّعر سيتساقط من مكانه، ويتشوَّه منظره، أنا سأتصرَّف.

كان «حجيزي» وقتها صغيرا، ينظر بعيني طفل إلى كل هذا، ولم يكن يفهم حجم المعجزة، بقدر ما كان أبوه يفهم هذا.

ساعد أهل «الوعرة» «شديد» في نقل الجثَّتين إلى بيته، كان الأمر أصعب مما يتخيَّل الجميع، احتاج مفروشات وأقمشة وأخشابًا، وتسوية أرض، وتجهيز عجلات صغيرة، وزمنا ومجهودا امتدًّا حتى أذان الفجر.

غرفة التَّحنيط باردة، واسعة، لا نوافذ فيها غير طاقة ضيِّقة جدا قرب السَّقف، ينسل منها ضوء النَّهار خافتا، كان الفارس قد وُضِع على المنضدة الكبيرة المقامة في وسط الغرفة، والفرس مقلوب على ظهره في أحد جوانبها، وقد بسطت تحته سجَّادة كبيرة من «الحلفاء» الجافَّة تغطَّت بقماش سميك.

لم ير «حجيزي» أباه، في يوم من الأيام، سعيدا كل هذه السعادة، كان يتهيَّأ لعمله وفي عينيه فرحة رصينة، كانت هذه المرَّة الأولى التي سيحنِّط فيها جسدا آدميا.

كما أنها كانت المرَّة الأولى التي يرى فيها أباه، وهو يخلع كل هدومه، ولا يُبقي على جسده غير سرواله الدَّاخلي الطَّويل.

كان الأمر مخيفا لـ«حجيزي»، وظهر ذلك الخوف في عينيه، وسأل أباه لأول مرة هذا السُّؤال، لماذا تحنِّط الجثث في هذه الغرفة المظلمة، لماذا لا توقد مصباحا يضيؤها؟!

كان «شديد» قد أمسك بمشرط طويل النَّصل ورفيع، وبدأ يقطع به من أسفل الجسد المسجَّى، عندما توقَّف فجأة، وأخذ يتأمَّل هذا الجسد المستكين، الإعجاب يتنطَّط في عينَي «شديد»، همس: هذا يا «حجيزي» فارس شاب، لا يزيد عمره عن خمسة وعشرين سنة، جسده في أوجِّ اكتماله، انظر لعضلاته، مازالت منتفخة وصلبة، جسد مثل هذا كنت أظن أنه سيكون أكثر تهرُّؤا بعد دفن استمر لمئات السِّنين، لكنَّه مازال وكأنه مات بالأمس.

سكت «شديد» قليلا، ثم قال مبتسما: كأنه لم يمت أبدا، كأنه نائم.

- تسأل سؤالك يا «حجيزي» يا ولدي، ماذا تريد أن تعرف؟ هل تريد معرفة سر الصَّنعة، أم تريد معرفة سر حكمتها؟!

- أنا أريد يا «شديد» معرفة لماذا نعمل هذا العمل في غرفة مظلمة وباردة؟

- أنت إذًا تريد معرفة سر الصَّنعة، لكن ليس بماهر من لا يعرف سر حكمة صنعته أيضا، وأنت يا «حجيزي» ولدي الذي خرجت به من الدُّنيا، تَعَلَّم سر هذه الصَّنعة مني، واعلم سرَّ حكمتها.

وبينما يسحب يده من جوف جسد الفارس، قال «شديد»: قرِّب الطَّست.

زحزح «حجيزي» الطَّست النُّحاسي الكبير، حتى صار أسفل «شديد»، الذي رفع كلتا يديه وقد قبضتا على أحشاء الفارس كاملة، ليلقى بها في الطَّست.

أغرقت الأحشاء حوافَّ الطَّست بالدِّماء، أخذ «شديد» يقلِّبها بيده، ويتأملها، القلب، الرئتان تحيطان به مثل جناحين، قصبة الغضاريف التي بينهما، المصارين، المعدة، رفع «شديد» وجهه، ونظر في عينَي «حجيزي» المرتعبتين، ابتسم بسمة فيها حزن، وقال: أحشاء مثل أحشاء خروف، أو أحشاء جَمَل.

طأطأ «شديد» رأسه ناحية الأحشاء، وأخذ شهيقا، فبدا الامتعاض على وجهه، قَلَب شفتيه، وقال: بل إنَّها أكثر عفنا.

أخذ يعصر ليمونا كثيرا، قال: إذا فارقت الأرواح الأجساد بردت، والبارد تفتته الحرارة، إذا اضطررت لعدم دفن الميِّت، فلا بد من أن تضعه في مكان بارد، وإلا تفتَّت وتعفَّن، والنُّور حرارة يا «حجيزي»، لو تركناه يدخل الحجرة سيسخِّنها، وإذا سارع الجسد نحو الفساد، ضاق أمامنا الوقت اللازم لتحنيطه، هذا يا ولدي سر الصَّنعة.

رفع الماجور المملوء بعصير الليمون، ودلقه داخل تجويف الجسد المسجَّى، أدخل يده وأخذ يدعك بحذر وببطء، همس همسا معجبا: صدر الإنسان من الدَّاخل يختلف يا «حجيزي»، رحب وواسع!

كان يتحسس جوانبه منبهرا، همس: بناؤه عجيب!

ثم أخذ «شديد» يجفِّف الجوف بقطن ناعم بإتقان، وبعد أن انتهى، حشي الجوف كله بكمية كبيرة من الملح، ثم أمسك بحديدة صغيرة مبططة الحواف، واتجه إلى الرأس، ليقلع عينيها.

كان الصَّمت يعم المكان، كأن الوقت ليس نهارا يضج بالحركة، وكأن «الوعرة» كبس عليها سكون عجيب، لا أصوات ناس ولا بهائم ولا طيور، ولا حتى شقشقة عصفور شريد، فكان همس «شديد» متجلِّيا: الموت لا يتفق مع الحياة، كمَّا لا يتفق النُّور مع الظُّلمة، كما لا تتفق برودة مع حرارة، إذا أردت أن تحنِّط جثَّة ميِّتة، فافعل ذلك بعيدا عن مظاهر

الحياة، لو أنك وضعت جثّة داخل الثّلج، وتركت بجوارها نورا، ستفسد مع مرور الزّمن، الحياة لا تقبل الموت، هذا يا ولدي سر الحكمة.

يتذكّر «حجيزي» أنه فجأة سأل والده: لماذا لم تحنّط أمي يا «شديد»؟

ويتذكر «حجيزي» أن «شديد» صمت طويلا قبل أن يجيبه، كان منهمكا تماما في قلع العين.

* * *

اقتربت الصَّخرات الأربع العملاقة، المُحدِّدة لجبّانة موتى سكان «الوعرة»، وها هو المدق المؤدِّي إليها يتفرَّع عن المدق الأصلي المؤدِّي إلى «موط».

فوجئ «بكير» بناقة «حجيزي» تنحرف إلى مدق «الجبانة»، فهتف: يا «حجيزي»!

لم يجب «حجيزي» على هتاف «بكير»، واستمرت النَّاقة تمضي في طريقها، فلم يجد «بكير» بدًّا من متابعة أبيه.

هنا، بالضَّبط، سقط «سعدون» مغشيًا عليه، فحمله الرِّجال على أكتافهم، تتقدَّمهم جنازة «جميل» وأمّه «بثينة».

تتقدم النَّاقتان نحو «الجبَّانة»، ونور الشَّمس المتَّجه للمغارب يتوهَّج على الجانب الأيمن منها، ليرتمي ظِلَّاهما وظِلَّا راكبيهما طويلين على الرِّمال، يتراقصان على آكام صغيرة مثل أمواج نهر.

هنا نسي «سعداني» أن ابنه «صالح» ميِّت على ذراعيه، فحاول أن يحمله على كتفيه، ليدلدل رجليه حول رقبته.

من هنا عبر كل الأموات، فوق أكتاف الأحياء، يحملونهم إلى قبور، يحفرونها بعيدا بعيدا، يدفنونهم فيها، ويتركونهم ليأكلهم النِّسيان، الحياة يا «حجيزي» أمكر من الثَّعالب، تنتصر على الموت دائما بحجة أن رائحته عفنة، وأنت يا «حجيزي» تحمل الآن على كتفيك آمال كل البشر القادمين من المستقبل، في ألَّا يدفنوا بعد موتهم، ويبقون على ظهر الحياة، يمارسونها بوضعهم الجديد.

«أنا الميِّت الوحيد الذي يعبر إلى هذه الجبَّانة على هذا المدق، ثم يعود منها عبره أيضا، وهذه أولى بشائر النَّصر في معركتي الطَّويلة».

تعبر النَّاقتان بجوار الصخرة البحرية من الغرب مثل حشرتي نمل تنسابان بجوار رجل فارع الطول، وتتجلَّى مشاهد القبور المتناثرة في مساحة واسعة بين الأربع صخرات، أكوام من رمل تعلوها أحجار مختلفة الأحجام.

«لا كرامة للموتى في هذا الزَّمن، الفراعنة كانوا يهتمُّون بموتاهم، يبنون لهم غرفا واسعة تحت الأرض، ويضعون لهم فوق قبورهم أحجارا ضخمة مزوَّقة بصور منحوتة».

- أنا رأيت هذه المقبرة يا «غنيمة» بجوار «موط».

- كانت الدُّنيا رائقة في أيامهم يا «حجيزي»، وأوقاتهم فضاء، الدُّنيا في أيامنا مشحونة مشاغل، ولن نضيِّع الوقت في الاهتمام بالموتى.

- الشَّيخ «مزيد» يقول إن القبر يتحوَّل إلى قطعة من الجنَّة للصالحين، ويكون متَّسعا.

- يكون أوسع من «الوعرة».

- هذا كلام يضحكون به على الموتى يا «غنيمة»، ويريحون به ضمائرهم، الحقيقة أن الحياة صارت مغرية لدرجة أنهم لا يصبرون على بناء قبور تليق بأحبائهم الموتى.

- أستغفر اللّٰه العظيم.

وقفت النَّاقتان على قبر «سعدون»، قبر جديد بالكاد يتم يومه الأوَّل، مازالت آثار المياه بادية على الرِّمال، وأقدام النَّاس مطبوعة بالصَّمت، وكان يلتصق بقبر قديم، قبر «زليخة».

ها هو قبر «غنيمة»، قريب من قبر «سعدون»، وجديد أيضا، بالكاد انقضى على بنائه أربعة أيام.

أناخ «حجيزي» ناقته، فأناخ «بكير» ناقته، ظلُّ الصَّخرة القبليَّة من ناحية الغرب ينشر العتمة في المكان، وتنتشر الرَّهبة بانتشار مئات من ظلال شواهد القبور.

البئر «المُرَّة» محاطة بجدار واطئ يلتف حولها، ومقبض جلب الماء الخشبي تصلَّب ساكنا أسفل غُراب وقف عليه، ينكت بمنقاره تحت جناحيه.

تقدم «حجيزي» بخطوات وئيدة نحو قبر «سعدون»، وتوقَّف قبالة النَّاحية المقابلة لقدميه، تحشرج صوته وهو يقول: السَّلام عليكم يا «سعدون».

كانت عيناه تنضحان دمعا، وكان ينظر إلى قبر «غنيمة» وهو يهمس: «غنيمة» لمَّا مات تركنا اثنين، نتعاون على الحزن، لكن أنت يا ابن الكلب تتركني لمن؟

مسح مخاط أنفه في كم قميصه، وقال: الحمد للّٰه، باقي لي يومان فقط.

رفع «حجيزي» صوته، دون أن ينظر في عيني «بكير»: اعمل لنا شايا.

وتأمَّل قليلا قبر «سعدون» الملتصق بقبر «زليخة»، ثم ذهل «بكير» وهو يرى «حجيزي» يميل بأذنه ناحية قبر «سعدون»، ويقول: أنا أسمعك يا «سعدون»، قُل.

– أنت تريد ألَّا تُدفن في قبر، وأنا يا «حجيزي» أحلم لو يدفنوني في قبر واحد مع «زليخة»، ما أقدر أتخيَّل الحياة من غيرها، وما أقدر أتخيَّل الموت من غيرها، تعرف يا «حجيزي»، أنا أفكر في عمل غرفة تحت

الرِّمال في «الجبَّانة»، مثل غرفة المساخيط التي في «موط»، تكون لي ولـ«زليخة»، نعيش الموت أنا وهي سويا.

- ولماذا غرفة تحت الأرض يا «سعدون»، خذ غرفة من غرف البيت، وأنا أحنِّطكما، واجلسا فيها سويا.

- سيكون منظرنا مثل عفاريت مخيفة يا «حجيزي»، وسيتفرَّج علينا النَّاس، ولن نأخذ راحتنا، قبر تحت الرِّمال مثل غرفة أفضل.

..... كانت «زليخة» من تلك النَّوعية من النِّسوة اللائي لا يعشن مع أزواجهن زوجات وفقط، ولكن أمَّهات أيضا، لم يخدعها أن «سعدون» عاش معها السِّنين الطويلة التي لا تعرف عددها يضحك، ولا يتحدَّث معها أبدا عن عدم الخلفة، هي نفسها تتعذَّب لأنها لم تربِّ طفلا لها في هذه الحياة، حتى تتذوَّق طعم الأمومة الفيَّاضة المكبوتة في أعماقها السَّحيقة، مثل ماء بئر استعصى على الشُّرب، فما بال الرَّجل «سعدون»، الذي يعني الولد له أبوَّة وفخرا وعزا؟!

كانا يركبان على سطح عربة نقل قضت مدَّة خدمتها ضمن عربات الجيش الإنجليزي، ثم تكهَّنت وباعوها في مزاد ليشتريها النَّاس، ويتنقَّلون بها.

العربة ترتج على الطَّريق الرَّملي الصَّعب، ما بين «الخارجة» و«موط»، هناك أناس آخرون من أهالي الصَّحاري يركبون معهم، فلم يستطع «سعدون» أن يأخذ «زليخة» في حضنه ويواسيها.

كانا عائدين من «أسيوط» يحملان قفَّة كبيرة مملوءة بالحزن وخيبة الأمل، لقد قال الأطبَّاء إن «زليخة» لن تنجب، و«سعدون» فيه بذرة عيال، لكنَّها ضعيفة.

وفي «موط» حطَّها في هودجها، وأمسك برسن النَّاقة، وشدَّها إلى الدَّرب الذي يبدو دائما بلا نهاية، ضاربا في الغرب، على لُجج الرِّمال.

وعندما رأى أنهما قد انعزلا في الصَّحراء، قال رافعا صوته: رأسك صلب مثل الصُّخور يا «زليخة»، قلت لك نكتفي بما قالته «بهيجة» و«صدُّوق» العرَّاف، لكن لابد تتعبينا.

فلمَّا لم يسمع لها صوتا، علَّى ضحكة إلى السَّماء، وقال: لكن أنا أقدر على الخلفة.

فقالت بسرعة البرق: أنت بذرتك ضعيفة يا «سعدون».

سكت «سعدون» لحظة، ثم انطلق يقهقه، وقال: أنا بذرتي ضعيفة، هذا طبيب حمار ابن كلب، لا يعرف شيئا.

عندما وصلا إلى شجرة البرتقال، التي تبزغ في هذه الصَّحراء المديدة شجرة وحيدة، يرتاح تحتها المسافرون، كان الليل قد وصل أيضا، فحمد «سعدون» اللّه أنهما قد وصلا إلى هذه الشَّجرة، فالمبيت في الصَّحراء تحت ظلٍّ خير من المبيت في الطَّل.

أناخ النَّاقة، وعندما همَّت «زليخة» بالخروج من الهودج، زعق «سعدون»: اصبري.

تقدم ناحيتها، ثم وقف يتأمل وجهها، وسرح، فنظرت في عينيه مندهشة، وقالت: مالك يا «سعدون».

قال: أتذكر ليلة الفرح يا «زليخة»، وقتما أنزلتك من الهودج المزيَّن بالشرائط الحريرية الملوَّنة، كنت مغطَّاة الوجه بالطَّرحة البيضاء، وكان نفسي أرى وجهك في هذه اللحظة، كان نفسي أرى وجهك وأنت تنزلين من الهودج ويدك في يدي، هات يدك يا حبيبة قلبي.

رفعت «زليخة» حاجبيها، وابتسمت، وقالت: الدُّنيا ليل، لن ترى وجهي في الظَّلام.

قال: وجهك يا «زليخة» بدر نوَّار، أراه الآن بكل تفاصيله.

أنزلها من الهودج، وضمَّها في حضنه، فبكت، وهمست: أطبَّاء «أسيوط» ذبحوني يا «سعدون».

وهو يجلسها على الصُّوفة التي فرشها على الرِّمال، ملاصقة لجذع شجرة البرتقال، قال: أطبَّاء «أسيوط» بهائم، وأنا الآن سأجعلك تحبلين.

ضحكت ضحكة تحيي الأموات، وقالت ساخرة: يا رجل لِمْ ليلتك، ما قدرت تعملها في سنين، تعملها الليلة؟!

وهو يحيط بذراعه رقبتها، ويضغط عليها لتستلقي، قال: أنا كل ليلة أركبك يا بنت النَّاس، وأسقي أرضك، لكن أرضك ما تنبت زرع.

ضربت الكلمة قلبها، فضربت كتفه بقبضة يدها، وقالت: أنت بذورك ضعيفة، لا تنبت في أسخى أرض.

لسعت الكلمة روحه، فسحب ذراعه من حول رقبتها، وأعطاها ظهره، وسكت.

كانت حبَّات برتقال ملقاة وقد أحاط بها سفيف الرَّمل حتى منتصفها، وبدت داكنة بسبب ظلمة سماء تبرق فيها النُّجوم.

أحسَّت ببرد الشِّتاء الصَّحراوي المصاحب للَّيل، ولفَّت ذراعها حول رقبة «سعدون» وجذبته، فارتمى رأسه في حجرها، وسقطت على جبهته قطرات دموع دافئة، وهمست «زليخة»: قُطع لساني قبل أن أقول لك هذه الكلمة.

اعتدل «سعدون»، التقط برتقالة مغروسة في الرَّمل، وقدَّمها إليها، وقال: كلي هذه البرتقالة، لتغيِّر رائحة فمك العفن، حتى أستطيع أن أقبِّلُك.

واستلقى على قفاه يضحك، بينما هي تزغده بقبضتي يديها.

هَمسَت: الطَّريق!

قال: أين الطَّريق؟ ليس هنا إلا صحراء واسعة، ولا ظل يبدو في الأفق لمرتحل.

همست: النَّاقة ترانا.

قال: هيا بنا خلف الهودج.

عمل «سعدون» في هذه الليلة العجب، وكان أول ما عمله، أن قال لها: أنا سأجعلك تحبلين وتلدين الآن.

فهاجت مكامن «زليخة».

التقم شفتيها، وأخذ يمصَّهما، ويده تزيح أغطية رأسها، وتفك عقيصة شعرها لينسال كالحرير، وتسيخ أعصابها، وتهيج مكامنها.

ذهب برد الصَّحراء عندما بدأت نار المعاشرة تتأجَّج، وكانت شفتا «سعدون» تأكلان لحم رقبتها، ويده تفك أربطة ملابسها، وفتحت «زليخة» عينيها بعد جهد، فرأت حبَّات البرتقال معلَّقة بأغصان الشَّجرة تشتعل بالحمرة، فأغلقتهما.

من فتحة الصَّدر الواسعة بزغ نهد مضيء مثل عجينة الخبز، وكان «سعدون» جائعا من أثر الرِّحلة المجهدة، فأكل طويلا، حتى أن «زليخة» لم يعد لها وجود، ويده على بطنها، وأصبعه الوسطي تدور حول حواف السُّرة، ثم تنغرس في عمقها، لتمتص رحيق الحياة.

عندما أنَّت «زليخة» أنينا طويلا، رغت النَّاقة، فأفاقت «زليخة»، وأرادت أن تعتدل، خوفا من أن تكون النَّاقة قد رأت قادما على الدَّرب، فضغط عليها «سعدون»، وهمس بصوت ملتاث: النَّاقة سمعت أنينك فضبعت تطلب الذَّكر.

انسدحت «زليخة» على الصُّوفة مرَّة أخرى، ونغجت: مسكينة النَّاقة.

وضع «سعدون» شفتيه على حلمة أذن «زليخة» وقال: صَعُب عليك حال النَّاقة؟!

كان يرضع حلمة أذنها، فهمست بصوت بعيد حالم: مسكينة النَّاقة.

أخذ «سعدون» يدها المستسلمة، وسحبها حتى رمحه الملتهب بين ساقيه فقبضت عليه، قال بصوت محموم: ما تقولين في رمحي؟

شهقت شهقة خاطفة، وقالت بصوتها البعيد: طويل يا «سعدون» أطول من كل مرة، ونار.

همس في أذنها: لا يصعُب عليك حال النَّاقة، رمحي يكفيك ويكفيها.

همست: أمُّك ما ربَّتك يا قليل الأدب.

وكانت ستقول شيئا، لولا أنه قبض بيده على كأسها المملوءة شهوة وجمر، فخطفت صرخة مائعة.

قبض على الكأس قبضا محكما، وأدخل أصبعه فيه يقلِّب الجمر، والجمر يلسع قلب «زليخة» فتتأوه، ثم أخذ يلسع كل جلدها فبدأت ترتعش.

ونبت من الشَّرق بدر ضخم، عندما ألقى بنوره الأحمر على «سعدون» الواقف ينزع هدومه بلهفة، بدا جنِّيا نحاسيا، يؤدِّي رقصة متشنِّجة فوق جنِّية عارية تماما، ارتمت مرتعشة في ركوة من جحيم.

ارتمي عليها مصابا بالسُّعار، فأخذ يعض كل قطعة من جسدها الفائر، وعندما وصل إلى الكامن يغلي بين قمعين من سكَّر، اهتبره بأسنانه وشفتيه ولسانه، فنشبت أصابعها في صدغيه، وصاحت بانكسار: ما عملت هذا من قبل يا مفتري، حرام على أمِّك.

صعد إلى أعلى، ومرَّر ذراعيه من تحت إبطيها، ليبسط كفَّيه تحت رأسها، ويغرق أصابعه في موج شعرها، وألقى برأسه في جوار رأسها، يزفر بأنفاس محمومة، ويمرر رمحه بين ضفتي مجرى الحمم دون أن يولجه فيه، فتهمس «زليخة» بصوت باك معذب: حرام عليك يا ولد عمي، ما أصعُب عليك؟! أدخله تبرد ناري.

همس في أذنها بصوت ملجلج فرحان: ما قلتِ مثل هذا الكلام من قبل يا شرموطة.

تاهت وقالت: مسكينة النَّاقة.

وفجأة انبثق ساقاها يضربان في السَّماء، قمعا سكَّر، وربلتان فاجرتان، يرجّهما زلزال، وتفح «زليخة» مثل أفعى أصابها هوس: أدخله، أدخله.

صارت طائر عقاب يطير إلى ذرى الفرح والسَّعادة، وركب «سعدون» ظهره، يحكم قيادته.

غمس رأس رمحه في نبع الحمم، فهيَّج المتَّقد، وتأوَّهت «زليخة» آهة ممدودة متوسِّلة، وهمست ترجوه: أدخله كله يا «سعدون»، ما تترك منه شيئا للنَّاقة، أنا أحبك يا زوجي.

- تحبين رمحي.

- أموت في رمحك.

- وأنا أموت في كأسك.

- وكأسي يموت في رمحك.

غرس رمحه كله في نبع النِّيران، متوهِّج في متأجِّج، لتنغلق بصائر الأرواح أمام برق تبلَّج، فغرست أصابعها في ظهره، تضمُّه إليها، وخرج من أعمق منطقة في حنجرتها صوت مشوي: رمحك وصل إلى قلبي يا «سعدون»، نِكني بقوة يا حبيب روح «زليخة».

الرَّفث هيَّج «سعدون» فحمى وطيسه، فأخذ يدكها دكًّا، وصوت ارتطام اللحم باللحم صافيا في سكون الصَّحراء، مثل ضربات قرون تيسين ينتطحان، وانسطلت «زليخة»، وسكر «سعدون»، وأربدت النَّاقة ورغت، وهي تسمع فجأة شخرة «زليخة» المهولة وهي تهوى من شاهق، شخرة متقطِّعة لإنسان يفطس، و«سعدون» انتصب جنِّيا نحاسيا، يخور خوارا متمزِّقا، ليكون بعد ذلك سكونًا، سكونًا يتراقص برغاء النَّاقة التي جُنَّت.

12

مِكحَلة لعَينَين لَا تَكتَحِلان

«حجيزي» و«سعدون» و«غنيمة» يدورون حول تمثال «سكيرة» وأنفاسهم منبهرة، شمس الظَّهيرة تخترق كبد السَّماء بكامل ألقها، فينزل نورها عموديا على هذا الصَّنم، فلا يجعل له ظلا، وإنما كل تفصيلة فيه مغمورة بالضِّياء الوهَّاج، وساطعة.

الأغنام اضطجعت في الظِّلال الضيِّقة للصُّخور المائلة وأشجار الصَّحراء الصَّغيرة، تجتر، وتنظر حولها بعيون ناعسة.

همس «غنيمة»: «سليم» هذا جن ابن عفاريت!

قال «سعدون»: عمل «سكيرة» بنت «رسلان» بشحمها ولحمها من الحجر!

فقال «حجيزي»: كأن البنت محنَّطة.

قطب «غنيمة» وجهه، وقال: أعوذ بالله يا أخي! الجثث المحنَّطة مريعة، وهذا تمثال كله حلاوة، لو يعمل لي الولد تمثالًا مثل هذا، انظرا للبنت كيف تشم الوردة!؟

قال «سعدون» وهو يتحسَّس بكفِّه الصَّدغ الحجري: ما يـعمل هذا الجمال الفائق غير الحب يا «غنيمة»، أنت وجهك عكر ما يُحَب.

ضحك «غنيمة» ضحكته التي يشبه صوتها صوت أحجار تتساقط: «سليم» يحبُّني يا بارد.

شوح «سعدون» بذراعه، وهو يتَّجه إلى ظل إحدى الصُّخور القريبة: حب البنات شيء يختلف، يعمل عجائب.

جلسوا في ظل الصَّخرة الذي أخذ يتَّسع، الرِّمال البعيدة تتراقص بالسَّراب، وعندما أخرج «سعدون» عدَّة الشَّاي، هتف «غنيمة»: أنا لا أحب شاي السبرتاية هذه، الشَّاي المغلي في نار الحطب لا مثيل له، وقفز يجمع حطبا.

وعندما توهَّجت النَّار، نظر إليها «حجيزي»، وضحك.

تغطَّت الكنكة بالهباب فور دفسها في كومة الحطب المشتعلة، وكان «سعدون» يمسك مقبضها عندما قال «غنيمة»: لماذا تضحك؟!

- تذكَّرت هذه الليلة الأولى التي قضيتها في جبل الرُّهبان، لمَّا حاولت أعمل شايا، وكلَّما أشعلت النَّار تأتي ريح قوية مصوَّبة ناحيتها وتطفئها.

حواف الشَّاي داخل الكنكة ترتفع ببداية الغليان، ودبيب الفوران القادم يستشعره «سعدون» وهو يدغدغ جلد كفِّه، ومن غير أن يرفع عينيه عن وش الشَّاي، قال: أنت يا «حجيزي» إيمانك ضعيف، ضحك عليك الرَّاهب «يونَّاس» وجعلك تترك دينك، وتصير نصرانيا.

يغرس «حجيزي» كفَّه في الرِّمال، ثم يقذف بها، لتنهال على ظهر «سعدون»، وتتسرَّب إلى قفاه: حكاية انتهينا منها يا ابن الكلب.

أخذ «سعدون» ينفض قفاه بيده الأخرى، دون أن يترك مقبض الكنكة، لكنه هتف بضيق: أنت من فتح السِّيرة يا «حجيزي»!

وهتف «حجيزي»: وأنت ما صدَّقت أنها فُتحت حتى تسخر!

قال «غنيمة»: واه يا «حجيزي»؟! تريد تتبع دين النَّصارى ولا نسخر منك؟! جيِّد إننا ما قطعنا رأسك!

فقال «حجيزي» متحدِّيا: واللّٰه لو وجدت عندهم ما أريده ما تركتهم، في دينهم نام الذِّئب على فخذي، وفي دينكم يتحول زوج من بني آدم إلى زوج بغال!

ورغم أن الشَّاي فار، إلَّا أن «سعدون» تركه واستلقى على ظهره من استغراقه في الضَّحك، ومن بين شهيقه وزفيره المتقطِّعين قال: قلنا لك من قبل أن هذا كلب وليس ذئبًا، ما يوجد ذئب في الصَّحراء يأمن لابن آدم.

انفعل «حجيزي» وهو يلكز «سعدون» في جنبه: وأنا ضروسي تخلَّعت يا بهيم، وأعرف الفرق بين الذِّئب والكلب، ما ترتعد فرائص «حجيزي» من رؤية كلب.

ما عرف الذِّئبَ من نظر إليه وهو يحوِّم بعيدا، لكن عرف الذِّئب من اقترب منه، لدرجة يكاد معها أن يرتطم خطمه بأنفه.

ليس في عينيه هذا العبط الذي في عينَي الكلب، وإنما فيهما إرادة وعزم، وما يغلب الذِّئبَ إلَّا إنسان في عينيه إرادة وعزم أكبر.

لمَّا نزل من على الصَّخرة التي بين أشجار جبل الرُّهبان، واتَّجه نحوي، وسطع البريق الأصفر في مقلتيه، ارتعش كل جلدي، ووقف شعر رأسي، واهتز جسمي من قوَّة دقَّات قلبي.

كان يخطو ناحيتي ببطء شديد، يشد شفتيه ليكشف عن أنياب ما رأيت مثلها من قبل، معقوفة وطويلة ومدبَّبة تخترق الحجر لو أرادت، وكنت أشعر بزئيره الممتد يكلِّمني: أنت فريستي يا «حجيزي».

من غير تفكير، كانت يدي تتسحَّب نحو «كوز» الشَّاي الذي يغلي.

وماذا يفعل كوز الشَّاي ومقبضه معمول من سلك ضعيف، الذِّئب بأنيابه هذه قادر على تمزيقهما وابتلاعهما أيضا.

لكن فجأة اكتشفت شيئا، اكتشفت أن هذا الذِّئب لن يقضي على حياتي وفقط، ولكنَّه سيقضي على ما أحيا من أجله، على الذي ضيَّعت كل مباهج الحياة من أجله، على الذي جعلني اتبع الرَّاهب من أجله، وأترك ديني من أجله، هذا الذِّئب سيمزِّق جسدي، سينهشه، بحيث لا يبقى أي أمل في بقائه بعد الموت جسدا سليما معافى في دنيا الأحياء، وسيدفِن هؤلاء الرُّهبان أشلائي في قبر، لأضيع تماما في طي النِّسيان، حتى قبر يزار في الأعياد لن أحصل عليه.

كان هدفي يضيع، وصَعُب عليّ حالي، وصَعُب عليّ أكثر أن يضيع هدفي بمخالب حيوان، ولو كان ذئبا، فنويت أن أدافع عن هذا الهدف.

جرى «ضب» على الرِّمال، وألقى بنفسه في جحر تحت إحدى الشُّجيرات، ورفعت بعض الأغنام رؤوسها من على ظهورها إثر حركة «الضب» المفاجئة، وهبَّت نسمة رطبة في هجير الظَّهيرة أنعشت الأرواح.

رشف «سعدون» رشفة طويلة استنزفت ما تبقى من شاي في كوبه، وضحك، وقال: عمَّا تدافع يا مسكين؟! ماذا تفعل أصابعك أمام مخالبه؟!

وماذا تفعل أسنانك أمام أنيابه؟! وماذا يفعل جسدك العجوز الهزيل أمام عضلاته الصُّلبة العفيَّة؟!

- هذا كلام البلهاء الأغبياء مثلك يا «سعدون»، لكن الكلام السَّليم أن الذِّئب لا يملك عقلا مثلي.

غريزته فقط تقوده لقتلي، لكن أنا غريزتي وعقلي يقوداني لقتله، وما كانت بيدي أدوات تصلح لمبارزته، فقرَّرت أن يرى في عينَي قوَّة تخيفه، ثم بعد ذلك يفعل الله ما يريد.

صوَّبت عيني في عينيه، وقلت لنفسي: إنه مجرَّد كلب.

وعندما هممت بالوقوف لأهشَّه كما يهش الإنسان منا أي كلب، سمعت صوت الرَّاهب «يونَّاس» يأتيني من أعلى الجبل، يطلب مني

عدم الحركة، لكن الذِّئب كان قد بدأ يحرِّكـ رأسه مثل كلب، وانطفأ شرر عينيه، وجاء هادئا، وحطَّ رأسه على فخذي هذه.

كركب صوت «غنيمة»: ما أُصدِّق حكاية أن الذِّئب وضع رأسه على فخذك هذه أبدا، ولو حلفت على الماء فيجمد.

عاد «سعدون» إلى الوراء متَّكئا على ذراعيه، وقال: ضحك عليه الرَّاهب ابن المرأة، عمل له سحرا.

عندما كان «حجيزي» منهمكا في الكلام، لم يشرب شايه، ولمَّا صمت، نظر في عيونهما السَّاخرة، وأخذ الكوب الذي برد، ورشف رشفاته المخطوفة.

* * *

- هناك أناس يا سيِّدنا يظلون في سعي إلى اللّه طوال عمرهم، ولا يقبلهم، وهناك الخاطئون الذين ينسونه دائما، لكنه يسعى هو إليهم حتى يقبلوه!

«يهوذا» يا أخي كان من تلاميذ «المسيح»، حضر معه، ورأى جميع أعماله، لكنَّه طرده! و«شاؤول» كان يقتل أبناء الرَّب، لكنَّه هو بنفسه سعى إليه، وجعله القدِّيس «بولس» الرَّسول الأعظم!

نظر الرَّاهب «يوأنَّس» إلى أفق الشَّرق المواجه للجبل، ثم همس: من لم تتلوَّث يده بدماء الأبرار خسر، ومن أجرى أنهارا من دمائهم ربح! أي حكمة هذه يريد الرَّب أن يعلِّمها لنا؟!

كانت الشَّمس تشرق، والرِّمال على مدى الشوف تخرج من عباءة الرَّمادية، وآفاق بعيدة محاطة بضباب، وينعكس النُّور على وجهَي «حجيزي» والرَّاهب المجهدَين، كانت ملامحهما رغم كل هذه الفضفضة التي قضت على ساعات الليل، متقلِّصة بالألم.

قال الرَّاهب كلمة مريعة، اهتز لها كل جسده: حكمة هذه أم عبث؟!

قال «حجيزي» من غير أن يهتز له طرف عين: أي أحد عاقل سيقول: عبث.

وشقت سكون الصَّباح الباكر تلك الصَّرخة النَّائحة الطَّويلة، صرخة الرَّاهب «برسوم»، ثم ظهر منحدرا على المدق بين صخور الجبل، نحيلا في جلباب ممزَّق كالح، كاد وجهه يختفي في شعر مهوَّش مُتلبِّك، كان ينحدر بسرعة، وصراخه مستمر، حتى توقَّف أمامهما، وقال بصوت رفيع يشبه صوت امرأة: ليس هناك عبث، ربُنا «يسوع» لا يلعب، ربُّنا رب قلوب، والقلوب مساكن الإخلاص، والقلب الذي ليس فيه إخلاص خربان، وصاحبه يخسر، لم يكن في قلب «يهوذا» إخلاص للمسيح، وكان «شاؤول» يقتل أبناء الرَّب بإخلاص.

كان «حجيزي» ينظر إلى الرَّاهب «برسوم» الذي يصعد المنحدر بنفس السرعة التي هبط بها، بينما انكفأ وجه الرَّاهب «يوأنَّس»، تدمع عيناه، وعلت صرخة «برسوم» البلهاء، قبل أن يتوقَّف مكانه، وينظر إليهما من فوق، ويقول: لا يهتم الرَّب «يسوع» بأبنائه أنفسهم، إنه يهتم بإخلاصهم.

- من هذا؟!

- هذا هو الرَّاهب «برسوم»، وراءه قصة مهولة، أتت به إلى هذه الصَّحراء منافي الرَّب.

تعرف!؟ وراء كل راهب من هؤلاء قصَّة مليئة بالتَّعاسة، وفي كل قصة امرأة، امرأة خائنة، أم خائنة، أخت خائنة، زوجة خائنة، حبيبة خائنة، المهم، امرأة ما تدفع الواحد منَّا لترك الحياة، وتسليم نفسه إلى هذا الموات، سكون الفيافي ووحشتها، ننفي إليها أنفسنا باسم الرَّب.

ابتسم «يوأنَّس» بِرُكن شفتيه، وقال: نكرِّر دائما قصَّة «آدم» و«حوَّاء»، والطَّرد من الفردوس، إلى الأرض القاحلة، ونحاول أن نتطهَّر بعذاب الوحدة والتوحُّد، هذا الجحيم الذي يشعله كل واحد منَّا لنفسه بداخله، لكن بعد كل هذا العمر، بعد مائة عام أو يزيد، أقول لك بمنتهى الإخلاص: لن يتطهَّر الماء أبدا من القذارة إذا أصابته، وستحوِّله النَّار ممزوجا بدنسه إلى بخار ينتهي إلى عدم.

كانت الشَّمس قد أشرقت بتمامها، والصَّحراء سطعت.

- لكن يا مقدِّس، هل كان هذا ذئبا حقيقيا؟!

ابتسم «يوأنَّس»، وقال بصوته العميق: وهل يمكن أن يكون شيئا آخر يا راعي الغنم؟!

- يستحيل على الذِّئاب أن تأمن لابن آدم!

- نعم، لكن لا يوجد ما هو مستحيل بالنِّسبة لمشيئة الرَّب، أنت يا سيِّدنا من تلك النَّوعية التي يسعى الرَّب إليها، فيأخذك إليه بمعجزة.

نظر «حجيزي» في عينَي الرَّاهب العميقتين رغم ضيقهما، وقال: لكن يا أيها الرَّاهب أنا من أخضع الذِّئب، وليست مشيئة الرَّب.

حرَّك الرَّاهب جلد جبهته المتجعِّد، رافعا حاجبيه، ومصوِّبا نظرة ساخرة لعيني «حجيزي»، لكن عينَي «حجيزي» كانتا مثل مرآتين عاكستين، تصوِّبان نفس النَّظرة إلى عينَي الرَّاهب.

همس «حجيزي»: لا أعيش حياتي أبحث عن مهرب لجثَّتي من الدَّفن، ثم أتركها ببساطة لأنياب ذئب يمزِّقها.

لقد غرستُ إرادتي في عقله، وأخضعته لي.

انكسرت نظرة الرَّاهب «يوأنَّس»، كانت نظرة «حجيزي» نافذة، كأنه يغرس إرادته في عقله، ليخضعه هو الآخر.

همس «يوأنَّس» محتارا: لكنَّها تضع رؤوسها أيضا على فخذ الرَّاهب «مرقس»!

كانت الشَّمس قد أشرقت تماما، تنشر دفئا وليدا، يدب في الرِّمال بخطوات غير مستقرَّة.

* * *

فتح «غنيمة» عينيه، شمس الضُّحى منيرة، والكلب يربض بجواره واضعا رأسه بين ذراعيه، والنَّاقة في مناخها الرَّصين، تجتر هادئة، تنظر إلى ما حولها من وسع لا نهائي نظرات حكيم.

اعتدل جالسا، وأخذ ينظر حوله، ثم هبَّ واقفا، اتجه نحو النَّاقة، نزع المسحاة من ركابها، وعاد إلى مكانه، وأخذ يحفر.

- ما حدث كان حقيقيا، لم يكن حلما، حلمت كثيرا، ورأيت رؤى كثيرة، ما رأيته كان حقيقة، ما عملته «جاله» معي لا يمكن أن يكون حلمًا، لم أر ما عملته هذه المرأة من قبل لأحلم به، كان جديدا، ولو لم أتأكَّد من صحة ما رأيته لجُننت.

«هل تدرك خطورة ما تفعل يا غنيمة؟ أنت تائه في مفازة، وتحتاج مجهودك كاملا لمحاولة الوصول إلى منفذ للحياة، وأنت بدلا من المشي في أيَّة ناحية، تتحرك إلى أسفل، نحو باطن الأرض، أنت يا غنيمة تحفر قبرك بيدك».

- لو وصلت إلى «جاله»، وفردت طولي بجوارها ومت، أفضل من الموت في المتاهة، لتنهش الطُّيور والضِّباع جسدي.

«لكن ستنهش الطُّيور والضِّباع جسديكما معًا».

- طالما نحن سويا، لا يهم كيف يكون المصير.

أخذت أحفر، والحفر في هذه الرِّمال السَّفيفة يقطع النَّفَس، تحفر مهما تحفر، تجد الرِّمال تنزلق مرَّة أخرى إلى مكانها.

نصف النَّهار انقضى وأنا أحفر، وشربت أكثر من نصف قربة الماء، وبالكاد عملت حفرة بعمق طولي، كانت الهواجس تقتحمني، تحاول أن تثنيني عن تكملة الحفر.

«الغرد أطاح بعقلك يا غنيمة، لو كانت «جاله» حقيقيَّة، كنت وجدتها، هذا الذي رأيته هو تهاويم شياطين الصَّحراء، ما رأيته شُغل عفاريت، العفاريت تريد دفنك، وأنت تنساق خلف إرادتها، كل ما رأيته كان شُغل عفاريت يا عبيط».

- كانت الحفرة تعمق، والكلب ينظر إليَّ من أعلى ويزوم زومات متقطِّعة، وفي لحظة أحسست ألَّا جدوى من استمرار الحفر، فأي شبر آخر أحفره عميقا سيجعل خروجي من الحفرة مستحيلا، لأموت مجَّانا، وبمنتهى الحمق، لكن في نفس اللحظة التي بدأ الكلب ينبح بعزم، أحسست بملمس شيء تحت قدمي، ليس بملمس الرِّمال، وعندما نظرت إليه...

..... كانا يجلسان تحت شجرة «فيكس»، من تلك التي تحيط بالبئر السَّاخنة، العصافير تشقشق، وطيور أبو قردان البيضاء، تقف على حواف جدول مخضوضر ينساب مبتعدا نحو الزُّروع البعيدة، مد «غنيمة» يده إلى جيب في جلبابه القصير، أخرج منه طرحة ملوَّنة مطويَّة بعناية، ومد يده بها إلى «حجيزي».

أخذ «حجيزي» الطَّرحة، وفردها على متسع ذراعيه، كانت مزوَّقة بزهور كبيرة متشابكة، يحف بجوانبها زيق مذهَّب عريض.

قال «غنيمة»: طرفها هو الذي داعب باطن قدمي، وما أن رأيته حتى نسيت كل الأخطار، وقرَّرت الاستمرار في الحفر، فمعنى أن أجد طرف الطَّرحة فلابد سأجد رأس «جاله» الملفوف بها، معنى أن أجد طرف الطَّرحة، أن كل ما رأيته كان حقيقيًّا، ولم يكن أبدا شغل عفاريت.

نباح الكلب يزيد من عزمي، ينبح كالمجنون، فأيقنت أن ثمَّة جثة....

- تعرف يا «حجيزي»!؟ ما إن طرأ على ذهني أنني أبحث عن جثَّة «جاله» حتى همد جسدي فجأة، ماذا سأفعل بـ«جاله» وهي ليست أكثر من جثَّة؟! ثم اكتشفت شيئا آخر، هذا المنديل طيَّره الهواء بعيدا عن «جاله»، وطالما الذي وجدته هو المنديل، فإن «جاله» بعيدة عن مكان الحفر.

«حجيزي» يتأمل الطَّرحة بعينين مندهشتين، حتى أنه قال: تريد أن تقول إن هذا المنديل لامرأة من جيش فارسي، مدفون في صحرائنا منذ آلاف السنين!؟

- الجيش الفارسي دُفن أمام عيني، لكن هل أنا أخطأت عندما لم أواصل الحفر، بحثا عن جثة «جاله»؟

لم يجب «حجيزي» على تساؤل «غنيمة" الحائر، كان منهمكا في تأمُّل الطَّرحة، ويتحسس بأطراف أصابعه زيقها الذَّهبي.

* * *

«زليخة» تعبت من السِّنين التي مرَّت عليها، وهي ليست أمًّا، فقالت لنفسها: ضروري «سعدون» يكون تعب هو أيضا، أنا أرضي لا تصلح للزَّرع، لكن هو بذوره ضعيفة، ربما تنبت في أرض غير أرضي.

«سعدون» يدخِّن حجر المعسَّل الصَّباحي، أمام باب حظيرة الغنم، النَّهار يشقشق، والضَّوء هادئ، والجوزة تكركر، وجاءت «زليخة» وجلست بجواره، وفي وجهها يلوح ثقل كلام تحمله في قلبها، ليس من عادتها الجلوس معه في الصَّباح الباكر هكذا، عادتها الانشغال في إطعام الطُّيور والبهائم، وسقي الغنم قبل أن تسرح إلى المراعي البعيدة، وحلب اللبن من النَّاقة، ومن الجاموسة.

نظر إليها، وقال: خير يا «زليخة»!

قالت: منذ متى ونحن متزوِّجَين يا «سعدون»؟

شد نفسا، وقال: لم نكمل يوما يا حلوة.

قالت: أنا أتكلم بجِد.

أشاح بوجهه بعيدا، وهو يقول: يا فتَّاح يا عليم، يا رزَّاق يا كريم، مالك يا «زليخة»؟!

قالت: أريد أن أفاتحك في موضوع.

لم يتكلَّم، وإنما شد نفسا طويلا من الجوزة، فانتحبت كركرتها.

قالت: سنين طويلة انقضت يا «سعدون»، الشَّعر بدأ يشيب في رأسك، وأنا لا أريد أن أحرمك من الخلفة.

نظر إليها مبتسما، ثم قال متهكِّما: ماذا ستفعلين؟ ستفتحين بيت الولد بالعافية؟!

ثم علت قهقهته، ولحم بطنه يرقص، فتدحرجت قطعة من البص من فوق حجر الجوزة، وسقطت على حِجره، فخطفتها «زليخة» بسرعة، وألقت بها بعيدا.

قالت: فشِّتك عائمة، أنت ستموت من كثرة الضَّحك، في مرة سيأتيك «عزرائيل» وأنت سكران في الضَّحك.

قال: كلامك يا «زليخة»!

قالت: تزوَّج يا «سعدون».

شمس الصَّحراء تسطع بسرعة، ونورها يكون ضعيفا، لكنَّه يشب قويًّا، فغمر النُّور وجه «سعدون»، الذي نظر إلى «زليخة» باندهاش مريع.

..... - انتقت لي يا «حجيزي» أجمل واحدة، «بثينة» ابنة عمِّها، وهي التي جَلَتها بـ«النُّورة»، وهي التي غسلتها في البئر السَّاخنة، وهي التي جَرَّت الجَمَل الذي جلست «بثينة» في هودجه، عند البيت، أمسكت يدها، وسلَّمتها لي، شيء يجن الذي لا يُجن.

دق قلب «سعدون» دقَّات رجَّت جسده البدين، وهو يدخل بعروسه الغرفة، ويغلق الباب في وجه «زليخة»، كانت دموع ترقرق في عينيها،

فلأول مرَّة منذ أيام لا تعد ولا تحصى، يفصل باب غرفة بينهما، وينقضي ليل من غير أن يكونا في سرير واحد.

- وقفت «بثينة» بجانب الباب المغلق، ترفل في ملابس عرسها الملوَّنة، ووجهها طاقة نور تشع من خلف الطَّرحة الشفَّافة المنسدلة على وجهها، كانت تضع عينيها في الأرض، فمددت يدي وأمسكت بيدها، وسحبتها إلى السَّرير، ماذا كان بإمكاني أن أفعل غير ذلك؟! كانت عيناي تريان ربكة مشاعري، وقلبي ينظر إلى «زليخة» المكوَّمة في ركن من أركان غرفتها، تبكي من غير صوت، لم أكن أسمع نشيجها، لكنِّي سمعت صأصأة فرخ حمام كان منزويا هو أيضا في ركن من أركان حجرة «بثينة».

ضحك «سعدون»، وقال: كانت «زليخة» متأكِّدة من أني لن أستطيع عمل شيء في هذه الليلة، فوضعت لي فرخ الحمام، أذبحه وأصبغ بدمه منديل الشَّرف.

..... «سعدون» وجهه وجه عريس، يلمع بحمرة الدَّم الجاري، وملابسه وعمامته تلمعان بالحداثة، ويجلس على المصطبة التي أمام بيت «حجيزي»، يتَّكيء بظهره إلى الجدار، وينظر إلى الجميزة، والعصافير تعود إليها في المغارب، كان يأخذ راحته في جلسته، فلقد أراح فخذا على المصطبة، ونصب الآخر، ورمى ذراعه على ركبته، كان «حجيزي» يشد الدخان من الجوزة، والدخان تدفق من فمه وأنفه وهو يقول: واللّه أفرخ الحمام كرهت العرسان.

ضحك «سعدون»، وقهقه، وأخذ الجوزة من «حجيزي»، وقال: أنا واللّه صَعُب عليّ حال الفرخ، ما رضيت بذبحه.

قال «حجيزي»: وماذا عملت؟

«سعدون» يحلق في وجه «حجيزي»، ونفث الدخان فتلوَّى كأفاع.

..... كان يحمل الهم، وكلَّما اقترب من السَّرير خطوة، الهم يثقل، و«بثينة» منقادة خلفه، وصدره يضيق: كيف أنام مع امرأة غير «زليخة»؟ وكيف أسعد بالعروسة، و«زليخة» من غير عريسها؟

– ما كنت أنا الذي أتحرَّك يا «حجيزي»، كان غيري من رفع «بثينة» من تحت إبطيها، ووضعها على السَّرير العالي، وهي جلست على الفراش، وأزاحت الطَّرحة من على وجهها، فرأيت القمر بدرا، وسمعت صأصأة فرخ الحمام، ثم بدأ يتجلَّى لي صوت غناء النِّساء خارج الغرفة على نقر الدُّفوف، وخشولة حناجر الرِّجال، وأدركت أن الجميع يقف ينتظر رؤية الدَّم.

لم يكن هناك مفر من نسيان «زليخة» في هذه اللحظة، ولمَّا انسدل شعر «بثينة» على عاتقيها، وتوهَّج صدرها، نسيت الدُّنيا، وغرقت في الجنة.

وأخذ جسد «سعدون» يتمايل من سطوة الضحك الذي يضحكه، و هو يقول: كُتب لفرخ الحمام عمر جديد يا «حجيزي».

* * *

راقبت «سريرة» النَّاقتان وهما تمضيان إلى بعيد، فوق الأولى «حجيزي» الذي لن تراه حيًّا بعد اليوم، كان بداخلها يقين بهذا، وفي عينيها دموع الملح، والشَّمس مالت عن كبد السَّماء، وبجوارها وقفت «ثريًّا»، تربت على كتف «سريرة» المتيبِّس، وتهمس: قال إنه سيعود يا «سريرة».

- سيعود إن شاء الله، لكنَّه سيعود جثَّة من غير روح، سيعود ميتا، «حجيزي» أنا أعرفه.

وظلَّت واقفة، متَّكئة على عصاها، ترقب النُّقطتين الكاحلتين اللتين غاصتا في عمق التماعة اصفرار الرِّمال اللامنتهية، ترقبهما بعينين غائمتين من أثر الزَّمن، والبكاء.

فور ضياع النُّقطتين في السَّراب، دارت برأسها ناحية رؤوس النَّخيل التي تبدو من خلف البيوت، ونظرت إلى الطَّريق الضَّيقة التي تمر أمام المسجد، لتخترق تلاحم المنازل، وركَّزت نظرها العليل في عمق هذه الطَّريق، تذهب بعقلها إلى منتهاه، حيث النَّاحية الأخرى من «الوعرة»، حيث بيت أبيها القديم، وطفولتها، وشبابها، وجنونها، وجرأتها التي نفَّرت منها أمَّهات شباب الواحة.

«جميلة، وجريئة، صفتان لما تجتمعان في البنت، تصير مخيفة».

نصيحة سمعها كل شباب الواحة من أمَّهاتهم، أو آبائهم، وقتما كان يهم الواحد منهم بالكلام عن رغبته في الزَّواج من «سريرة»، و«سريرة»

مجنونة، كادت تطيح بعقل أمِّها، التي قالت لها: بنت في العشرين ولم تتزوَّج، لن تتزوَّج، أنا تزوَّجت وسنِّي ثلاثة عشر عاما، وها هن البنات حولك يتزوجن وأعمارهن أقل من الخمسة عشر، يا بنت تحشَّمي، ما ينفع البنت أن تقف خارج البيت تضحك للرائح والغادي.

أما أبوها فقد أبطل الكلام معها، وبقى غضبان منها، وغضبان عليها.

وأبطل الغضب، لما جاءه «حجيزي» وطلب يدها، وهي وافقت، وكانت فرحانة.

- يا «سريرة»، أنتِ جد فرحانة؟! «حجيزي» عمره خمسين سنة، ولا يضحك، ويحنط جثث الحيوانات!

- خمسين سنة يا أمِّي، لكن شبابه عال، الذي يراه بالكاد يعطيه عمرا لا يتجاوز الخمسة وثلاثين سنة، وأنا أوَّل بخته، امرأة قبلي لم تدخل قلبه، ولا دخلت حياته، وأنا سأجعله يضحك، وسأجعله يربِّي الحيوانات، ويرعى الغنم.

أعادت أمُّها النَّظر في عينيها، كأنها تستوثق صدق فرحتها، فأطلقت «سريرة» زغرودة طويلة، فقامت أمُّها مرتاعة، وكبست بكفها فم «سريرة»، وبيدها الأخرى تلكزها في صدرها، وتهتف بانبهار: تريدين فضحنا؟! ما رأينا عروسة تزغرد، يا قليلة الحياء.

نزعت «سريرة» كفَّ أمِّها من على فمها، ونظرت في عينيها بتحد، وقالت: حتى تصدِّقي إنني فرحانة.

ابتسمت «سريرة» فانبسطت تجاعيد وجهها، ودارت برأسها تنظر إلى مكان النُّقطتين المتحرِّكتين على المدق الضَّارب في الصَّحراء، فلم ترهما أبدا.

دخلت البيت، واتَّجهت بحركتها البطيئة إلى الدِّكة التي تحت شجرة التِّين في وسط الفسحاية، ونادت على «ثريَّا» قبل أن تمسح بكف يدها على فرشة الصُّوف المنبسطة على الدِّكة، ولمَّا ظهرت لها «ثريَّا» من باب غرفة الحزين، قالت: تعال يا بنت نعمل كُحل «الدلال».

اندهشت «ثريَّا»، وقالت: وماذا تعملين يا «سريرة» بكحل «الدلال»؟! أنا ما رأيتك تكتحلين به أبدا!

قالت «سريرة» بتبرم ونفاد صبر: يا بنت تعال نعمل كحل «الدلال».

هتفت «ثريَّا» بضيق: أنتهي من تنظيف حجرة الخزين ونعمل «الدلال»، و«الحمراوي»، إن شئت!

لكن «ثريَّا» لمَّا رأت جلد وجه «سريرة» يرتعش، وشفتيها ترتعدان، وسمعتها تئن: نفسي يا «ثريَّا» أعمل كحل «الدلال» الآن، ما عندي صبر يا بنيتي.

قالت: حاضر يا أمَّ «بكير»، يا غالية.

قطع من الشَّمس تخترق فضاءات ما بين أوراق شجرة التِّين، وتسقط على رأس «سريرة»، ووجهها، وحجرها، وذباب يغير على وجهها وهو يطن، فتهشه بكفِّها، وبينما «ثريَّا» تبحث في أحد الصَّناديق داخل غرفتها

عن القطن الذي ستصنعان منه كحل الدلال، كانت «سريرة» تمشي في مفازة الذكريات، حتى وصلت إلى أيام فرحها.

..... «سريرة» شابَّة، في العشرين من عمرها، في أوج جمالها، تقف في حوض ماء البئر السَّاخنة، والبنات حولها يقذفنها بالماء، يبللن ثيابها لتخلعها، وهي تداري وجهها من رذاذ الماء، وتصرخ فيهن، بينما ضحكاتهن تصنع ضوضاء مبهجة، كان لابد أن تخلع ملابسها، وتغتسل في هذا الماء الساخن، هذا سِلو الأفراح في واحة «الوعرة»، لكنَّها لم تخلع ثيابها التي التصقت بجسدها الريَّان، فهجمت البنات عليها، وألقينها في الماء، وبدأن في نزع ثيابها عنها بالقوَّة، ومحاولاتها المتمنِّعة فشلت، وصارت عارية كما ولدتها أمُّها، وضربها الخجل من عيون البنات والنِّساء الكبيرات الواقفات يضحكن حول الحوض، وضربها الخجل من عيون العصافير التي كانت تتأمَّلها باندهاش، وهي واقفة على الأغصان، بين أوراق شجر البرتقال.

بنات «الواحة» يجدن، في مثل هذه المناسبة، فرصة لممارسة نزقهن، يغسلنها، ويدعكن جلدها، وأكفُّهن المملوءة بالشبق تمر برقَّة على ثدييها، وعلى سرَّة بطنها، وفخذيها، واحدة منهم قالت بصوت مائع: حظ «حجيزي» من السَّماء، وقع على غزالة ما لها وصف.

ثم هصرت ثديها وهي تهتف: انظروا إلى رمَّانها.

وعلت الضَّحكات، بينما صمتت هي تماما، فلم يكن أمامها إلَّا الاستسلام، استسلام أحبَّته وقتها، بينما جسدها مغمور في المياه الدافئة.

أخرجها من سرحانها في غيم الذِّكريات قدوم «ثريَّا»، كانت تحمل بين يديها القطن الأبيض ناصعا، وزجاجة مملوءة بزيت زيتون، وطبقا من الصَّاج النَّظيف المطلي بالميناء الملوَّن، وإناءً فخَّاريًا أسود قديمًا.

جلستا على الدِّكة في مواجهة بعضهما، وبينهما عدَّة صنع كحل «الدلال»، كانت «سريرة» قد شدَّت مزقة صغيرة من القطن، وأخذت تبرمها بين طرفي إبهامها وسبَّابتها، وكانت «ثريَّا» قد دلقت في طبق الصَّاج بعضا من زيت الزَّيتون، وضعت فيه «سريرة» لفافة القطن المبروم، وبدأت تبرم واحدة أخرى.

همست «سريرة»: ليلة حنِّتي يا «ثريَّا» مرَّرَت النِّساء عجينة الحلوى على جلدي كله، فما خرجت بشعره واحدة، كنتُ يا بنت كما حجر المرمر، لامعة وملساء، أمِّي لم تتركني في حالي، دعكت جسدي كله بـ«النُّورة»، وكبست عينَي بالكحل «الحمراوي»، لأجل ما يجلي بياضهما، مثل النَّار هذا الكحل «الحمراوي»، لكن كحل «الدلال» رطب، ويرسم العينين فتملآن وجه الواحدة منا، الرجال مغرمون بالعيون الواسعة.

المهم، أدخلوني في بيت «حجيزي» مثل واحدة من حور العين، وأعطتني أمِّي مكحلة كبيرة، ملآنة بكحل «الدلال».

وتنهَّدت «سريرة»، وقالت: وظلَّت حتى الآن ملآنة.

نظرت «ثريَّا» إليها، وقالت: عندك مكحلة ملآنة من خمسين سنة؟! أين هي؟!

- في الصُّندوق، تحت السَّرير.

قالت «ثريًّا» بلهفة: أريد أن أراها.

قالت «سريرة»: اذهبي هاتِها.

دخلت «ثريا» حجرة «سريرة»، واتَّجهت مباشرة إلى السَّرير النُّحاسي العالي، ثم جلست على ركبتيها، فرأت الصُّندوق، لم يُثر اهتمامها كما أثاره عندما رأته أوَّل مرة، مزوَّقا بأوراق أشجار وزهور فضِّية وذهبيَّة، خشبه بنِّي، نُحتت فيه دوائر ومربعات ومثلَّثات تداخلت في بعضها بنسق بديع، الصُّندوق معمول من خشب ثقيل، لم تستطع «ثريًّا» سحبه من أسفل السَّرير، فتسحَّبت على ركبتيها حتى وصلت إليه، ورفعت غطاءه بسهولة، فرأت ملابس «سريرة» موضوعة بعناية ومرتَّبة، ملابس لم تر «سريرة» ارتدتها من قبل، هناك قمصان نوم ما زالت في أكياسها، وهناك أوراق لم تهتم «ثريًّا» بالنَّظر إليها، فهي لا تجيد القراءة، وهناك زجاجات عطور لم تُستعمل، وها هي المكحلة.

كان طبق الصَّاج قد امتلأ بلفافات القطن المبرومة الغارقة في زيت الزَّيتون، عندما ظهرت «ثريًّا» قادمة، تمسك بيدها الحافظة الجلديَّة للمكحلة، وهي تنظر إليها بإعجاب مخلوط بالانبهار.

قالت «سريرة» بلا مبالاة: هيا «ثريًّا»، أشعلي النَّار.

لكن «ثريًّا» قالت: المكحلة جلدها كأنه معمول اليوم، رسومات الطُّيور تكاد تفر.

ابتسمت «سريرة» بسمة مريضة، متهكِّمة، وقالت: ما لزوم المكحلة وليس هناك عيون تكتحل؟! أشعلي النَّار يا بنيتي.

أخذت «ثريَّا» لفافة قطن من تلك المغموسة في زيت الزَّيتون، وثبَّتتها جيِّدا بطرف سلك رفيع إلى منتصف فوَّهة زجاجة صغيرة، ثم أشعلت النَّار في ذؤابتها، بينما أمسكت «سريرة» بالقعبة الفخَّارية، وقلبتها فوق خيط الدخان الضَّئيل المتصاعد من لهب النَّار.

قالت «سريرة»: ويمكن «حجيزي» يعود حيًّا، مستحيل يكون رأى الغيب وتأكَّد من يوم انتهاء أجله، لا أحد في هذه الدنيا يعرف متى سيموت، وليست كل الرُّؤى تتحقَّق على كلام المعبِّرين، حتى المعبِّر كان داخل الرُّؤيا!

قالت «ثريَّا» ضاحكة: قلبي يقول لي إنه سيعود يا «سريرة».

ابتسمت «سريرة» وقالت: لو عاد، سأضع في عينَي كحل «الدلال»، وأتعاجب له.

ثم استدركت: امسكي القعبة.

أمسكت «ثريَّا» القعبة، سماد اللهب يتصاعد إلى قلبها، ليلتصق به، هذا هو السِّماد الذي لمَّا تكشطه نساء «الوعرة»، يعبِّئنه في زجاجات صغيرة جدا كُحلا للدلال.

أما «سريرة» فإنها أخرجت إحدى زجاجات مكحلتها العتيقة، وفتحتها بيد مرتعشة، ثم أمسكت المِرود بأصبعين مرتعدين، وغمسته

في الكحل العتيق، ثم رفعته إلى إحدى عينيها، ومرَّرته ببطء مهزوز بين جفنيها اللذين انطبقا على المِرود بشوق وحنان شديدين.

عندما فتحت «سريرة» عينيها المكتحلتين، نظرت إليهما «ثريَّا» فارتجف قلبها، لقد ظهرت عينا «سريرة» مرعبتين، ولمَّا سألتها عن رأيها، قالت «ثريَّا» بصوت بارد: حلو يا «سريرة»، حلو.

لكن «سريرة» لمست الرَّنة الباردة التي في صوت «ثريَّا»، فقالت: الكحل للصبايا يا «ثريَّا»، ليس لمن يودِّع الحياة مثلنا، اللّٰه يسامحك يا «حجيزي».

13

صَلِيبٌ مَكسُورٌ أَعلَى بُرجِ الكَنِيسَةِ

لسعة برد ليل ما قبل الفجر، والقمر غادر السَّماء تماما، والحلك مدلهم، حتى أن الأشجار ضاعت ملامحها في بهيم ظلماء اصطبغت بها الصَّحراء، وغرق فيها جبل الرُّهبان.

قال «حجيزي»: نحتاج نارا نُدْفِئُ بها جلدَينا.

قال الرَّاهب «يوأنَّس»: لو أستطيع أن أُخرج هذه الجذوة المتَّقدة في قلبي لأدفأتنا.

* * *

اعتدلت «سيرين» من اتكائتها على مرفقها، ومدَّت يدها بكوب الشَّاي تعيده ممتلئا إلى «صبحي»، فأخذه منها مستغربا ما يجري، لتضع وجهها بين كفيها، وتغرق في البكاء.

كان ثدياها قد تضامًّا في عريهما، ولم يكن لهما أن يتَّضحا، وقد منع ذراعاها الملتصقان، وشعرها المنسدل حول جانبي وجهها، مسقط نور لهب اللمبة العويل عنهما.

خنقت العبرات صوتها: رأيت ما لم أكن أتخيله، ولم أفهمه، لكنِّي استبشعته.

وأخذَت تنتحب، و«صبحي» يمسك بكوب شايها، ينظر إلى كتفيها المرتَّجين حيرانا.

..... ارتعبت «سيرين» من صورة القدِّيس «مار جرجس»، من هذا الرُّمح الذي يعلو ويهبط ممزِّقا تنِّينا يرفس رفسات الموت الأخيرة، كانت تقف أمام باب غرفة والدها، وفي اللحظة التي صكَّ فيها سمعها صوت زئير التِّنين، سمعت تأوهات أمِّها المتتالية، فتلبَّسها الرُّعب، الذي شلَّ لسانها، لكنَّه لم يشل يديها ولا ساقيها، لتهجم على أكرة باب غرفة المعلِّم «نظير»، وتفتحه، وتدخل.

اللمبة «السهَّاري» تشع نورا خافتا، يسقط على جسدين عريانين تماما، المعلِّم «نظير» يعلو السِّت «جميلة» التي كانت منسدحة على ظهرها، بينما فخذاها يسترخيان ويعودان للضَّغط على جنبَي «نظير» مثل زعنفتي سمكة، و«نظير» مرميا بصدره على صدرها، يأكل رقبتها وأذنيها، وكان فحيح يمتزج بتأوُّه.

وقفت «سيرين» مثل صنم، كان أبواها يتعاركان في الفراش، وأبوها يبرك على أمِّها يأكلها مثل كلب يأكل دجاجة تموت.

وبينما تحاول التخلُّص من شللها لإنقاذ أمِّها، فكَّرت: لماذا يتعاركان عريانين؟!

ثم رأت «سيرين» ما أطلق الصَّرخة من حنجرتها، صرخة ملتوية وسائحة يتصاعد منها دخان الحرائق، رأت رُمحا ينبثق من أبيها، رُمحا مشدودا التمع لمعة وامضة بنور السهَّاري الخافت قبل أن يواصل الطعن ممزقا جلد أمِّها، وأمُّها تتأوَّه، وتتلوَّى مثل التِّنين الذي يموت تحت سيقان فرس القدِّيس «مار جرجس».

«لم تكن روح المعلِّم نظير فقط هي التي تنظر إلينا وقد سكنت في أحد أركان سقف الحجرة، كنت أنت يا يسوع تطوِّف، ورأيتها أنت يا يسوع وهي.. يا ويلي.. يا خجلي.. لكنك يا ربُّ رأيتني لا أخطئ».

باغتت «سيرين» «صبحي» بما فعلته، إذ أن حكيها أربكه، فوجد نفسه محصورا بين شهوة تفجَّرت فيه، وحياء يصطحبه دائما مثل ظله، وتحذير المعلِّم «نظير»، وغضب «المسيح»، أربعة أحوال مثل أجنحة الصَّليب، تعلَّق عليها مقتولا، وفاجأته «سيرين» وهو في هذه الحالة، فمدَّت ذراعها بسرعة خاطفة، وقبضت على قضيبه.

ارتج جسد «صبحي» بحركة لا إرادية، فانسكب الشَّاي من الكوب الذي بيده، كانت ساقه قد قفزت من مكانها أيضا لتضرب «الوابور»،

فتسقطه على الأرض، فينسكب منه الكيروسين، بينما يده الأخرى تخشَّبت أصابعها المغروسة في لحم كف «سيرين» تحاول نزعها عن قضيبه، لكنَّها كانت قد كلبشته بأصابعها المضمومة عليه، كأصابع ميِّت يحاول التعلق برقبة زجاجة مملوءة بإكسير الحياة.

تهمس منتحبة: عشت طوال حياتي بعد الذي رأيته أظلم أمِّي.

كان «صبحي» مفزوعا يحاول الوقوف، بينما يشعر بعضوه يمتلئ ويشتد رغم قبضة «سيرين» المحكمة.

- أبي يعذِّبها كل ليلة، فلماذا تذهب إليه في غرفته وتتركني وحيدة، كيف تتحمل طعنات هذا الرُّمح؟!

استطاع «صبحي» الوقوف أخيرا، وبيديه الاثنتين حاول فك قبضتها، كان يتعامل مع المستحيل، كلما حاول ضغطت أكثر، فتؤلمه ألما يهصر الرُّوح.

رائحة الكيروسين كتمت هواء الغرفة، وكذلك رائحة الدخان المتصاعد من لهب اللمبة العويل، ورائحة شعر «سيرين» رائحة قرنفل يزوي، و«صبحي» يشارف على الاختناق، وهو يرى وجه «المسيح» ناظرا ناحية «سيرين» مربدا، ثم يفتح فمه ويرعد: اضربها.

كانت تقول: أنا ظلمت أمِّي طول هذا العمر، أنا يا «صبحي» لي جسد لا أعرف لماذا يثور منذ فترة، ويطلب هذا الرُّمح، ويريد تجربة الطَّعن؟!

في هذه اللحظة هوت روح المعلِّم «نظير» من ركنها عند سقف الحجرة لتسقط على الأرض، وتصرخ: اقتلها يا «صبحي»، اقتلها، إياك و«سيرين» يا ابن الإسكافي.

وانطلقت يد «صبحي» بصفعة هائلة على وجه «سيرين» ألقتها صريعة على الفراش.

..... كانت النَّار ترمي بدفئها ووهجها، حتى أن حشرات تلبد بين أغصان الأشجار التي في سفح الجبل جاءت لتحترق في ألسنة لهبها، حتى أن مساحات من هذا السَّفح أضاءت، ليتراقص عليها ظلا العجوزين.

- بكيتَ كثيرا يا مقدِّس، هون عليك.

مسح الرَّاهب وجهه، وهمس: أبكي العمر الذي ضاع، ضيَّعَته هذه الصَّفعة، لمَّا صفعت «سيرين» كنت أصفع حياتي، فهربت مني، لتواجهني بعد ذلك بصفعة قَلَبَتني، وما عرفت بعدها كيف أعتدل.

- «سيرين» هربت منك؟!

رفع الرَّاهب «يوأنَّس» وجهه من فوق ألسنة اللهب، وحدَّق في عينَي «حجيزي» طويلا، كان تحدٍّ يبرق في عينيه، وبدا أنه يهم بِقول كلام خطير، ثم طأطأ رأسه مرَّة أخرى ناحية النَّار، وفي الوقت الذي كانت تعلو فيه طقطقة حشرة يلتهمها اللهب، ارتفعت صرخة الرَّاهب «برسوم» الحادَّة، الطَّويلة، المعذَّبة.

رفع الرَّاهب «يوأنَّس» وجهه مرَّة أخرى، وأيضا حدَّق في عينَي «حجيزي»، ثم قال: سأقول كل شيء يا «حجيزي»، أنت أتيت إلى جبل الرُّهبان من أجل أمر أعدَّه الرَّب، أنا لم أجلس هنا مع بشريٍّ غيرك، فكلنا هنا نتفرَّغ للجلوس مع الرَّب، لا مع البشر، ونحن لا يمكننا إلَّا أن نتحدَّث مع «يسوع» بأدب، نشكره على محبَّته، ورحمته، ونغنِّي له، ونمجِّده، لكنَّنا لا نشكو له آلامنا، أقصد... لا نشكو له آلامنا بشكل حقيقي.. أقصد...

أخذ صدر الرَّاهب يعلو ويهبط مثل صدر الغضبان، ورأسه يدور مثل رأس الحيران، وصرخ الرَّاهب «برسوم» مرَّة أخرى، فهتف «يوأنَّس»: الرَّب هو سبب آلامي، وسبب آلام «برسوم»، وسبب آلامنا كلنا، يجب أن أتكلَّم الآن، وأقول كلَّ شيء، ويجب أن يسمعني «يسوع»، أنا أمدحه طول عمري، أمدحه وقلبي معبأ بالآلام، وهو لا يقدِّم لي أيَّ حل، بل ألقى بي في منافيه هذه، ليسمع إذًا تذمُّري ولو مرَّة واحدة، ليتَّسع صدره لغيظي المكبوت من تصرُّفاته المريرة.

امتقع وجه «حجيزي» وهو ينظر إلى شفتي الرَّاهب الذي انفلت عياره.

- لماذا يحارب الرَّب جسدي؟ لماذا يصرخ فيّ دائما لأهتم بما لا أراه على حساب ما أراه؟! لماذا يطالبني بمراعاة روحي، ويأمرني بإهلاك جسدي؟!

تخيَّل يا «حجيزي» لو لم أصفع «سيرين»، لو أني سمحت لجسدي بأن يلبي نداء جسدها، ما الذي كان جرى؟! كانت اختلفت الأمور ودارت العجلة في اتِّجاه الحياة، إمَّا كنت تزوجتها، أو كنت شبعت منها ثم تركتها، لكنِّي في كل الأحوال كنت سأشتري محل «مانيفاتورة»، وربما صرت أكبر تاجر أقمشة في بر «مصر»، ولم يكن ضاع العمر بين السَّحالي والضِّبان والثَّعالب والذِّئاب، وهذه الأجساد التي تحيا ميِّتة.

لكن كيف للرَّب أن يطيب باله وعبيده في هناءة؟! لابد من العذاب والألم، البنت تمسك قضيبي الذي نفر في قبضتها، وجسدي طاب له المَشْهَى، وبدلا من أن أمرح في جِنان «سيرين» وأشجارها، وأعبُّ من نهر حبها وأروي عطشي، يظهر الرَّب في سماء الغرفة غضبان! وتظهر روح الملعون «نظير» غضبانة، وأنا كنت في عز شبابي، وكلام أبي عن «المسيح» في صدري لم يزل غضًّا، وصَعُب عليَّ صليبه المكسور في نجع «أبو ليله»، ولم أشأ أن أكسر أيضا صليبه الذي في قلبي، وبغباوة العبيد ضربتُها بكف زهقان، أطرش من وشيش الغضب، وخرجتُ من الغرفة مسرعا، أقف على السَّطح المكشوف، أسحب الهواء إلى رئتيّ المخنوقتين.

يا لغبائك يا «صبحي»! تطيع روحا تهيم في سماء الحجرة، وتعصي جسدا كاملا دافئا، يريد أن يمنحك حبَّه في فراشك؟! يا لحماقتك أيها الرَّاهب المغبون «يوأنَّس»!

- وبعد؟

- ها أنا كما قلت لك، أقضي أيام العمر منفيًّا في هذه الصَّحراء.

- تنفي نفسك لأنك ضربت واحدة على خدِّها فتركتك وهربت؟!

- لا، نفيت نفسي لأني قتلت «سيرين».

- قتلتها يا مقدِّس؟!

..... بعد ظهيرة اليوم التَّالي، وبينما «صبحي» في المحل، يتعامل مع الزبائن، ورأسه يمور بما جرى في الليلة السَّابقة، رأى «سيرين" تدخل، وجهها رائق ومبتسم، وملابسها ملوَّنة ومحبوكة، وشعرها منطلق، وفي يدها كيس به لفافة.

ابتهج قلب «صبحي» لمرآها، لكنَّه كسر عينه ونظر في القماش الذي يقطعه للزَّبائن، كان خجلا مما حدث بالأمس، بينما «سيرين» بدت وكأنها لم تكن تحيا أساسا بالأمس، كانت جديدة تماما.

وبعدما غادر الزَّبائن المحل، أخرجت اللفافة من الكيس، وفتحت أوراقها، كاشفة عن حلوى البسبوسة، قطعا متراصَّة في طبق كرتوني، وضعته على النُّضد الذي تراصَّت فوقه دفاتر حسابات، وأوراق فواتير، وابتسمت وهي تهز رأسها، وقالت: اعمل لي شايا يا «صبحي».

وقف «صبحي» ليعمل لها الشَّاي، وقد رأى الصليب مخضرًّا في رسغها اللدن، صليبا مبهجا، مشعًّا بالحياة، وليس أبدا خشبة لعنة، تُزهق عليه روح ابن الإنسان.

ما الذي يفعله الليل بـ«سيرين» فيجعلها غير سويَّة؟!

فتح «صبحي» باب غرفته، فدخلت، دموعها تسيل، وفمها يشهق، وألقت بنفسها في أحضانه، فصرخ الرَّب «يسوع»، الطوَّاف في سماء الحجرة: احذر يا ابن الإنسان.

وصرخت روح المعلم «نظير»، التي عادت للسَّكن في ركنها بجوار السَّقف: احذر يا ابن الإسكافي.

صفعت الصرختان وجهَ رغبته، فأزاح «سيرين» من بين ذراعيه وصدره بجفاء، فنظرت في عينيه، وهمست: لماذا تكرهني؟!

اتَّجه «صبحي» إلى صندوق متوسط الحجم موضوع بجوار الحائط موازيا للسَّرير، فتحه، وأخرج منه علبة صغيرة مكسوَّة بالقطيفة الحمراء، رفع غطاءها الصَّغير، وأخرج منه سلسلة ذهبيَّة تدلَّى منها صليب لمَّاع، ومد يده بها إلى «سيرين».

ابتسمت، وقالت: أنت تحبني يا «صبحي»؟!

لم تحفل بالسلسلة الذَّهبية، وإنما وضعتها في علبتها، وألقت بها على السَّرير، وأخذت تفك أزرار قميصها، استدار «صبحي» مبتعدا عنها إلى الوابور، وجلس على الكرسي المنخفض، وأخذ يكبس الوابور، يعدُّه للعمل واشتعال النَّار.

سمعها تقول: أنا لا أريد شايا يا «صبحي»، أنا أريدك أنت.

- هل يمكن لشاب أن يسمع مثل هذا الكلام ولا يلبي يا «حجيزي»؟!

نكَّس «حجيزي» رأسه، وأخذ يقلِّب النَّار بأحد أعواد الحطب، ولم يُجب.

- «سيرين» نادت عليّ بصوت مبحوح: تعال.

أنا نظرت إليها، فوجدتها مستلقية على السَّرير عريانة كيوم ولدتها أمُّها، وتحت باطها علبة القطيفة، لكن كيف لي أن أذهب إليها وضجيج صرخات «المسيح» والمعلِّم «نظير» يعصف بي؟! لم يكن ممكنا أبدا أن ألقي بنفسي في رغبتها، وهناك أعينهما الغاضبة تهتك عريينا.

ثم، كيف خلعت «سيرين» ملابسها كلها، واستطاعت أن تتمدَّد بكامل عريها هكذا، من غير ذرَّة خجل؟! بل وتدعوني كي...

في صخب النَّاس، وهوس دنياهم، يضيع صوت الرُّوح، أحبال الحناجر لها الغلبة، والألسنة تتكلَّم بكل ما يؤذي كينونة الأجساد، في حين أن الرُّوح تتكلَّم بالحق، للحقيقة، من أجل صالح هذه الأجساد، والصَّحراء، هذه المنافي السَّاكنة، بيئة صالحة لسماع صوت الرُّوح، الصوت الخفيض الهامس كصوت ملاك.

أنا سمعت هذا الصوت، كثيرا سمعته، وطويلا كانت روحي تشرح لي ما جرى، لكن كيف أستمع لصوت روحي، وأتجاهل صوت الرَّب؟! ما تقوله روحي لا يستقيم مع كلام «يسوع»!

روحي تقول: «سيرين» أصدق منك يا «صبحي»، أحبَّتك بروحها، فدقَّ قلبها، وأرادت أن تضمّك إليها بجسدها، فطلبت منك ذلك، ولم تخبِّئ شيئا، تعاملت مع الأمر ببساطة.

لكن كلام الرَّب ليس هكذا، الرَّب يتكلَّم عن الزِّنا، ليس رجل وامرأة يعرفان بعضهما في فراش من غير علم النَّاس ومباركتهم إلَّا زانيين.

قلت لروحي: «سيرين» كانت عاهرة، ليست أكثر من عاهرة، أقدِّم لها حبِّي في علبة مكسوَّة بالقطيفة، وهي ترفضه، وتطلب جسدي!

أيام طويلة قضيتُها في هذا الكهف أجادل روحي، أحاول إقناعها بأن «سيرين» كانت مُشينة، وكانت تستأهل قتلها، وفي مرَّة بصقتُ، وزعقت: كانت مومس.

فإذا بي أرى روحي تتكاثف في فضاء الكهف، بنتا بيضاء مثل نتف القطن، بنتا تشبه...

كانت روحي يا «حجيزي» تشبه «سيرين»!

آه، كم هو غبي هذا الإنسان؟! معقولة أنا عشت حياتي كلها، روحي في داخلي تشبه «سيرين» ولا أعرف؟!

نظرت روحي لي فترة طويلة بغضب، قبل أن تعود إلى الوراء فتختلط بالنُّتوءات الصَّخرية لجدار الكهف، ثم تندفع إلى الأمام، وتركل وجهي بقدمها.

شعرت بدوار رهيب، وأنا أسمع صوتها مثل صلصلة الأجراس: أنت من ضيَّع «سيرين» يا أحمق، وأنت من ضيَّعت نفسك.

***

الرَّب لا يصمد كثيرا أمام المال، والمال لا يصمد كثيرا أمام الحب، الحب يهزم الجميع، إذ أن «صبحي» بعد اكتمال هذه السَّنوات الخمسة في «أسيوط» نسي الصَّليب المكسور، وكنيسته العاجزة عن التوسُّع في «أبو ليلة»، كما أنه لم يعد يهتم بالجِمَال الحمراء الشَّامخة بأنوفها على أوراق الجنيهات الأبية، وإنما صار يقف في محل «المانيفاتورة» ذاهلا مثل مريض، ناحلا من حب «سيرين»، الحب الذي تبيحه له صاحبة الشأن، بينما تمنعه عنه تحذيرات الرَّب، وأحقاد ميِّت مثل المعلِّم «نظير».

لم تعد «سيرين» تأتيه، لا في المحل، ولا في غرفته، كانت تأتيه من قبل في المحل من أجل أن تمهِّد للقاء الغرفة الليلي، لكن لقاءات الغرفة كانت تنتهي دائما بما هو مهين لها، مرات عديدة تتعرَّى له، مرات تلقي بنفسها عليه، تتحمل لكزاته ودفعه لها، على أمل أن تنتصر يوما، أن يلين، كانت تظن أنه يعاني من الخجل، أو من تركيبة شخصية خاصَّة معقَّدة، وفكرَّت أنها في كل ليلة قد تكسر جزءا من حائط الصَّد هذا، وتحل عقده.

في هذه الليلة أفلحت بعد طول تشابك في أن تدفعه لتلقي به في السَّرير، ثم تعلوه، شعرها مهوَّش، وعرق جبنيها يلتمع في النُّور الهادئ للمبة العويل، ونهداها يتدلَّيان فوق وجهه اللاهث، كانت تضغط على كتفيه، وكان يستطيع أن يزيحها عنه بسهولة، لكن جسده كان يتآمر عليه أيضا، أحب اعتلاء «سيرين»، الرَّغبة تجتاحه مثل فيضان هادر، لكن

عيناه ترفضان دائما أن تلتقيا بعينيها، دائما تنظران إلى أعلى، وتدوران في محجريهما كأنه ينظر إلى أشباح تطوِّف الحجرة بهوس.

كانت تضغط على كتفيه تمنعه من الحركة، وقالت بضيق فيه رجاء: لماذا ترفض؟! أشعر به تحتي مثل الحجر، فلماذا ترفض؟!

هَتَفَت بصوت مكبوت: لا تضربني، لا تدفعني، ولكن أخبرني، قل لي.

- لو قلت لك ستسخرين مني.

أرخت ملامح وجهها الغاضبة، وقالت بلهفة: لن أسخر منك، صدِّقني.

رفع «صبحي» ذراعه اليمنى، وتتبَّع بسبَّابته شيئا يتحرك في سماء الحجرة، لم تتمكَّن «سيرين» من رؤيته، لكنَّها سمعت صوت «صبحي» مخنوقا، يهمس: ها هو «المسيح» مهتاجا، ينظر إلينا بغضب.

وعندما ضمَّت شفتيها إلى بعضهما مذهولة، كان «صبحي» يشير إلى ركن قرب السَّقف، ويقول: وها هي روح المعلِّم «نظير» تصرخ فيّ «احذر يا ابن الإسكافي».

اكتمل ذهول «سيرين»، ومن غير كلام لبست هدومها، ومن غير كلام مضت.

- لم أعد أرها، وعادت الأيام إلى سوادها القديم، تمر بطيئة، لكنَّها أكثر مرارة، كان غياب «سيرين» قد أفقد حياتي روحها التي عملت في وجداني مؤخَّرا، فأعطت للدُّنيا طعما آخر، لا يكون لمّا لا تكون.

وفي عصرية كئيبة، جاء المعلِّم «اسطفانوس»، صاحب أحد محلات «المانيفاتورة» المجاورة، وجهه السّمين مربدًّا، وشاربه المفتول مرتخيا، وجلس على الكرسي، وأمال رأسه إلى رأسي، وهمس: بنت المعلِّم «نظير» مالت ميلة شنيعة يا «صبحي»، ولولا أني أعرف مقدارك عند المرحوم، ومقداره عندك ما أخبرتك، البنت مالت ميلة شنيعة، وتمشي على حل شعرها مع ولد مسلم، النَّاس رأوها تدخل بيته يا «صبحي»!

«السَّماء تلبدت بالغيوم، والسُّحب الحمراء في سواد الليل تتصادم، وتدوِّي بهزيم الرَّعد، وألسنة البرق تتلوَّى فتشرخ الفضاء الغاضب، أحد هذه الألسنة يضرب الصَّليب المكسور المغروس في أعلى برج كنيستنا، فينزعه ليلقى به فوق أحد أسطح البيوت القريبة، والمسيح يهوي من تحويمه في حجرتي، ليسقط على الأرض وهو يعوي، وثمَّة خنجر مرشوق في قلبه، على مقبضه مرسومة إحدى عينَي سيرين، سيرين قتلت المسيح، والمسلمون يمارسون هوايتهم في السُّخرية من الرَّب يسوع وشعبه، حتى في مملكته القائمة في أسيوط».

لا أعرف كيف انقضى الوقت، وبعد العشاء أغلقت المحل، ومضيت متجها إلى حجرتي، الشَّوارع هادئة، قليل من النَّاس، وبعض عساكر إنجليز يصخبون، وسيَّارة تمضي لتتبعها بعد حين سيَّارة أخرى، وقمر مكتمل يسير فوقي، يمشي معي، لكنِّي أذكر أنني في هذا الوقت كنت متمالكا نفسي تماما، كنت قد قرَّرت قتل «سيرين»، وكان هذا يسبب لي راحة خدَّرت أعصابي.

وصلت إلى باب عمارة المعلِّم «نظير»، ولأوَّل مرة، وأنا الذي دلفت من هذا الباب سنين طويلة، أنتبه لضخامته، وأنه من حديد تشابك والتوى ليرسم ملاكين على ضلفتيه، بينما دارت الصُّلبان تؤطِّر أعلاه.

صعدت السلالم الواسعة، كانت تلمع بنور مصباح باهت تدلَّى من السَّقف العالي للمدخل، وعند باب شقة المعلِّم «نظير» توقَّفت.

باب خشبي ثقيل، له شرَّاعتان من زجاج أبيض مغبَّش، احتمتا بشبكة حديدية زرقاء مزوَّقة.

طرقتُ الباب، ومع الصَّمت بدأ قلبي يخفق، ثمَّة مفتاح لجرس كهربائي بجوار الباب، ضغطت عليه، فأطلق صليلا حادا، وسمعت حفيف خطوات خفيفة تقترب.

جاءني صوتها: من؟

- «صبحي».

إنها السَّاعة التي قبل الفجر تماما، أحلك ساعة، وساعة الصَّقيع، ووقت الحزن، وبكى الرَّاهب «يوأنَّس»، ونشج، والنَّار ارتسمت في دموعه، ووجهه توهَّج بنورها.

قال: فَتَحَت الباب وأطلَّت في عينَي، توهَّجت فرحة خاطفة في عينيها، ثم انطفأت.

لا أعرف كيف قتلتها حتى الآن؟! كيف هانت عليّ؟! هل كنت ممتلئا بالشَّيطان إلى هذه الدَّرجة؟! إلى حد البلادة...

وقتها كنت أظن أنني ممتلئ بالمسيح!

- ماذا تريد؟

- أريدك أنت.

- لكنِّي سأخرج الآن.

- أحتاج الكلام معك.

صمتت، فقال بنبرة حالمة: سأنتظرك في غرفتي.

«إلى أين ستخرج هذه العاهرة؟! بالتأكيد تنوي الذِّهاب إلى عشيقها المسلم، الكافرة، لن تتمكن أبدا من الذهاب إليه بعد الحين، فهي ابتداء من الآن تعيش لحظاتها الآخيرة».

فتح «صبحي» باب حجرته، واتَّجه فورا إلى الصُّندوق الخشبي المجاور للوابور، الذي يضع به مستلزمات طعامه، طبق وكسرولة وحلة صغيرة وملعقتان، إحداهما صغيرة لتقليب الشَّاي، وسكيِّن صغير ذو نصل طويل قوي، اصطدمت يده بالسِّكين، فأمسك بها، وبسرعة خبَّأها تحت وسادة السَّرير، كانت دقَّات قلبه قد صارت ضارية، وتحت ضلوعه يتزلزل، أشعل عود ثقاب، وأضاء اللمبة «الكيروسين»، ونظر إلى فضاء غرفته، كان خاليا، لا مسيح، ولا روح المعلِّم «نظير».

ظهرت «سيرين» في باب الحجرة، واقفة، كأنَّها لا تريد الدُّخول، فقال «صبحي»: ادخلي.

قالت بصوت خفيض ساخر: ربما «المسيح» يكون في غرفتك، وروح المعلِّم «نظير» أيضا.

نظر إلى فضاء الغرفة وهو يهم يقول «لا»، لكنَّه فوجئ به، في قلب الفضاء، ينظر إليه متألِّما، وقد نشر كفَّ يده على جرح كبير عند قلبه، يبكُّ الدِّماء.

ابتسم «صبحي» ابتسامة شاحبة، فدخلت «سيرين»، وجلست على حافَّة السَّرير، من غير أن تغلق باب الحجرة كعادتها، فاتَّجه «صبحي» إلى الباب وأغلقه، فنظرت إليه «سيرين" نظرة مندهشة.

– جلستُ على الكرسي الواطئ، أمام وابور الجاز، وأخذت أعدُّه للاشتعال، بينما أفكر في كيفية قتلها، كيف أغرس فيها السِّكين؟ وأين؟ أي منطقة في جسد الإنسان إذا غَرَست فيها نصلا حادا، يموت بسرعة، ومن غير ضجيج، ثم فكرت في جديَّة ما أنا مقدم عليه، هل فعلا سأصير قاتلا؟! وهل فعلا سأقتل «سيرين» بالتحديد؟!

سألتُها بصوت مرعوش: كنت ستخرجين لمقابلة هذا السَّافل!؟

لم تبد عليها أيَّة مفاجأة، بل خيِّل لي أني رأيت طرف ابتسامة على شفتيها، وقالت: من أخبرك؟

– إذًا ما سمعته صحيحا؟

– صحيحا أو غير صحيح، ما الذي يعنيك في هذا الأمر؟!

– يعنيني أن هذا السَّافل مسلم.

رأى «صبحي» زاوية شفتيها تتقلَّص، ليشع وجهها باحتقار غريب، فتظهر «سيرين» أخرى غير التي عرفها، «سيرين» قاسية ومتنمِّرة.

- فقط هذا الذي يعنيك؟! لو كان السَّافل مسيحيًّا لن يشغلك الأمر!؟ يا لها من خسارة.

ووقفت كأنها لُدغت وعندما همَّت بالتحرُّك ناحية الباب، أمسك «صبحي» بذراعها ليمنعها من المغادرة، فنظرت إليه نظرة طويلة متهكِّمة، قبل أن تجذب ذراعها، لتنفلت من قبضة يده، وتتحرَّك في اتجاه الباب.

في لحظة خاطفة، فكَّر في أن يخطف السِّكين من أسفل الوسادة، وينهال بها طعنا في ظهرها وعنقها، لكنَّه وجد نفسه يهرول ناحيتها، ويقبض على عضدها قبل أن تصل إلى الباب، ثم يجذبها بقوة، ويلقي بها على السَّرير.

بوغتت «سيرين» بهذا التصرُّف، وحاولت أن تعتدل، لكن «صبحي» كان قد جثم فوقها وهو يلهث، وأحاط عاتقيها بكفَّيه يدفعها للسكون التَّام.

- المسيحي عندما يركبك لا يفكِّر سوى في أنه يقضي شهوته مع عاهرة، لكن المسلم عندما يركبك، يركب كل المسيحيين، ويذل «المسيح».

- لم أكن أظن أنك سافل إلى هذه الدرجة.

حاولت نزع ذراعيه، بينما تطلق كلامها الملتهب: أنا التي أردت أن أذل مسيحك، وليس المسلم، أنا التي أردت أن أعطيك درسا، مسيحك

الذي يمنعك مني، لم يمنع المسلم مني، لو كان مسيحك مهتما بالأمر كما تظن لقتل المسلم قبل أن يلمسني.

مدَّت ذراعيها بكل قوَّتها، وأحاطت بكفَّيها رقبته، وهي تدفعه عنها، كانت تفح: مسيحٌ وهم، وروح المعلِّم «نظير» وهم، وأنت أغبى إنسان قابلته.

انسلَّت يد «صبحي» إلى أسفل الوسادة، وقبضت على يد السكِّين، بينما «سيرين» تواصل فحيحها: المسلم أذكى منك، عندما رآني أخرج إلهه من رأسه، وتمتَّع بي.

كانت هذه آخر كلمة لـ«سيرين» في الحياة، فلقد جحظت عيناها، بينما بؤبؤاها يدوران في محجريهما، وانفتح فمها ليشهق شهقة طويلة، ونصل السِّكين يمزِّق قلبها، ولهب اللمبة الكيروسين مستقرا في مكانه، كأنه لهب مرسوم في لوحة، لكنَّه يشع نورا أفلح في أن يرى «صبحي» على ضوئه ابتسامة «المسيح» المغتبطة، ونظرة حيرى في عيني روح «نظير» المستكينة في زاويتها قرب السقف.

* * *

سن الشَّمس يبزغ من الأفق، بالكاد يرسل نورا باهتا، ورمال الصَّحراء تصطبغ باللون الرمادي، والعصافير تشقشق داخل الأشجار.

ما زالت النِّيران تطقطق وهي تلتهم الحطب المكوَّم تحت الأكف الأربعة المبسوطة فوق اللهب، تمتص الدفء.

- كانت ليلة طويلة.

- نعم، ليلة طويلة.

- متى يعود «عبد اللّٰه»؟

- لم؟!

- سأعود معه إلى «الوعرة».

صمت الرَّاهب «يوأنَّس» طويلا، ونفض عن حجره حشرة نمل كبيرة، ونظر إلى قرص الشَّمس الذي ظهر مستديرا، مستندا بحافَّته إلى رمال الأفق، وقال: من كان منَّا بلا خطيئة فليُلقِك بحجر يا «حجيزي»، حتى أنا نفسي تتمنَّى لو أنها تعود إلى نجع «أبو ليلة»، ربما ما زال الصَّليب هناك مكسور فأصلحه.

مد يده وأمسك بعصاه، وتساند على يده الأخرى، ونهض واقفا، وقال: لا أحد يعرف متى يأتي «عبد اللّٰه»، لقد مضى بالأمس أمام عينيك، ربما يأتي بعد أسابيع، أو أشهر، عموما، أنت أمامك فرصة طويلة وممتدَّة، لتصغى في هذه المنافي إلى صوت روحك، لعلك تنقذها قبل فوات الأوان.

ابتسم «حجيزي» ابتسامة ساخرة، منهزمة، وقال: عمري ثمانين عاما يا مقدِّس، لقد فات الأوان بالفعل.

قال الرَّاهب، بينما يستدير للمضي نحو المدق الصَّاعد إلى الجبل: ربما تعيش عشرين عاما أخرى، عشرون عاما أخرى ليست بالزَّمن القليل.

كان يصعد المنحدر، بينما صوته الباكي ينساب إلى أذني «حجيزي»:

لنبدأ بدءا حسنا، ارحمنا إلى الأبد، الليل عبر، نشكرك يارب، احفظنا في هذا اليوم بغير خطيَّة، وأنقذنا.

14

الوَلِيفُ تَنسَحبُ رُوحُه لِبُعدِ الوَلِيفِ

أخذ «غنيمة» يزيح الرَّمل بمسحاته ويلقي به في الحفرة، يعيد ردمها، طالما أنه ليس بمستطاعه إخراج جثة «جاله»، فلن يسمح لضواري الصَّحراء بنبش الحفرة والفتك بجسدها الذي ربما يكون قريبا.

وبعد أن انتهى، جلس يفكِّر في حاله، لم يزل تائها، والشَّمس تميل نحو المغيب، ها هو مكان الغروب، هذا هو الغرب، لكنَّه لم يستطع رغم ذلك أبدا تحديد اتِّجاهه، لم يكن مستعدا للبقاء في نفس المكان لليلة أخرى، سكون المرتحل في الصَّحراء لو لم يكن من أجل استراحة، فهو خطوة نحو الموت، لابد من الحركة قبل نفاد الزاد والماء.

- إلى أين نتحرك؟

كان يوجه خطابه لكلبه، الذي يقعى على مؤخِّرته، ناصبا ذراعيه أمامه ويلهث، لكن الكلب أرخى أذنيه، وأطلق نباحا خافتا ممدودا مثل الأنين.

أمـا النَّاقـة فمسـتمرة في الاجتـرار، تفتـح عينيـن مطمئنَّتيـن غبيَّتين، لا تريان أن مشكلة هناك.

دار «غنيمة» برأسـه في كل الاتجاهات، كلها متشـابهة، رمال منبسطة مـن غيـر آخر، سـفيفة، رمـال خالية مـن أية معالـم، حتى هذه الأشـجار القصيرة لم تعد هناك بعد أن دفنها «الغرد».

«من قال لك أن هذه الناحية هي ناحية غروب الشَّـمس، ربَّما غربت، فـي تلـك النَّاحية الأخرى! مسـلك الشـمس لا يبـدو واضحا في سـماء صحراوات بلا معالم».

نظـر طويلا إلـى كلبـه المهموم، اللاهـث، ثم أعـاد سـؤاله: إلى أين نتحرَّك يا كلب يا ابن الكلب؟

- ليست العصافير فقط هي التي تصلِّي مرَّتين في اليوم يا «حجيزي»، الكلاب أيضا تصلِّي مرَّتين، مرَّة في الفجر، ومرَّة في العشاء، تسمعها كيف تعوي لما تسمع أذان «سعدون»؟! حتى الكلاب يا أخي تعرف الله! كلبي لمَّا سألته «إلى أين نمضي؟!»، رفع رأسه إلى أعلى، ونظر بعينيه إلى السَّماء، وعوى، فذكَّرني بالذي عنده الحل، وطريق الهداية، الكلب هو الذي ذكَّرني بالله يا «حجيزي».

قـرَّر أن يصلِّـي لله ركعتين، يسـأله فيهمـا النَّجاة، لكن مـا عملته معه «جاله» في ليلة الأمس أصابه بالجنابة، ولابد أن يغتسل.

الماء في القربة ليس بالكثير، طالما أنه لا يعرف نهاية متاهته، ورغم أنه يعلم أن هناك تيمُّما يمكن أن يتطهَّر به، إلَّا أنه لم يكن يعرف كيفيَّته، الأخذ من الماء الآن لمجرد الاغتسال هو تصرف يوجع القلب.

«قدِّم للّٰه يا غنيمة، بماذا ستفيدك قربة المياه لو بقيت ضالا في هذه المفازات، ستشربها ثم تموت من العطش، لكن لو هداك اللّه ربما تصل إلى النَّجاة وفي القربة مياه، قدِّم للّٰه يا غنيمة».

- في لحظة خاطفة غلبني الشَّيطان، ورمى في ذهني تساؤل، لماذا لا يقدِّم اللّٰه حلولا إلا إذا قدَّم له الواحد منا ما يملكه؟! لماذا دائما يتعامل بمنطق التُّجار، هات وخذ؟!

استغفرت اللّٰه بسرعة، عرفت أن الشَّيطان يريد قتلي، يوقعني مع اللّٰه، الكافر لا يعلم أن ما يقدِّمه اللّه لنا أكبر وأقيم بكثير مما يأخذه منا، سيأخذ اللّٰه قليلا من الماء، وسيهبني الحياة كلها.

رغم أن الصَّحراء بلقعا خاويا، إلا أن «غنيمة» جعل النَّاقة الرَّابضة ساترا، وخلع هدومه، وصار عاريا، وعندما دار الكلب ليأتي ويقعى في مواجهته، ضربة بحصوة، وهو ينهره: جررر، كلب ما عند الذي خلَّفك حياء.

- يتصرَّف الإنسان مثل الحيوانات يا «حجيزي»، كانت الصَّحراء ما فيها شكل ابن آدم على مدى البصر، وليس معي سوى ناقة بهيمة، وكلب لا يعقل، وأصر رغم ذلك على السُّترة من عريي! مثل القط الذي يقضي

حاجته على الحجر الصَّلد، ويصر، بعد انتهائه، على تحريك ذراعه كأنه يدفن خراءه، وهو لا يدفن شيئا، الغريزة تحكم الجميع، عاقلًا أو غير عاقل.

يصب «غنيمة» الماء من فم القربة على كفِّه، ويدعك جسده، والرِّمال النَّاعمة على جلده تتحوَّل إلى معجون لزج، وحارق، فيضطر إلى صبِّ الماء بغزارة، وعندما انتهى، كان الماء قد شارف على النَّفاد، وفرصة النَّجاة كذلك، فنظر إلى الماء المتبقَّى، ودق قلبه هلعا، سينفد الماء قبل أن يصل إلى أي أفق من هذه الآفاق، وليت الحياة تكون عند الأفق، ربما بعد الأفق آفاق أخرى.

صلَّى للّٰه واقفا، وصلَّى راكعا، وعندما سجد، وانكفأت رأسه في الرِّمال، لسعته حرارتها، لكن حرارة دموعه كانت أسخن، وسخونة مأزقه كانت أشد لهيبا، واستعمل قلبه، كان لابد أن يستمع اللّٰه إليه، وإلا مات.

- رأيته يا «حجيزي».

- رأيت من.

- رأيتُ اللّه.

- أنت رأيت اللّٰه؟!

- رأيته.

- طيِّب! وما شكله يا ابن الكلب.

إنســان ضخم لا مثيـل لضخامته، الصُّخور الشَّـاهقة هـذه التي حول جبَّانتنـا تحـت قدمه مثـل ذرَّة رمل، رجل جميـل الوجه، ملـيء بالحنان والحب، عمره في الخمسـينيَّات تقريبا، يلبس على رأسه تاجا تتقلَّب فيه جواهر مثل الشُّـموس، ويرتـدي قميصا لونه أبيض زهـري يكب أنوارا، وأصابـع يديـه مُلبَّسـة خواتم وهَّاجـة، تشـع ألوانا مضيئـة، وكان يجلس فوق شـجرة تلتمع ببروق خضراء، وقدماه مدلَّيتان، وليس فيهما خف أو حذاء.

- يا رب، انقذني.

- سأنقذك.

- الحمد لك يا رب.

- لكن ليس قبل أن تدفع الثَّمن.

فـي هذه اللحظة أردت أن أسـأله: لماذا وأنت اللّـه الكريم، لا تعطي الإنسان شيئا إلا وتأخذ منه ثمنا؟!

خجلت، ولسـاني عجـز، لكن اللّه يا «حجيزي» يعلـم ما في النُّفوس فعلا، كأنه سمع سؤالي، فقال لي: لا يحيا الإنسان إذا أخذتُ منه من غير أن أعطيـه، ولا تتحقـق قيمته إذا أعطيته فقط، من غيـر أن آخذ منه، هكذا يصير مجرد عبد، وأنا ما خلقت الإنسـان ليكون عبدا دنيئا، يأخذ من غير عطـاء، وإنمـا خلقته خليفة لي، ربًّا على هـذه الأرض، كما أنا أعطي، هو يعطي أيضا، وكلَّما أعطى بالرِّضا، صار ربًّا أقوى.

نظـر «حجيـزي» في عينـي «غنيمة»، ثم قـال: أنا أصدِّقك هـذه المرَّة يا «غنيمة».

- لماذا تصدِّقني هذه المرَّة؟!

- هذا الكلام الذي قلت أن اللّه قاله لك، كلام موزون، ومعانيه عالية، وأنت حمار لا تستطيع تأليف مثل هذا الكلام، آخرك الكلام عن «شقمق» بيك.

- طيِّب، المهم، دعني أكمل لك...

- هذا كلام سمعت مثله من «المسيح» نفسه.

نظر «غنيمة» إلى «حجيزي» نظرة مشفقة، وقال: أنا الذي لا أصدِّقك هذه المرَّة يا «حجيزي»!

* * *

النَّاقتان رابضتان في متَّسـع بين القبور، الشَّـمس غابـت تماما، وكان «بكيـر» قد عمل شـايا، ومد يده بكوب إلى أبيه، وبحركـة لا إرادية أخذه «حجيزي»، بينما مال برأسه ناحية القبر الجديد، مستغرقا تماما في سماع صوت «سـعدون» المدفون تحت الرِّمال، ولم يكن بمقدور «بكير» فعل شيء غير النَّظر إلى أبيه باندهاش صامت.

..... - أنا أخطأت لمَّا سـمعت كلام «زليخة»، كانت تريد سـعادتي، لكنَّها أهالت عليّ الأحزان، وأوَّل الأحزان كان موتها.

الوليـف تنسـحب روحـه لبعـد الوليـف، ويتبخَّـر لحمه عـن عظامه مـن حريـق الوجـد، فينحل، حتى يمـوت، ولم يكن «سـعدون» بالنِّسـبة لـ«زليخـة» مجـرد زوج، كان وليفا، وكانت فـي كل صباح من صباحات عرسـه، تحمل صينية واسـعة، عليها أطبـاق الفطور، ممتلئـة بزبد وجبن ولبن وبيض، وحلوى العجوة، وتذهب بها إلى باب غرفته، وتطرق طرقة مستحيَّة، يسمع «سعدون» الطَّرقة فيرتبك، ويدفع «بثينة» كي تفتح الباب، فتقول له: افتحه أنت.

فيهمـس لهـا وهو يـكاد يبكي: حـرام عليكي، مـا أسـتطيع النَّظر في عينيها.

وتقـف «زليخـة» تنتظر طلَّة وجه «سـعدون»، تريد رؤية السَّـعادة في عينيـه، وتريده يرى الحزن في عينيها، لكن دائما يطل وجه «بثينة»، باردا، تأخذ منها الصِّينية، ولا تعرف ماذا تقول، فتغلق الباب.

وتقف على الباب وهي تحمل الصِّينية الواسـعة، رصَّت فيها أصناف طعـام الغـداء، الفطيـر الرقـاق، وطاجـن المـرق المعبَّـأ باللحـم، وطبق الملوخيـة، وطبـق الفاصوليـاء، وخبـز. ويطـل وجـه «بثينـة»، ولا يظهر «سـعدون»، وتأخـذ «بثينة» الصِّينيـة، وجهها بارد، لا تعـرف كيف تنطق كلمة شكر، إنما يركبها الحياء، فلا تعرف ماذا تقول، وتغلق الباب.

وكذلك في العشاء، تحمل الأطعمة، وتنتظر طلَّة «سعدون»، فلا يطل، ليبدأ عذاب الليالي.

عندما دخل «سعدون» بعروسه في أوّل ليلة، دخلت «زليخة» غرفتها، فما عرفتها، أحسَّت أنها قد دخلت مكانا غير مكانها، مكانا يشبهه، نفس الدُّولاب، والسَّرير، والمرآة المعلَّقة على الحائط، والكرسي الخيزران القديم، لكن مواتا باردا يحيط بكل هذه الأشياء، بينما أشياؤها، التي عاشت معها كل هذه السِّنين الطَّويلة، دائما تكون حيَّة ودافئة.

وقفت فترة بجوار الباب، قدماها ثقيلتان، تريدان الدَّوران إلى الخلف، والخروج، لكنَّها من غير شعور، وجدت نفسها على السَّرير، متكئة على وسادتيه العاليتين، وعيناها تدلقان ماءً حارا، وصار السَّرير صحراء واسعة، تتوه فيها وحيدة، وليلها زمهرير، فتدلَّت من السَّرير، وتركت الغرفة.

كان باب الغرفة الأخرى في مواجهتها، غرفة العروسين، فانقبض قلبها واعتصر، لكنَّها مضت إلى عمق البيت المكشوف للسَّماوات، السَّواد العلوي، وبريق نجوم أخَّاذ، وقط يمضي بحذر المفترس على أحد الجدران، ودجاجة تقأقئ قأقأة مفاجئة مذعورة، ودفعت «زليخة» باب غرفة الخزين، فانسكب الظَّلام في وجهها، لكنَّها تلمَّست طريقها إلى أقرب جوال من الأجولة المملوءة بالذُّرة الشَّامية، جلست عليه، ثم فردت جسدها، ونامت في الكوابيس.

بعد مرور السَّبعة أيام التَّعريس، لم يكن هناك مفر من أن يترك «سعدون» غرفته، ويخرج ليمارس الحياة، التي يبدأها بأذان الفجر، فطلع من الباب ينظر إلى الأرض، مخافة أن يصطدم بـ«زليخة»، فتأتي عيناه في عينيها، فيرى ما لا يحب أن يرى.

وأذَّن «سعدون»، فحمل الهسيس صوته إلى أذني «زليخة»، فاعتدلت من منامها على جوال الغلَّة، وأخذت تسمع بقيَّة الأذان، مثل الأيام الخوالي، أذان رائق خاشع، يخرج من قلب راض، فيحرِّك الكوامن، لتطير بالسَّامع إلى سماوات اللّه.

وعندما انتهت الصَّلاة، وشقشقت العصافير، حمل «سعدون» هَمَّ العودة إلى البيت، وعندما دفع الباب ودخل، حدث الذي خشيه، وجاءت عيناه في عيني «زليخة»، فرأى الذي لا يحب أن يراه، ذبول الرَّونق، وغيض البهاء، وسهام عتاب ترتشق في قلبه، هاله نحول «زليخة»، واتِّساخ ثيابها، وجفاف شعرها، فوضع نظره على الأرض، وانطلق إلى غرفة «بثينة»، وأغلق الباب، وارتمى على السَّرير، الذي أحسَّته «بثينة» يرتعش، فاستدارت في مضجعها، ونظرت إلى «سعدون»، فرأته يبكي.

- مالك يا «سعدون»؟!

- «زليخة» تذبل.

- اذهب إليها الليلة، واجبر خاطرها.

- ما أقدر، خجلان منها.

- تريد أن تتركها حتى تموت؟!

- جاء الليل يا «حجيزي»، وخرجتُ من غرفة «بثينة»، ساقاي تحملان قلبا ثقيلا مثل جبل، فتتحرَّكان ناحية غرفة «زليخة»، تزحفان زحفا، ماذا أقول لها ؟! وهل ستقول لي شيئا، أم إنها ستنظر لي نظرة مرَّة، مثل تلك التي نظرتها لي بعد صلاة الصُّبح وتسكت؟! وماذا لو قالت لي كلاما يذبح؟ وماذا أقول لو أنها بقيت صامتة؟

وجدت نفسي ملاصقا لبابها، ورفعت يدي، ووضعتها على الأكرة، وأدرتها، فاصطدمتُ بالظَّلام، تحب «زليخة» دائما النَّوم في عتمة الحلك.

تنحَّمت حتى تنتبه لدخولي إن كانت نائمة، وحتى أشجع نفسي إن كانت مستيقظة.

لم أسمع صوت حركة، حاولت أن اخترق الظلام برؤيتي، فلم أر شيئا، اقتربت من السَّرير، شيء ما أحسست به يقول: «زليخة» ليست في السَّرير.

مددت يدي أتحسَّس الفراش، ولم أجدها فعلا، ففزعت، كان الفراش مرتَّبا، لا يوحي بأنَّها كانت تنام فيه وخرجت مثلا لقضاء حاجة، كان الفراش مرتَّبا، يوحي بالهجر، أين ذهبت المرأة؟!

أخذت إحدى اللمبات العويل، أشعلت فتيلها، وخرجت أبحث عنها في كل أركان البيت التي من الممكن أن تكون قد ذهبت إليها في هذا الليل، ركن الطبيخ، الكنيف، الفسحاية، العشش، لم تكن موجودة في كل هذه الأماكن، وعندما وصلت إلى أعلى درجات القلق، لمحت عيناي باب غرفة الخزين الموارب، ذهبت إليه، ودفعته، وعلى الضَّوء المتراقص رأيتها هناك، نائمة على الجوال الممتلئ بالغلَّة.

لم تكن نائمة، إذ أنني ما إن دخلت الغرفة حتى اعتَدَلَت، وقفت مكاني، ولم أستطع الاقتراب منها، لكنِّي سألتها: لماذا تنامين هنا يا «زليخة»؟!

لم ترد على سؤالي، وبقيت مشيحة بوجهها عني، تنظر إلى بؤرة مظلمة بين قدميها.

يا «زليخة» يا شقية، من الذي أشقاك؟ أنت أم أنا؟ أنت لمَّا اقترحت عليَّ الزواج من أخرى؟ أم أنا لمَّا وافقت؟!

انفتح قلبي يا «حجيزي»، ففاض بكل شوقه إليها، وصَعُب عليّ حالها، وصَعُبت عليّ نفسي، فوجدتني أندفع ناحيتها، وأجلس بجوارها وأبكي، وحرقني البكاء فأجهشت، وكادت اللمبة تسقط من يدي.

«زليخة»! آااه يا «زليخة»، ما كانت «زليخة» زوجتي وحبيبتي وفقط، كانت أُما يا «حجيزي»، لديها غفران تمنح منه فلا ينتهي، أخذت اللمبة من يدي، ووضعتها على الأرض، وقالت: أنا ما أعرف غير «سعدون» الذي يضحك، اضحك يا «سعدون».

قلت لها: أضحك لو جئت معي إلى غرفتك.

- غرفتي؟!

- غرفتنا.

- لي شرط.

- أشرطي.

- لا تنم مرة أخرى عند «بثينة»، أنت زرعت البذرة ورويتها، ما عادت هناك ضرورة للذِّهاب إلى الغيط.

- الغيط يحتاج صاحبه يطل عليه ويتابعه.

- لكنه لا يحتاج لرمي بذور جديدة، ما أمنعك من الطل، أمنعك من البذر، هذا شرطي.

- لكن «بثينة» ليست غيطا، إنها امرأة لها حقوق يا «زليخة».

قالت بحدة وصرامة: هذا شرطي، وإلّا دعني لحالي، واذهب لحالك.

أنا سكت يا «حجيزي»، وهززت رأسي بالموافقة، وقلت لها: طيِّب، اذهبي استحمي، رائحتك صارت عفنة.

لكزتني في كتفي، ووجهها انشرح، وأنا سبقتها إلى غرفتها، أفكِّر في شرطها.

قال «حجيزي»: وماذا فعلت؟!

- كنت أغيب وأقضي وقتا عند «بثينة»، وبعدما أنتهي أذهب إلى غرفة الخزين لآخذ «زليخة» إلى غرفتها، كنت أقول لها: اكتشفت بورة في الغيط لم تكن مبذورة فبذرتها.

انطلق «حجيزي» يقهقه، لم تكن عادته القهقهة أبدا، دائما إذا ضحك يبتسم فقط، كأن القهقهة تؤلم عضلات وجهه، لكن أن يزيد الأمر إلى حد الاستلقاء على الرِّمال، فهذا هو الذي جعل «بكير» ينظر إلى أبيه وقد أخرسه المشهد تماما، هل جُن «حجيزي»؟! يجلس أمام قبر، ينصت لميِّت، ثم يقهقه حتى يستلقي على ظهره؟!

* * *

«الوعرة» انقلبت ترغي مثل النُّوق بحكاية تمثال «سكيرة»، واشتهر في بيوتها أنَّه لولا أن «سليم» ولد «بكير» عشقها ما كان عمل هذا الصَّنم، فغضب «رسلان»، ولم يكتف بحلف يمين الطَّلاق من أمِّها إن أقدمت «سكيرة» على الخروج من البيت، وإنما ذهب إلى «حجيزي»، فوجده جالسا على المصطبة، ومن غير سلام قال: تكون يا عم «حجيزي» خصومة ليوم الدِّين بيني وبينك، لو لم تحطِّم هذا الصَّنم الذي نحته وَلَد «بكير».

- هذا والله منتهى العجب! أين الأصول يا «رسلان»؟! قل أوَّلا السَّلام عليكم واجلس.

- لا سلام ولا جلوس قبل أن تحطِّموا صنمكم، تريدون تشويه سمعة البنت؟!

- تقصد التمثال الذي عمله «سليم» في الصَّحراء البعيدة؟

- بعيدة أم قريبة، ما تفرق، المهم هناك قُطران أسود يخرب البيوت.

- طيب اجلس وتكلَّم ما تحب.

- لا يا شيخ «حجيزي»، حطِّم الصَّنم حتى لا يتحطَّم الذي بيني وبينكم، وإلَّا أذهب لأحطِّمه، فيتحطَّم كل الذي بيننا، أمامكم ثلاثة أيام.

تنهَّد «حجيزي» وقال: ما أعرف ما الذي يضيرك من هذا التمثال.

ابتسم «رسلان» ساخرا، وقال: كأنك لست من أهل البادية والعرب!؟

أشاح «حجيزي» بذراعه وهو يقول: والله أنا كرهت باديتكم، وكرهت العرب، هذا يا رجل يا عبيط تمثال يخلِّد «سكيرة»...

زعق «رسلان» مقاطعا الكلام: يخلِّد «سكيرة» ويقتل سمعة أهلها، كلامك هذا لا نفهمه يا شيخ «حجيزي»، احكِه مع صاحبيك، لكن لا تحكِه لي.

وذهب «رسلان» وصدره يغلي مثل المراجل، والشَّمس تشعل النِّيران.

«يحيون بقلوب مقفلة، يؤلِّهون تقاليدهم، ويحطِّمون الجَمَال، يخترعون قيما قاسية، كأنهم يحبُّون تعذيب أنفسهم، ما أردت من الإنسان تقديس ما يفقده بهجته، أو ما يمنع خلوده، الآب الذي أرسلني قال لي هذا، وقال إن مسرَّته في أن يصير الإنسان ربا، لا عبدا، الآب أرسلني لأعلم هذه الحكمة، ولأكرِّز بأن المجد لله في الأعالي».

هذا كلام قاله «المسيح» لـ«حجيزي» في تلك الأيام التي قضاها في جبل الرَّهبان، لكن «حجيزي» لم يستطع قوله بهذه الدِّقة، لمَّا جلس مع صاحبيه «سعدون» و«غنيمة»، وإنَّما قال: ناس قلوبهم مغلقة، يعذِّبون أنفسهم ويعذِّبون من حولهم، ماذا يضير «رسلان» لو سكت؟! تقاليد؟! ملعون أبو التَّقاليد التي تعذب النَّاس، الولد «سليم» بعد أن يتعب كل هذا التَّعب نحطِّم تمثاله؟!

قال «سعدون»: نحطِّم التمثال أفضل من المشاكل.

وكركبت حنجرة «غنيمة»: واللّه المشاكل أهون من تحطيم هذا التمثال، خسارة.

وفي المغارب عادت القطعان من مراعيها، وعاد «سليم»، فنادى عليه «حجيزي»: «سليم».

- نعم يا جَد.

- غدا تحطِّم هذا التمثال، عمُّك «رسلان» غاضب.

- ما للتمثال وما لعم «رسلان»؟!

- التمثال لابنته «سكيرة» يا «سليم»، أنا ما أحب اللف والدوران.

وظهر «بكير» قادما من عند المسجد، غاضبا، وعندما اقترب من أبيه وولده زعق: ولد يا «سليم»، باكر تذهب وتحطم تمثالك، كنت الآن سأسيِّح دم «رسلان» الكلب، إيَّاك أن تترك أحدهم يحطِّمه، ولكن حطِّمه بيدك.

* * *

الأغنام نشيطة، تمشي مهرولة نحو مراعيها، تترك خلفها ما لا يُعد من البؤر على سطح الرِّمال، شمس الصَّباح حانية، ونسيم الشُّروق باهيا، والرُّعاة الصِّغار يمرحون خلف قطعانهم، و«سليم» يحمل معولا على كتفه، ويحمل في صدره قلبا يتصدع.

«كم نهار من النَّهارات القائظة قضيتها وأنا أنحت تمثال «سكيرة»؟ كم شظية أصابت بشرة وجهي ودخلت في عيني؟ كم مرَّة طرق الجاكوش أصابعي بدلا من الإزميل؟».

القطعان تتحرَّك نحو وجهتها في خط مستقيم، وبعض كلاب الرعي تمشي في جوارها مشيا ملولا، أحيانا تترك القطعان وتتَّجه إلى صخرة أو شجرة صغيرة، ترفع إحدى ساقيها الخلفيتين، وتقذف بولها بسرعة.

و«الوعرة» تبتعد تخلُّفا.

فكَّر «سليم» في أن حبس «سكيرة» في البيت ليس أمرا خطيرا، فهي له في نهاية الأمر، طالما أن قصَّة عشقه لها قد شاعت، لن يتقدَّم أحد للزواج منها، وسيضطر العم «رسلان» للموافقة على زواجه منها، وحتى إن رفض سيحتال من أجل الوصول إليها في محبسها، وإطلاق سراحها، والهروب سويا من «الوعرة»، إلى حيث بلاد النِّيل، ليختبئا في الزِّحام، ويتزوَّجا.

الرُّعاة الصِّغار يمرحون خلف قطعانهم، ولا أحد يشعر بهذه الآلام التي تأكل «سليم»، حتى «سالم» و«سلمان»، ها هما يتقافزان بين الرُّفقاء وهما يضحكان، لا يعيران ما هو فيه أدنى اهتمام.

ها هي «سكيرة» تظهر في مدى البصر، واقفة وقفتها الخجولة، والمِعول على كتف «سليم» يتنفَّس بعمق، ما أوقح شكل المعاول، كأنها مناقير طيور أكَّالة جيف، أو خناجر قتل، وكلما اقترب من التمثال، أحس أنه يسمع دقات قلبه الصَّخري، كأنه استشعر قدوم المعول.

وقـف «سـليم» أمام التمثـال، وقد وضـع المعول بين سـاقيه واعتمد على مقبضه الخشـبي الطَّويل، ينظر بعمق إلى عيني «سكيرة" الحالمتين، والنَّاظرتين إلى أسفل مستحيَّتين بينما تغرق بروحها في عبير الوردة التي تشمُّها.

«كم من الوقت بذلته وأنا أرسـم هاتين العينين؟ أنا منحتها من روحي هذه الحياة السَّارية فيهما».

مـد يده يتلمَّس الخدَّين المليئين، النَّاعمين مثل بشـرة عذراء حقيقيَّة، اندهـش، كأن التمثـال دافئ، رغم بـرودة فترة الصَّباح، وضـع كفَّيه على الصِّدغين الموردين يريد التَّأكد ممَّا شـعر به، كان التمثال فعلا دافئا، كأنه حي، كأن «سكيرة» هي من تقف الآن، وكأنها ستغادر وقفتها، وتتحرَّك.

نزع كفَّيه من على صدغيها، فرآها تدير رأسـها وتنظر إليه نظرة صامتة طويلة، ارتعش، بينما جَمد مكانه فصار صنما هو الآخر.

- تحمل معولك تريد تحطيمي؟!

- أنا أحمل المعول، لكنِّي لا أريد تحطيمك، أنت يا «سكيرة» عالمي.

- فلماذا تحمل المعول؟!

- حملته حتى لا تراق الدِّماء، الخصومة ستتَّقد بين عائلتينا، وأنا أريد «سكيرة»، ستروح منِّي إن جرى الدَّم.

- لا تحطِّمني بيدك، دعهم يفعلون ذلك.

- لا أستطيع أن أتخيَّلك بين هؤلاء الهمج، وهم يرفعون المعاول بقلوبهم الكارهة، ويفتِّتونك إلى مئات القطع.

- وأنا سأموت فعلا لما تفتِّتني أنت.

- أنا لن أفتِّتك يا «سكيرة»، كيف أفتِّت حبيبتي؟!

رفع «سليم» معوله، وهوى به إلى جِذر التمثال، إلى أسفل القدمين الموضوعين في خف أخضر، ومع صوت ارتطام سن المعول بالصَّخر تجمَّع الرُّعاة حول التمثال، كان «سليم» لا يمس التمثال بضربة واحدة، لقد قرَّر أن ينتزعه سليما، وكانت السَّماء قد التمعت بالزُّرقة، والشَّمس بالبرتقالي.

* * *

- أنا ما فهمت شيئا من كلام اللّٰه لي، ما معنى أنه خلق الإنسان ليصير ربا لا عبدا؟!

سكت «حجيزي» طويلا قبل أن يقول: أنا يا «غنيمة» لست بقارئ مثلك، لكن اللّه كريم ويحب أن يكون الإنسان كريما مثله، واللّه رحيم ويحب أن يكون الإنسان رحيما مثله، اللّه وضع الإنسان في الأرض خليفة له، والجنَّة لكل من استطاع أن يكون ربا خليفة، والنَّار لكل من لم يحقق مراد اللّٰه، وأصر على أن يكون مجرَّد عبد.

همس «غنيمة»: يمكن!

قلت له: كيف ستنقذني يارب؟

«اركب ناقتك ودَعها تمشي بخيارها، الإبل عجائب الصَّحراء».

ركبت النَّاقة، كان الظَّلام قد بدأ يفرد عباءته، وأخذ الكلب يُرقِّص ذيله ويهز رأسه وقد أرخى أذنيه، كأنه سعيد بالتحرُّك، لم أنهز الناقة لتتحرَّك، وإنما بقيتُ ساكنا فوقها، وبقيَت هي ساكنة أيضا لفترة طويلة، تنتظر مني توجيهها، وعندما لم يحدث، استدارت وهي ترغي، ثم غذَّت السير تخترق العتمة المقبلة.

لماذا استدارت النَّاقة؟ بالتأكيد استدارت لأنها تعرف أن السَّلامة في هذه الجهة، فأحسست بالرَّاحة، وعلمت أن عيون النُّوق ليست متبلِّدة، وإنما حكيمة، وواثقة، هذه الإبل تتركنا نقودها أحيانا إلى حتفها، رغم أنها دائما تعرف طرق السَّلامة، وها هي ناقتي تغذو السير في إحداها.

لم تقابلني «جاله» غير هذه المرَّة الوحيدة، فكيف أمكنها أن تتعامل معي بكل هذا الحب؟! عيناها شبعتان بالأنس، وقلبها عمران بالألفة، كأني رأيتها قبل ذلك، لكن لا أعرف أين، لن ألحق بـ«الزبير»، سيمضي الجاحد من غير أن يحاول رؤيتي، كأني لست أبيه.

كان القمر يبزغ ذهبيًّا، وبدأ قلبي يعاني من ضربة قلق مفاجئة، كيف أسلِّم مصيري إلى ناقة؟!

«تسلِّم مصيرك إلى ما أمرك الله أن تسلِّم إليه مصيرك، اهدأ ولا تجزع، وثق بالله، الذي ما أخلف مواعيده».

- المهم يا «حجيزي»، النَّاقة ظلَّت تدب في الصَّحاري طوال الليل، ونعست فوقها من هدَّة التعب، ولما فتحت عيني، كانت الشَّمس

تشرق، والنُّور ينتشر، وما حولي من فراغ ممدود، يشي بما هو موجع، كأنني يا «حجيزي» ما تحرَّكت خطوة واحدة، نفس المشهد، رمال لا تنتهي، ورأس النَّاقة شامخ أمامي، والكلب يسعى تحتها، أحسست بجوع شديد يفترس معدتي، فأنخت النَّاقة، وتناولت من خُرجها كسرتي خبز، ألقيت بواحدة للكلب، وأكلت الأخرى، لم أغمسها بالجبن خشية العطش، وإنما أكلت طعاما ممزوجا بالخوف، وشربت ماء مخلوطا بالقلق.

كنت أفكِّر في أنه ربما عند قدوم الليل سنصل إلى عمار ما، لكن أتى الليل ولم يأت العمار، وبقيَت نفس اللوحة الثَّابتة، التي لا تعطيك أي إحساس بأنك تتحرَّك، رمال بلا أفق، وصخور صغيرة ناتئة هنا وهناك، قلت لنفسي: لماذا لم أضع شاهدا على الحفرة التي انطمرت «جاله» تحتها برمال الغرد؟! ربما في يوم من الأيام أستطيع الوصول إليها فأبني لها قبرا يليق بها.

ابتسمت بطرف شفتَي، بسمة مريرة ساخرة، وقلت لنفسي: لمَّا تنجو أنت أولا، وتضمن أن جسدك لن تأكله ضواري الصَّحراء، فكِّر في قبر لـ«جاله»، يكفي أنك ضيَّعت وقتك ومجهودك وماءك من أجل أمر غبي، عندما أخذت تحفر وتحفر وتحفر، ألم يدر ببالك أبدا أنك تحفر لإخراج جثَّة؟ ماذا كنت ستصنع بجثَّة؟! حتى وإن كانت جثَّة «جاله»؟! أدركت هذا في آخر لحظة! لما استنفذت رصيدا ليس بالهيِّن من فرصة النَّجاة، يا لحماقتك يا «غنيمة».

كم شـمس عبرت السَّـماء؟ كم قمر؟ هزل الكلب، وأكيد هزلت أنا، وعندمـا ضربـت يـدي في الخُـرج، وأخرجت آخر كسـرتين مـن الخبز، أيقنت أنني صرت على مشـارف هلاك حقيقـي، فحتى قربة الماء لم يعد بها سوى قطرات تجمَّعت في قعرها، وفكَّرت طويلا، وأنا أنظر في عيني الكلب المعلَّقتين بكسـرة الخبز، في أن أحتفظ بهذه الكسرة الأخيرة لي، لكـن جوع الكلب البادي في عينيه، تلك النَّظرة الرَّاجية، جعلني ألقي بها إليه، وأنتظر عوض اللّه، لكن أين اللّٰه؟! ألـم يقل لي إنه سـينقذني؟ لماذا إذًا لا ينقذني وينهي هذا العذاب؟

أوقف «غنيمة» النَّاقة، كانت الشَّمس في كبد السَّماء، والرِّمال ملتهبة، لكـن عـذاب «غنيمة» كان متأجِّجا، فلم يشـعر بسـعير الرَّمـل وهو يلفح جبهته المغروسة في الرِّمال يصلِّي للّٰه.

- يارب، قلت إنك ستنقذني، وها هو زادي ينفد، والصَّحراء باقية على حالها، ما لها حد.

- أليست النَّاقة تمضي بك؟

- إنها تمضي بي، لكنَّها على ما يبدو تمضي في عماء، ربما تدور في مكان واحد.

- في متاهة الصَّحاري ألقِ قيادك إلى ناقتك، اركب ناقتك والزم الصَّمت.

ركـب ناقته، ولـزم صمتا، ومضى يوم من غير كسـرة الخبز، ويومان، فاضطر إلى إخراج الجبن المالح، التهمه هو والكلب، وليس هناك ماء.

ومضى يـوم، من غير خبز ولا جبـن، ونار الظَّمأ تشـوي جوفه، ولمَّا رأى الكلـب يلعـق حجرا، أخذ شـظية صخرة صغيرة، وضعهـا في فمه، وأخذ يمصها، لتستنفذ هذه الشَّظية آخر قطرات ماء ريقه.

ومضى يوم لاحت فيـه أنفاس «عزرائيـل»، كان الكلب قد عجز عن المشـي، فوضعـه «غنيمـة» بين يديـه على شـدَّاد النَّاقة، لكن حتـى النَّاقة نفسها ضعف مشيها، قضت أياما طويلة من غير طعام ولا ماء.

- أنخت ناقتي يا «حجيزي» لتستريح، لو ماتت النَّاقة مت معها، لكني كنت بالفعل أموت جوعا، وعطشا، ويأسا، وعندما رأيت الكلب ملقى أمامي من الوهن، خطرت الفكرة البشعة في رأسي، أن أذبحه وآكله، فيذهب جوعي، وأشرب دماءه فيذهب عطشي.

«إنهـا ليسـت فكرة بشـعة يا غنيمـة، إنها فكـرة خلَّاقة، وبـدلا من أن تمـوت أنت والكلـب، فليمت الكلب وتحيا أنت، وبهـذا يكون كلب قد أنقـذك من الرَّدى مرتين، مرَّة عندما ذكَّرك باللّه في الأعالي، فوهبك أملا في الخلاص، ومرَّة عندما وهبك حياته نفسه».

أخذ السِّـكين «المطواة» من مكانها في الشَّـداد الخشبي، كانت النَّاقة منيخـة مـن غير أن تجتـر، لم يكن في جوفهـا ما تجتره، حتى أن سـنامها قـد تهدَّل، وصار مثل وسـادة متهرِّئة، وكان الكلب، رغـم أنه ملقى على جانبه يلهث من فرط عطشـه، يتابع بعينيه تحرُّكات «غنيمة»، فرآه يسحب السِّـكين، ويشـد نصلهـا من منامـه، فيلتمـع في الشَّـمس، ثـم رآه يتقدَّم ناحيته.

عندما مال «غنيمة» منحنيا نحو كلبه، رفع هذا الكلب رأسه، ونظر في عيني صاحبه، كانتا تهطلان دموعا، ثم آخر ما رآه نافورة دماء تضرب وجه «غنيمة»، قبل أن يئن أنينا طويلا، ثم يرفس بأقدامه، ليكبس ظلام لم ير مثيله من قبل.

طالما أن الإنسان يجيد ذبح الخراف، لن يكون صعبا عليه ذبح كلب، لكن قد يصعب عليه لو أن الأمر يجري تحت ضغط ظروف غرائبية، فقد كان أول ما اهتم به «غنيمة» هو أن يشرب أكبر قدر من الدِّماء المتدفِّقة، ليس ثمَّة اهتمامات عنده بالطعم، فقط هناك حريق بداخله، ويريد إطفاءه بأي سائل يتيسَّر وجوده، كان يجرع الدِّماء كأنها ماء، ولم يتأفَّف إلا مؤخَّرا، بعد أن انطفأ الحريق.

فجأة بدأ يقيئ كل ما شربه، وكلما رأي دماء تتدفَّق من فمه إلى الرِّمال نبح، وحمل جثَّة كلبه، وصعد إلى شدَّاد النَّاقة، ونخسها، فقامت تترنَّح، وفي الأفق ظهر اسوداد، وسواد الآفاق في الصَّحراء يعني الحياة، وظهرت صخور عالية، فصرخ «غنيمة» مثل المجانين، حتى النَّاقة اعتدل مشيها، اتَّزنت مهرولة نحو السَّواد، وأخذ «غنيمة» يرفع ذراعيه إلى السَّماء ويهتف: الحمد لك يارب، الحمد لك يارب، وعدتَ وما أخلفت.

وفي تمام غمرته بفرحة النَّجاة، وهرولة النَّاقة نحوها، انسلت جثَّة الكلب من على الشدَّاد، وسقطت بعنف على الرِّمال، وتقلَّبت مثيرة الغبار قبل أن تستقر هامدة، ونظر إليها «غنيمة» نظرة أسى، ولم يجد في نفسه العزيمة الكافية لإيقاف ناقة بدأت تركض نحو مشارف الحياة.

بكى «غنيمـة» وهو يقول لـ«حجيـزي»: أحيانا تضطرنـا الظُّروف ألَّا نهتـم بنهايات من أعطونا كل حياتهـم، بقيت نهارا أحفر من أجل «جاله» التي عشـت معها سـاعة، أما الكلب الذي أعطاني حياته، تسقط جثَّته في العراء، فأتركها نهبا للضَّواري! يعلم اللّٰه أني ما حملته معي على النَّاقة إلَّا لدفنه، لكن الظُّروف.

العصافير تشقشـق تطلب الدِّفء، تتحوَّل شجرة الجميز في المغارب إلـى عمـارة اللقيا بعد شـقاء النَّهـار في مطـاردة أرزاق صعبة رغم يسـرة وجودهـا، يُصعِّبهـا الإنسـان بمطاردتـه لهـذه العصافيـر بالمقاليـع مرة، وبالفخـاخ المدفونـة مرة، وبهذه الشُّـخوص التي ينكتونهـا في غيطانهم وحقولهم مرَّة أخرى.

العصافير ستشقشق في المغارب، وفي كل شروق.

15

المَجدُ للّٰه فِي الأَعَالِي

تنقضي الأيام، وتهلـك الليالي، وقافلة «عبد اللّٰه» الصِّغيرة لا تجيء، و«حجيـزي» يجلـس فـي سـفح الجبل، يـرى الغـزلان تقترب بمشـافر أفواههـا من أيادي رهبان مملـوءة بفتات الخبز الجاف، تأكل آمنة، ويرى الذِّئـاب تطوِّف مثـل كلاب، ويرى الرُّهبان جُثثًا متحرِّكة، يمشـون ببطء، عضلات وجوههم تيبَّست على رسم حالة من البؤس، لا يتخاطبون فيما بينهم، ربما تبادلوا ابتسـامات شاحبة، ربما قال أحدهم للآخر كلمة فيهز الآخر رأسـه، كانت أجسـادهم قد بلغت درجة مفزعة من الهشاشـة، لو سـقط أحدهم لأي سـبب ربما يتفتَّت، لذلك يتحرَّكـون دائما ببطء، مثل حرباوات، يذهبون إلى الأشجار ويأكلون من أوراقها.

لم يعد «يوأنَّس» الرَّاهب يجلس مع «حجيزي»، وفي آخر جلسة، منذ أيام طويلة، قال له السِّـر: الحديث معك يا «حجيزي» يحيي رغبة وأدتُها منذ سـنين طويلة، كلامي معك ينفخ فيها الرُّوح، أتكلَّم معك فأشـعر أني أحب الدُّنيا، تعيد لي ذكريات قاسـية لكنَّها تمنحني إحساسا جميلا بأنني

كنت واحدا من النَّاس، مغموسا في الآمال والمشاكل مثلهم، لا مجرد مطرود في الفيافي، أتكلَّم معك فأشعر بالرَّغبة في العودة إلى نجع «أبو ليلة»، لكن هذا عذاب يا «حجيزي»، عذاب أن ترغب شيئا مستحيلا، فلا الجسد صار حمل سفر، ولا الرُّوح صارت حمل غربة جديدة.

- لماذا تستمر يا مقدِّس في عبادة رب يعذِّبك؟

صمت الرَّاهب «يوأنَّس» طويلا، ونظر في السَّماء، وصمت طويلا، ونظر في الرِّمال بين قدميه، وصمت طويلا، وهز عصاه بيده العجفاء، وصمت طويلا، ثم نظر مرة أخرى إلى السَّماء وقال: لأنه في كل الأحوال إله، حتى لو أنه أوجدنا لمجرَّد أن نتألَّم فهذه محبَّة كبيرة، الحياة مع الآلام أفضل كثيرا من العدم.

كان الرَّاهب «برسوم» قد قطع بموته أي تردُّد عن مغادرة جبل الرُّهبان في نفس «حجيزي»، مات بعد أقل من خمسة عشر يوما من قدوم «حجيزي» إلى هذا الجبل، كان يهز الليالي بصراخه الذي ينطلق فجأة مثل الرَّعد، ويزول فجأة مثل الرَّعد، قال الرَّاهب «يوأنَّس» إن خلف «برسوم» حكاية مؤلمة، ألم من هذا النَّوع الذي لا يغادر الجسد مع مغادرة خلاياه الميِّتة، وإنما يلبد في العظام والنُّخاع ويبث أحزانه، فيسيطر على اللسان وعلى الدُّموع، فلا يشكو الإنسان ولا يبكي، وإنما يصرخ مثل المعاتيه.

- ما هي حكاية المقدِّس «برسوم» يا مقدِّس؟

- ما أعرف حرفا من حكايته، لكن وراءها امرأة.

- لماذا المرأة دائما هي التي وراء مصائبكم؟!

- لأنها هكذا منذ خلقها الرَّب، أخرجت وليفها من الجنَّة.

«حوَّاء أخرجت آدم من الجنَّة، وأدخلته قلبها، لكن نساءنا الآن يُخرجننا من عُقولنا، ويُدخلننا جهنَّم، الإنسان منَّا لن يلقي بنفسه في منافي الرَّب البعيدة لو أحبَّته امرأة، لو كانت أحبتني سيرين بإخلاص كنت الآن نابضا بالآمال، ولي أحفاد ينبضون بالأحلام».

صرخات «برسوم» المعتادة لم تنطلق هذا الصَّباح، ولا انطلقت في كل مواعيدها حتى العصر، وفي المغارب، اكتشف أحد الرُّهبان، وهو يسكن في كهف بجوار كهف «برسوم»، أن جاره قد تنيَّح، وكان قد مات ميتة عجيبة، تنشرح لها قلوب المُرتحلين إلى «المسيح»، فلقد وجدوه ملقى على شقِّه الأيسر، ويده اليمنى قابضة على شمعة لم يَروا مثلها، تضيء ولا تتآكل، فعرفوا أن «برسوم» لم يعد مجرَّد راهب يتنسَّك في الصَّحاري، وإنما ها هو قد صيره الرَّب قدِّيسا.

ماذا فعل هؤلاء الرُّهبان بالقدِّيس المطهَّر؟!

«إنه رجل مات على كرامة، ولو أنهم صادقون في حكاية القيامة والحياة، التي يعدهم بها ربُّهم، لما دفنوا رجلا مات وفي يده شمعة تشتعل من غير انتهاء، إنهم أيضا يدفنون أعز الناس».

- كيف دفنتموه؟!

- كما رأيت، حفرنا له قبرا، ووضعناه فيه، ثم أهلنا عليه الرِّمال، وها نحن سننحت صليبا كبيرا من الصُّخور، نضعه شاهدا على قبره، إكراما لقداسته.

- أنا لا أسأل عن هذا، ولكن أقول كيف هان عليكم دفن صاحب كرامة؟!

- وماذا كان يجب أن نفعل لصاحب كرامة ميِّت؟!

- «أنا هو القيامة والحياة، من آمن بي ولو مات، فسيحيا»، أليس هذا ما يقوله المسيح؟! كيف تقولون على صاحب كرامة إنه ميِّت؟!

- إنه يحيا في العالم الآخر، ويحيا في قلوبنا، وسيحيا ذكره في محافل قدِّيسينا، لكنَّه أمام أبصارنا هو ميِّت، وجثَّة، والجثَّة لا بد لها من دفن يا «حجيزي».

موت «برسوم» الرَّاهب، لم يترك لـ«حجيزي» فرصة كي يفكر في مواصلة البقاء بين هؤلاء الرُّهبان، لقد تأكَّد الآن أن مصير الميِّت عندهم، هو نفس المصير كما عند جميع النَّاس، لقد خدعه الرَّاهب «يوأنَّس».

- لماذا قلت لي إن كل مسيحي يموت، وإنه يقوم بعد موته.

- لأن كل مسيحي صالح يعيش بـ«المسيح»، و«المسيح» قام بعد موته، ترك القبر ومضى.

فتح «حجيزي» عينيه كالمصعوق، وهتف: أنتم من دفن المسيح؟!

نظـر «يوأنَّس» حولـه مبهوتا، كانت كلمة «حجيـزي» صادمة بالفعل، لم يكن قد فكَّر من قبل في غرائبية وضع جسـد «المسـيح» في قبر، فعلاً! كيف أمكنهم أن يضعوا المسيح في قبر؟!

* * *

ظل الإنسان الحائر «حجيزي بن شديد الواعري» يُشعل كل ليلة نيرانا يتدفَّأ بها، ويجلس ناظرا في أفق الشَّـرق، حيث خلـف هذا الأفق تتلوى المدقَّـات فـي وسـع المفازات، رائحـة وغاديـة، لكنَّها تنتهـي كلها على مشارف «الوعرة»، الواحة التي فيها أهله وماله وأيامه.

ظـل منتظـرا القافلة جميع وقته، لكن في الليـل العميق، وقبل الفجر، في أحد الأيام النَّاشـزة بغرابة ما يحصل للإنسان فيها، كان «حجيزي» قد غلبه الوسن، فانداح رأسه ليرتكن بذقنه إلى صدره.

ثمة شـبح لشـخص طويل، مفرود الجسم، ينسـاب فوق الرِّمال كأنه يتهادى فوق سحابة، قادما من أفق الشَّرق، ملابسه طويلة هفهافة، كما هي أكمامه المتَّسعة، ويقترب من «حجيزي» النَّاعس جالسا أمام النِّيران.

رفَّ جناح طائر اخترق السَّـماء بسـرعة برقة، ففتح «حجيزي» عينيه، وأغلقهمـا، خُيِّل إليه أنـه رأى أحدا ما يجلس بجواره يتدفَّـأ أمام النِّيران، حدَّث نفسه بأنه الرَّاهب «يوأنَّس» بكل تأكيد.

لكـن للرَّاهب «يوأنَّـس» رائحة الدخـان، وأحيانا رائحة عـرق منتنة، أمـا الرَّائحة التي تعبق حوله الآن فهـي رائحة عطر، عطر فوَّاح ما لرائحته

مثيـل، وعندما فتح عينيه وتطلَّع في وجه الجالس بجواره يتدفَّأ، أدرك أنه حتمـا في دنيا الأحلام، فكمـا أن هذا العطر لا ينبغي وجوده الآن، كذلك هذا الشَّخص.

وجه لم ير شبيهه بين وجوه الرِّجال طوال حياته، وجه طويل منساب منجلٍ مثـل قمر، قمر حقيقي، وجه يسـبح فـي طراوة زيت لمَّاع، بشـرة لا تعاني من جفاف الصَّحاري، مثل بشـرات الذيـن يحيَون فيها، وعينان مطمئنَّتان، تملؤهما الثِّقة، ثم شـعره هذا الذي ينحدر على كتفيه يبرق من غزارة دهنه، هذا رجل لم تبلغه وعثاء السَّفر في الرِّمال.

وإذا كان هذا الرَّجل لم يسافر عبر هذه الصَّحراء، فمن أين جاء؟!

هذا هو الإنسان الوحيد الذي يراه في حياته ويشعر أن له مهابة ماحقة، رغم صغر سنه، تقاطيع وجهه تقول إنه في أواخر عشرينيات عمره، أو في أوائل الثَّلاثينيَّات.

انتبـه «حجيزي» تماما، لكن الرَّجل ابتسـم وقال: كيف حال إخوانك هنا؟

هذا ليس صوتا إنسـانيا، إنه شدو ملائكي، ما هو شدو الملائكة؟! لم يكن يسـمع عن شدو الملائكة هذا، لكن سمع عنه من الرَّاهب «يوأنَّس» كثيرا، ما هو شدو الملائكة إن لم يكن هذا الصَّوت؟! حتى رخامة صوت «يوأنَّس» ليسـت شـيئا في هذا الرَّونـق المنبعث من حنجرة هذا الشَّـاب الفخيم.

قال «حجيزي»: إنهم ليسوا إخواني.

- إنهم يشاركونك المصير في هذه الصَّحاري، فهم إخوانك.

- لكنهم نصارى، وأنا مسلم.

- ما نصارى؟! وما مسلم؟!

نظر «حجيزي» في هذا الوجه الرائق، وساءل نفسه، من أي البلاد هذا الشاب المليح؟! لابد أنها بلاد لا تعرف شيئا عن نصارى أو مسلمين، أين هذه البلاد؟

- النَّصارى نصارى والمسلمين مسلمين.

ابتسم صاحب الوجه المليح، ورفع وجهه إلى السَّماء، وهمس: المجد لك في الأعالي أيها الآب، كن معي، واغمرني بمحبتك.

ثم نظر إلى «حجيزي»، وقال: النَّصارى بشر، والمسلمون بشر، لا يملأ النَّصارى الأرض، ولا المسلمون، البَّشر هم من يملأون الأرض، طوبى للإنسان على الأرض، والمجد للآب في السَّماوات.

- ما أفهم كلامك يا مليح الوجه.

- الآب الذي أرسلني ما أرسلني لنفسه، ولكن للإنسان.

- ما أفهم، الكلام يستغلق أكثر.

- كما أن الآب هو غاية الإنسان، فالإنسان أيضا هو غاية الآب.

- الكلام استبهم يا مليح الوجه.

- اللّٰه جعلك خليفته في هذا العالم، فلتكن اللّه في الأرض.

«الجنَّـة مملـوءة بالمـرح، والأرض مملـوءة بالشَّـقاء، وعندمـا صنع اللّـه آدم وضعـه في مرح الجنَّة، لم يرد له شـقاء ولا نكـدا، وزادت محبَّة اللّـه لآدم، فمنحـه مرحا طاغيا، يشـع حبا وعشـقا، منحه حـوَّاء، وعندما عمـل آدم خطيئته، أخرجه من المرح إلى الشَّـقاء، لكن أخرج معه المرح الطَّاغـي، ليصنعا بهجتهما في بؤس الدُّنيا، بهجة الإنسـان وسـعادته هما المقصد الإلهي، لكن الإنسان يترك بصائره الحكيمة، ويقيِّد نفسه بأغلال حاكها لنفسه باسم الآب».

- كيف أكون اللّٰه؟! هو يملك الأكوان، وأنا أملك بيتي الصَّغير وحقل زرع، هو غني، وأنا كلي عِوز، هو حي، وأنا أموت، ويريدون بعد موتي أن يدفنوني في قبر!

ابتسم الشاب المليح، ومد يده إلى الرِّمال، وأخذ منها قبضة، ثم فرَّج بيـن أصابعه الطَّويلة الرَّشـيقة، فأخذ الرَّمل يتسرسـب سـاقطا من غير أن تعلو منه ذرَّة غبار واحدة.

- يا أيها الإنسان المسكين، لو أعملت عقلك أدركت، ولو أدركت استرحت، الآب مَلَك الأكوان، وأنت ملكت بيتا وحقل زرع، لو اكتفيت بهما استغنيت، والآب مستغن. ليس الغِنى سوى عِوز مرفوض، ارفض عِوزك بقناعتك تكتفي بذاتك، والآب مستكف. الإنسان لا يموت، لأن الموت اختفاء، والإنسان ظاهر في الأرض يشيِّد خلوده، لا يموت الإنسان ولا يُدفن.

- مات النَّاس ودُفنوا أمام عيني.

- الواحد ليس إنسانا، الجماعة هي الإنسان، يموت الواحد، لكن الجماعة لا تموت.

- أنا لا أريد أن أموت، وإن كان لا بد، لا أريد أن أدفن.

- أنت هنا في سفح هذا الجبل من أجل هذا الأمر.

- من أنت أيها الشَّاب المليح؟! بالتأكيد أنت لست من هؤلاء الرُّهبان، فأنا لم أرك بينهم من قبل؟!

- أنا لست من الرُّهبان، كما أن الرُّهبان ليسوا منِّي، أنا يا أيها الشَّيخ القيامة والحياة، من آمن بي سيحيا ولو مات.

كان «حجيزي» قد سمع هذه الجملة كثيرا في كلام الرَّاهب «يوأنَّس»، وكان قد علم أن الذي قالها هو «المسيح»، ربُّ النَّصارى.

هـذه ذئاب تتوافـد، وتربض سـاكنة على حواف نصف دائرة واسـعة وهميـة أمامها، وها هـي غزلان أيضا تتقـدَّم آمنة، ليس في عينيها خشـية افتـراس، ولا كأنهـا انتبهت لوجود قتلتهـا، أرانب برِّية، وقطط وحشـيَّة، وضِباع، وفود تترى لتشكِّل جمهورا ينصت لكلمات بلسان غير ألسنتها، لكن لغة القلوب واحدة، وكان «المسيح» يكرِّز ممتنا.

«إنهـم يحيَون بقلوب مقفلة، يؤلِّهـون تقاليدهم، ويحطِّمون الجَمَال، يخترعـون قيمـا قاسـية، كأنهـم يحبُّـون تعذيـب أنفسـهم، مـا أردتُ من الإنسـان تقديس ما يفقده بهجته، أو ما يمنع خلوده، الآب الذي أرسـلني

قـال لي هـذا، لكن ماذا فعل الرُّهبان غير كل مـا ينكره الآب؟! الآب قال إن مسـرَّته في أن يصير الإنسـان ربـا، لا عبدا، الآب أرسـلني لأعلِّم هذه الحكمة، ولأكرِّز بأن المجد لله في الأعالي، حينما يصنع الإنسان مجده في ملكوته».

قلـب «حجيـزي» تزلزل مـن كل ما يجري، وتزلزل من هذا السـؤال: هل هذا الشَّاب المليح هو «المسيح» بنفسه؟!

فكَّـر فـي أن ينادي علـى الرَّاهب «يوأنَّس» ليرى ويشـرح لـه ما يراه، وعندما هم بالوقوف، أشـار له «المسـيح» بالبقاء جالسـا في مكانه، فبقي جالسا يكتنفه خشوع.

قـال المسـيح بنبرة صـوت مرعبة: مـا جئت لألقي سـلاما على جبل الرُّهبان، بل سيفا.

وهال «حجيزي» أن يرى «المسـيح» وهو ينتزع سـيفا من تحت ثيابه، ويشـرعه أمـام عينيـه، كانـت النِّيـران تتوهَّج مـن غير حطـب، وتنعكس التماعاتهـا فـي عيـون الحيوانات والطُّيـور التي تجمَّعت مـن كل حدب وصوب، تقف منتبهة في نصف دائرة تتسع.

- أنت «المسيح»؟!

- أنا هو، أنا القيامة والحياة، من آمن بي، ولو مات، فسيحيا.

- مات الرَّاهب «برسوم» منذ أيام، ورغم أنه عاش حياته يؤمن بك، إلا أنه لم يحيا، بل دفنوه وهو الميِّت بمعجزة.

- الحياة ليست أن تعيش، أولاد الأفاعي يملأون الأرض، يعيشون ولا يحيَون، الحياة أيها الشَّيخ لا ينالها إلا من يعيش كإنسان.

- ألم يعش الرَّاهب «برسوم» حياته كإنسان؟!

أشار «المسيح» إلى الطُّيور والحيوانات، وقال بصوت ساخر: الرَّاهب «برسوم» عاش مثل هذه المخلوقات البهيمة، هائما في مملكتها القاحلة، يعيش في المنافي يعد أيامه منتظرا الموت، ما خُلق الإنسان ليجاور الحيوان، وما كلَّمه الآب عن الحياة ليعكف مهتما بالموت.

«هل هذا هو المسيح فعلا؟! هل هذا الرَّجل هو رب المسيحيين الذي عُلِّق على صليب حتى مات، ودفنوه في قبر، فغلب موته وقبره؟! لا يبدو أن هذا الرَّجل قد مات على صليب من قبل، أيها المسيح، لو تدلَّني على طريقة تنقذني بها من الدفن».

- هذه مخلوقات البرِّية تقف أمامي خاشعة، من غير لقمة خبز، أو عشبة جافة، ولا حتى شربة ماء، وإنما خشعت لروح الرَّب العاملة فيّ، ما أتعسهم في جبل الرُّهبان، هؤلاء الذين يظنُّون أنهم أتباعي وما هم بأتباعي، يستذلُّون مخلوقات البرِّية بأطعمتهم، الذِّئب وضع رأسه على فخذ الإنسان لما ذلَّت اللقمة روحه العزيزة، لكن أنت أيها الشَّيخ، وضع الذِّئب رأسه على فخذك، خشوعا لروح الرَّب التي عملت فيك، فأرهبته.

ونظر «المسـيح» في عيني «حجيزي»، فشـعر «حجيـزي» بمياه باردة تجول في روحه الملتهبة، تطفئها من غير ألم، قال «المسـيح»: لماذا تريد ألَّا تدفن في قبر؟

- أنا لي نصيبي في هذه الحياة، عمرتها وزهزهتها، ليس من الحق أن يسلبونني نصيبي بالموت، ثم الدَّفن.

ابتسـم «المسـيح»، ووضـع كفَّه بيـن كتفـي «حجيزي»، الذي شـعر لحظتهـا بحنـان غامر يجتاحه، حنان لا وصف له، سـوى أنه ود لو يتمدَّد وينام.

قال «المسيح»: هو أنت الإنسان أيها الشَّيخ، مفعم بالحياة، تتعلَّق بها حتى بعد موتك، بمثلك يُسَرُّ الرَّب.

فجأة اسـتقام من جلسته، وسـطع وجهه الحاني بغضب، وقبض على سـيفه، واسـتدار ناحيـة المـدق الصَّاعـد إلى الجبـل، نظر إلـى الكهوف الفاغرة أفواهها تلتهم الظَّلام، وقال: اتبعني أيها الشَّيخ.

ثم هتف: أنا هو القيامة والحياة، ربُّ كل حي، وأحكم على كل ميِّت بالبكاء والنَّدم.

* * *

قطعـا لم يتخيَّـل الرَّاهب «يوأنَّـس» في أي لحظة مـن لحظات حياته أنه سـيرى «المسـيح» أمامه، بشـحمه ولحمه، حتى وإن كان قد قال قريبا لـ«حجيزي» أنه لن يندهش لو رأى المسيح في قلايته، ولو تخيَّل، ما كان سيتخيَّله مثلما يراه الآن، غاضبا ويمتشق سيفا!

كان «يوأنَّس» ممدَّدا في ظلمة الكهف، عندما رأى نورا يتحرَّك خارج فتحة الكهف، وظلال تتقافز، قبل أن يدخل هذا الرَّجل الذي يقبض على سيف، ويدخل «حجيزي» خلفه يحمل خشبة تشتعل قمتها بنار ذات لهب.

وعندما انعكست النَّار على وجه «المسيح» ارتعش الرَّاهب، ولم يحرَ حركة، فصار كأنه تمثال.

هذا وجه يعرفه، رآه في الصُّور التي كانت تزوِّق جدران محل المعلِّم «نظير»، ورآه في تلك الصُّورة التي بهتت على الجدار الكالح في البيت القديم في نجع «أبو ليلة»، الوجه الذي هو غالبا مرفوعا إلى السَّماء، ينظر إلى الذي أرسله نظرة مسكنة وحاجة، أو ينظر إلى الأرض متواضعا كإنسان، لكن هذه النَّظرة الغاضبة لم يرها إلا في غرفته في «أسيوط»، نظرة تستغضبه، لكنه الآن يشعر بأن نظرته هذه غاضبة عليه.

نظر الرَّاهب «يوأنَّس» إلى «حجيزي» نظرة مستفسرة، كأنه يريد أن يسأله: هل هذا هو الرَّب «يسوع» فعلا؟!

- تُزهق الرُّوح يا مغرور ثم تأتي وتلتصق بي!

ارتعشت شفتا الرَّاهب «يوأنَّس»، وفضح النُّور المتراقص نظرة حيرة غمرتها دموع ضحلة: إلهي وسيِّدي.

- لا أحب أن أكون سيِّدا، لأني لا أحب العبيد.

- إلهي.

رفع «المسيح» وجهه إلى السَّماء وتمتم، ثم نظر إلى الرَّاهب وهمس: هل فهمت ما قالته أمُّك قديما؟!

بدا أن «يوأنَّس» لا يفهم، فقال «المسيح»: عندما قالت لأبيك أنا أنظر لمن ينظر إليه «المسيح»، كنت أنظر إلى الإله، الآب الذي أرسلني.

- يا ابن اللّٰه، ارحمني.

- لم ترحم نفسك.

- لم أرحم نفسي حتى لا تغضب عليّ.

- الآب يرحم الإنسان، فكيف لا يرحم الإنسان نفسه؟!

- إن تركتُ نفسي للخطيئة لن أدخل ملكوت الرَّب، لن يرحمني، وسيلقي بي حيث البكاء والندم.

«ما ألقى الآب في روعنا أن نبشِّر بالخوف والرُّعب منه، هو الممجَّد في الأعالي أحب الإنسان، ومن يحب لا يعذِّب، يكره الإنسان نفسه، فيعذِّبها بالأعراف، ويبرِّر كبتها بالخطيئة، ومخافة الرَّب، مخلوق أيها الإنسان لتحاور الآب، وتصنع مشيئتك، لا أنت ملاك، ولا أنت شيطان، كمالك بنقصك، وفي نقصك اكتمالك، والرَّب هو الإنسان الكامل».

- يا ابن اللّٰه، تقدَّس اسمك، بَلَغنا من القدِّيسين أنه بالألم يطهر الإنسان، نترك ما نحب لكي نطهر، وأنا أحببت «سيرين»، لكن ما كان لي أن أتبع شهوتي وأقطف زهورا محرَّمة!

«ما أشقاك أيها الإنسان، تحرِّم الزُّهور، وتحل الدَّم».

رأى الرَّاهب في عيني «المسيح» ما هزَّ أعصابه بالخوف، فهمس: أنا عبدتك طول عمري، لم أنشغل عنك بسواك، و«سيرين» ما فكَّرت سوى في حبِّي، أنا العبد.

- انشغلتَ بي طول عمرك، ولم تفهم قصد الذي أرسلني، لكنَّها فهمَت، قلبُها وسع عمل الرَّب، وقلبك ضاق أيها الحزين.

ترقرقت الدُّموع في عيني «يوأنَّس»، وانتحب: تبكِّتني يا ابن الله بعد كل هذا العمر.

- حرَّمت الحب، واستحللت القتل، وظللت تخدع نفسك طوال العمر، تعبد مسيحا ليس هو أنا، مسيحك المرعب.

ملأ الرُّعب عيني «يوأنَّس» وهو يرى «المسيح» يقدِّم له السيف، كانت عيناه تدعوانه لقتل نفسه، وكان «حجيزي» يرى ما سيفعله «يوأنَّس»، سيفعل مثلما فعل كل رهبان الجبل قبله، سيغمد السيف في قلبه، ويموت.

وعلى المدق المنحدر إلى سفح الجبل، سمع «حجيزي» هذه الكلمات: ومع أنك عشت حياتك تفكِّر في الموت، وكيف تهرب من الدَّفن، ومع أنك ضيَّعت مباهج الحياة، إلا أنك كنت تفتح الباب لحياة جديدة، يحياها الميِّت في الدُّنيا من غير دفن، الرُّواد يتعبون من أجل القادمين، أنت أيها الشَّيخ تحقِّق رغبة الآب، إلَّا أنك عندما تموت ستدفن.

ارتعد «حجيزي»، لكنَّه سمع نفسه يقول: أنا لن أُدفن.

- أنت أيها الشَّيخ جدير بالدَّفن.

- جدير بالدَّفن؟!

- أنا سأذهب الآن، لكي أُرسل إليك المُعَزِّي، الذي يتكلَّم بما تفهم، وسيقول لك كل شيء، ووقتها ستصرخ بكل قوتك في صحراء البرِّية: أحفروا لي قبرا.

ظلت حيوانات البرِّية حول جبل الرُّهبان أياما تطوِّف حول المكان، تنتظر أن يخرج إليها الرُّهبان بالأقوات التي اعتادتها، لكن الرُّهبان كانوا قد صرعوا أنفسهم بسيف «المسيح»، كل واحد منهم كان يغمد النَّصل في قلبه بيده، تحت أنظار الرَّب الغاضب، الذي هو الحياة، الذي كره الموت فقام منه، والذي كره الدَّفن فخرج من قبره.

ظلَّت الحيوانات تطوِّف، ثم تمضي متحسِّرة، وبدا عليها الهزال، لم تعد الذِّئاب حتى تشبه الكلاب النَّشطة، وإنما صارت مثل جراء بائسة، والغزلان وهنت، وأرانب ظهرت هزيلة.

ظلَّت الحيوانات تطوِّف، والجوع يطوف في خلاياها، حتى أنار هذا الجوع وجدانها بالحقيقة، فنظر الذِّئب إلى الغزلان نظرته الأولى، وأدرك أن الغزال بالحق فريسته، وكذلك هذه الأرانب، والغزلان أبصرت أوراق الأشجار، والأرانب أبصرت العشب، عادت إذًا الحيوانات إلى سيرتها الأولى.

ومضت أيام لتظهر بعدها حيوانات البرّية بجلود ملتمعة، الذِّئاب أشعارها تبرق مثل عيونها، وورق الشَّجر ازداد اخضرارا، توهَّجت الحياة بالافتراس والمطاردة.

مَن يدفن مَن إذا ما كان الجميع موتى؟! والحي الوحيد لا يؤمن بالدَّفن!

بقي «حجيزي» وحيدا ينتظر قافلة «عبد اللّٰه»، متشبِّعا بلقاء «المسيح»، الذي مضى منذ أيام طويلة، أو ربما أسابيع، في الظَّلام مبتعدا، رآه يومها يقوم من جواره ويبتعد، والنَّار لهيبها يضوي، كان «حجيزي» يرفع رأسه مغمورا بوهن النَّوم، ينظر إلى ذلك المبتعد تتبعه حيوانات الفلاة، كان ما حدث أعجب وأغرب من أن يكون حقيقة، حتى أن «حجيزي» أحيانا كثيرة كان يسأل نفسه: هل أنا رأيت «المسيح» حقا؟

عندما أصابه الشَّك في هذه الرُّؤية أوَّل مرة، قرَّر أن يصعد إلى كهف الرَّاهب «يوأنَّس»، ليتأكد مما رأى في ليلة الأمس، كان يصعد المنحدر ناظرا في البقع الليِّنة بالرِّمال السَّفيفة، عساه يرى أثر قدم غير قدم الرَّاهب، لكنَّه لم ير إلا آثار قدميه هو، أين ذهبت آثار من قال عن نفسه إنه «المسيح»؟!

سينادي على الرَّاهب من غير أن يدخل، كان قد أصابه التهيُّب، ولمَّا نادى فلق صوته الصَّمت، صوته هو، لأن صوتا آخر لم ينبعث ليفلق الصَّمت.

همس «حجيزي» لنفسه: الرَّاهب لا يجيب، إما أنه خرج لقضاء حاجة، أو أنه انتحر فعلا بسيف «المسيح».

سيتقدَّم إلى فتحة الكهف، متردِّدا من التهيُّب، وسيدخل بمهل المرتعب، ستفاجئه روائح كريهة، مثلما فاجأته في ليلة الأمس، روائح إنسان يحيا بمنأى عن الحياة وحيدا، وسيدور برأسه ينظر إلى النَّاحية التي كان الرَّاهب مستلقيا على أرضها مذعورا أمام «المسيح» الغاضب، وسيجده ممدَّدا على الأرض، مصلوبا على الصَّخر، ناظرا إلى مكان أبعد من السَّقف، ميتا، لكن لا آثار لدماء، ولا أثر لوخزة نصل سيف قاتل في أي مكان من الجسد العجوز.

الرُّهبان جميعهم كانوا ميِّتين، لكن لا آثار لدماء، ولا لوخزة سيف، وإنما كل واحد منهم مشبوح على هيئة صليب فوق الأرض الصَّخرية داخل كهوفهم.

وأصبح «حجيزي» غير قادر على تأكيد رؤيته ومحاورته للمسيح، كما أنه غير قادر أيضا على نفيها.

لقد رأى في ليلة الأمس السَّيف وهو يخترق قلب كل واحد منهم، ورأى الدِّماء تتدفَّق من الجروح، والآن لا جروح ولا دماء!

لكنَّه «المسيح» من فعلها، وإلَّا ما ماتوا كلهم دفعة واحدة هكذا.

«ماذا تفعل الآن يا حجيزي؟ هناك موتى مبعثرون في كهوف الجبل، تتركهم يحيَون معك، أم تدفنهم وترتاح؟

أرتاح؟!

الميِّت سيبقى ميِّتا، هل تستطيع العيش الآن مع هؤلاء الموتى؟!

كانوا موتى وهم أحياء، لن تفرق المسألة كثيرا.

طيِّب، لو أنهم ملأوا الدُّنيا حياة من حولك ثم ماتوا، ليبقوا حولك جثثا صامتة، تنشر الصَّمت والحزن، هل كان الأمر سيختلف؟ أكنت تستطيع تحمُّلهم موتًى بعد أن اعتدتهم أحياءً؟!

«أنت جدير بالدَّفن أيها الشيخ».

- أنا سأصرخ وأقول أحفروا لي قبرا؟! مستحيل!

«الآب هو الإنسان الكامل».

- اللّه إنسان؟!!

«إنسان كامل، ليس كمثله إنسان منَّا».

- لم يقولوا لنا ذلك، قالوا إن اللّه لا يشبهنا، ليس كمثله شيء.

«وهل الإنسان الكامل مثله شيء؟».

- لكنَّه إنسان في النِّهاية، سيشبهنا.

«وهل يعيب الآب أن يشبه الإنسان؟ أحب الآب الإنسان يا أيها الشَّيخ».

- أنا لا أحب الدَّفن أيها «المسيح».

«ستحبه، لمَّا يكلمك المُعزِّي الذي سيأتيك، فيكلِّمك وتفهم».

- ولماذا لا تقل أنت لي!

«كيف يتحرَّك الزَّمن إلى الأمام إذا قال أحدنا كل شيء في لحظة واحدة، العالم أيها الشَّيخ يعيش من أجل أن يُكمل الآب كلماته، وحينما تكتمل ستقوم المحاكمة، وتُنصب أدوات الدينونة، سأذهب الآن، وسيأتيك المُعزِّي، فتُعَزَّى».

16

العِشقُ قَتَّال

– عندما حدث هذا الهول أمام عينَي كرهت اللّه، وتمنَّيت لو أنِّي إله مثله لأستطيع أن أقتله، لماذا يعذِّبنا كل هذا العذاب، وعدني بالنَّجاة فلماذا لا ينجيني من غير رعب أو ألم، يفعل ذلك كي أكون ربا؟! يا للعبط، إنها للّه، اللّه يا حجيزي، اللّه بجلال قدره لا يستطيع أن يوجد لنا طريقة تجعلنا أربابا من غير عذاب؟!

الشَّمس تحلِّق نحو غروب العصاري، وظلال لثلاثة من البشر يمشون الهوينى تزحف على الرِّمال زحف الحيَّات الشَّبعة، ظل يد أحدهم ارتفع إلى ظل الرَّأس وبدا أنه يمسح الوجه.

كان «سعدون» ينشج بحمية، ويبكي بعنف، فربت «حجيزي» على كتفه، فانفلت يقول كلاما مخلوطا بالشَّهيق والزَّفير الحاميين: ظللت أدعوه أربعين عاما ليعطيني ذرِّية، ولمَّا أعطاني «جميل»، ودعوته في لحظة غضب أن يحرقه هو وأمِّه، حرقهما من غير تأن! اللّه هذا لا يعرف طعم عذاب القلوب، لذلك يعذِّبنا وباله رائق.

«لماذا لا تشتكي لصاحبيك همومك يا حجيزي كما يفعلان معك؟ أنت تتعذَّب مثلهم بالضَّبط، يشويك اللّه مثلهم في جحيم الآلام، ضيَّع عليك حياتك، ودفعك دفعا كي تبحث فيما لا أهمية في بحثه، موت ودفن وفناء، تخاف الدَّفن والفناء، فدفنت حياتك وأفنيتها، لو عشت كما يعيش النَّاس لاختلف الأمر، كنت استمتعت بسريرة التي رقَّصت قلوب الرِّجال بالهوى، كنت أنجبت عيالا كثيرين، ولم تكتف ببكير، كنت شاركت النَّاس حياتهم، كنت ضحكت كثيرا، ولعبت في أفراحهم بالسَّيف، كنت عشت الحياة يا حجيزي، لكنَّك ها أنت عمرك يشارف المائة، أو تجاوزتها، ولم....».

..... - لما دخلت ناقتي هذا الحيِّز من الصَّحراء شعرت وكأني دخلت الجنَّة التي يحكي لنا عنها الشيخ «مزيد»، أشجار «عاقول» و«عبل» منتشرة في الرِّمال على مرمى البصر، هذه أشجار الحياة، ستلتهمها ناقتي وتمتلئ قوَّة، لتزداد فرصي في النَّجاة من هذه المتاهة المميتة، وأنا سألوك أوراق هذه الأشجار، سآكل شيئا يخرس أنين جوفي، ورق أخضر أمصُّ ماءه فأغلب عطشي، ثم في ظل إحدى هذه الصُّخور أنام، أنام بعمق.

كان قلب «غنيمة» يضطرب من الفَّرح، للدرجة التي شعر معها أنه يريد القفز من فمه، وإلَّا ما تفسير هذه الشَّهقات الحادَّة التي كانت تندلق من حنجرته لتمزِّق سكون الرِّمال!؟

لم تكن هذه الأصوات كلها لشهقات «غنيمة»، وإنما كان بعضها يأتي من بعيد، حيث خمس أو ست نقاط سوداء، قادمة تركض من الأفق الذي يبتعد خلف «غنيمة».

- قطيع ذئاب.

- قطيع ذئاب؟!

- وجائعة.

لم يكن «غنيمة» يشعر بقدوم قطيع الذِّئاب، كان، مثل ناقته، قد انكب يقلع نبتة شجر من جذورها، ويمضغها متشنِّجا من قسوة الجوع والعطش، فلم ينتبه للقطيع القادم يزأر من بعيد.

- فجأة سمعت هذا الصَّوت المرعب، فانتبهت، وعندما نظرت خلفي وجدتها قادمة من بعيد تزأر، معالمها واضحة، لا تسمح بلبس الرُّؤية، إنها الذِّئاب، بآذانها المشرعة، وعيونها الخارقة، وأنيابها البارقة، ورغبتها الأكيدة في القتل.

في لحظة سحب «غنيمة» المسحاة من الشدَّاد الخشبي المرتكز على سنم النَّاقة، لكن النَّاقة نفسها كان الرعب قد لسع قلبها، إذ أنها تركت قضم الشُّجيرات ونظرت حولها بعينين سوداوين، وفكَّر «غنيمة» في أن الدِّفاع عن نفسه بمجرد مسحاة أمام ستَّة ذئاب جائعة هو أمر بالغ الحماقة، والأفضل الهرب والانزواء.

- آه يا «حجيزي»، آه يا «سعدون»، لو أنَّكم رأيتم حيرة النَّاقة، وهي ترى الذِّئاب وقد اقتربت جدا!

لقد رغت رغاء طويلا وهي ترفع رأسها محاولة الفهم، ثم حاولت الرَّكض، لكن الذِّئاب أحاطت بها من بعيد، فوقفت في مكانها، تنظر حولها وترغي، كأنها تنادي عليّ، كأنها تريد أن تقول: أنا ما تركتك للهلاك، فلماذا تتركني له؟

الذِّئب قاتل قاس، يضرب ضربته المهلكة فتسقط الفريسة، وقبل أن تموت ترى بعينيها قلبها يتمزق بين أنيابه النَّاهشة.

انطلقت ثلاثة ذئاب تناوش سيقان النَّاقة، بينما الثَّلاثة الأخرى تزأر وقد أخذت وضع الاستعداد للهجمة الحاسمة، كانت النَّاقة تحاول عض هذه الذِّئاب التي تناوش سيقانها، لكن ماذا يفعل الثَّقيل أمام الخفيف الرَّشيق، كانت الذِّئاب تقفز مبتعدة، لكنَّها في كل مرَّة تبتعد، كان الدَّم يتدفَّق بغزارة من جروح كثيرة في سيقانها، وفي المرَّة الأخيرة، أفلح أحدهم في تهشيم مفصل ساقها الخلفية لتسقط على مؤخرتها.

أجهش «غنيمة» بالبكاء وهو يحكي قصَّة مصرع ناقته، كانت الشَّمس قد أقبلت على الغروب، و«سعدون» كعادته في مثل هذه الجلسات، يعد الشَّاي ويصبّه في الكوب الصَّغير، و«حجيزي» يرشف الشَّاي رشفاته القلقة المخطوفة.

- سقوط الكبير أمام الصِّغار يحز في النَّفس، النَّاقة ضخمة، شكلها مؤلم وهي تنهار، وعيناها السوداوان لم تعدا جامدتين، وإنما رأيت فيهما

دموعَ مَظْلمة، عندما سقطت انطلقت كل الذِّئاب في هجمة واحدة ناحيتها، وتكالبوا عليها، أحدها يغرس أنيابه في رقبتها، بينما الجميع يبقرون بطنها، وفي لحظة كان قلبها بين أنياب أحدها، ورفعت رأسها الرَّفعة الأخيرة، لترى قلبها وهو يتمزَّق.

بقيت الذِّئاب تنهش النَّاقة الصَّريعة، نهشا مريعا إثر جوع فاتك، وكانت تغيب وتنظر ناحية الصَّخرة التي يختبئ خلفها «غنيمة»، كان «غنيمة» يرتعش من الرُّعب.

- كنت أراقب الذِّئاب وهي تنهش لحم ناقتي، وكل ما أفكر فيه هو ماذا ستفعل هذه الذِّئاب بعد ذلك؟ هل ستشبع بطونها فتمضي مبتعدة، أم أن شهوة القتل عندها ستبقى جائعة، وسأروح ضحيَّتها؟

لكن الذئاب مضت مبتعدة، مخلِّفة بقايا لحم ملتصقة بعظام نافرة.

لم يستطع «غنيمة» أن يفرح بمغادرة الذِّئاب، كانت تبتعد وهي تلعق أفواهها بألسنتها، وكان هو ينتبه إلى ما لم يكن منتبها إليه.

لم تعد هناك ناقة، وعدم وجود ناقة في فلاة لا نهاية لها، لا يستطيع الإنسان فيها أن يكون على هدى، فهذا يعني حضور الموت.

«ستموت يا غنيمة، لا تأمل كثيرا فيما قاله لك اللّه في صلاتك، لو كانت هناك نجاة للاحت بوادرها، وكل ما يحدث لك معناه الدَّفع بك وبمنتهى الإصرار نحو الهلاك».

- تصاريف اللّه عجائب يا «حجيزي»، كانت «الوعرة» خلف ظهري ولم أكن أدري، لو حدَّقت في الأفق جيِّدا لربما رأيتها، لكنِّي كنت قد يئست، فأسندت ظهري إلى الصَّخرة واستسلمت للموت، هنا الهلاك قادم لا محالة، حتى مع كل هذه الأشجار، المسألة ليست طعاما أو شرابا، ماذا سيفيد الطَّعام أو الشَّراب من غير ناقة تقطع بك المسافات نحو العمران، هذه الشجيرات الكثيرة تعني وجود آفات كثيرة قاتلة، أفاع ودفان وطريش وعقارب، هنا ذئاب وضباع، وماذا يفعل الإنسان المسكين وسط كل هذا الشر، خاصة إذا كان جائعا ومهدودا ويائسا مثلي.

«المشاكل الكبرى، تلك التي تجعل الإنسان يُجن أو يقتل نفسه، حلها في الاستسلام، لا تفكِّر كثيرا، وإنما حاول أن تهدِّئ من دقَّات قلبك، ونم».

- نمت وأنا جالس مستندا إلى هذه الصَّخرة، نوم العجز، الذي يشبه نوم المرض، مليء بالهلاوس المريعة والكوابيس، رأيت «الزبير» يضربني بكفه على وجهي، ويركلني وهو يدفعني خارج بيت، وهو يصرخ: أخرج من هنا، لا أريد أن أراك ثانية.

ورأيت «لبنى» اللّه يرحمها، تجري بين نخيل لا حصر لها ولا عد، وتصرخ مرعوبة: الذِّئاب يا «غنيمة».

أستفيق، فأنظر حولي، وأتذكَّر أنني ملقى في الصَّحراء، وأنني أنتظر الموت، فأنام.

طلـع الصَّباح بعد ليل بارد، كاد «غنيمة» فيـه أن يتجمَّد، طلع الصَّباح عليـه، وهـو منكمش يرتعـد في رمال تمزِّقـه ببرودتها، لم يكـن يفكِّر في شـيء، فقط انطبعت في عقله صورة هذا المتعاظم في ضخامته، الباسـم الوجـه، وهـو يعده بأنه سـينجيه، وبأنه لا يحب للإنسـان أن يكون مجرَّد عبـد، وإنمـا خليفـة ربَّاني، لا يأخذ فقـط مثل عبد، وإنما يعطـي كإله، أن يعطـي مـن أعظـم ما يملكـه، من حياتـه، يعطـي أوقاتا للألـم والعذاب، ويتجمَّل بالصَّبر، صبر يليق بخليفة ربَّاني.

طلـع الصَّبـاح، ونور الشَّـمس لاح، واندفـع يغمـر الأرض، لم يكن بإمـكان «غنيمـة» الوقـوف، كان مسـتندا إلـى الصَّخـرة في الظِّـل، ونور الشَّـمس يبـدو دافئا بجـواره، كان يتمنَّى لو بمقـدوره أن يزحف، حاول، لكـن عظامـه كانت قـد تجمَّدت، فثبَّـت عينيه بالنُّور، وحـاول أن يمتص الدفء بهما.

أصـوات الرُّعـاة الصِّغار تأتـي من بعيد مثل سرسـعة فئران تتعارك، وأصـوات ثغاء أغنام القطيـع، ويفتح «غنيمة» عينيـه، هل هذه الأصوات حقيقيـة، أم أنهـا من بشـائر الموت القـادم، تخيُّلات أخيرة تمهِّـد للنِّهاية بلطف، أمل مباغت يعمي الإحساس بضربة اليأس القاضية.

نصب «غنيمة» رأسـه، رفعها عن متَّكئها الصَّخري المستسـلم، يتأكَّد من إن كان يسمع أصواتا حقيقيَّة أم إنه ينصت إلى سراب.

الأصـوات تقتـرب، نصب رأسـه وقتا طويـلا، والأصـوات تقترب، هـذه هي الحقيقة، الوهم خاطف، لكـن الحقيقة ممتدة، وهذه الأصوات

ممتـدة، وتقـوى بالاقتـراب، فتح فكَّيـه ليصرخ، ليسـمع الرُّعـاة صوته، فتحهمـا بصعوبة، سـمع صـوت تفكُّكهما من جمـود الصَّمـت، كأنهما صخرة تنشق، وقال بصوت واهن: يا ولد.

الدفء يسري في جسد «غنيمة»، وعندما سمع صوته دبَّت فيه الحياة مرة أخرى.

- أقوى ما يمكنه أن يحول يأس الإنسان إلى أمل يا «حجيزي» هو صوته، جرَّبت هذا، لما سمعت صوتي وأنا أنادي على العيال عادت لي الحياة.

تذكَّر «حجيزي» كلمات الرَّاهب «يوأنَّس» عن صوت الإنسان في وحدته، فهمس: سمعت مثل هذا الكلام زمان، منذ عشرين عاما.

قال «سعدون»: كلام يصح.

وقال «غنيمة»: وأوَّل ما رأيت الأغنام تتدفَّق، انفكَّت أعصابي المشدودة مرَّة واحدة، وشعرت بهدير مفاجئ يجتاح عروقي، ولمَّا ظهر أول ولد من الرُّعاة، ونظر ناحيتي كنت أسقط في غيبوبة، ولم أشعر بشيء.

* * *

- يا «حجيزي»، الشَّمس غربت، والظَّلام قادم، هل سنقضي الليل في المقبرة؟!

نظر «حجيزي» إلى «بكير» وقال: اعمل لنا شايا آخر، لا تحلّه بالسُّكر.

- لماذا يا والدي؟! أنت طول عمرك تشرب الشّاي بطعم العسل من كثرة ما تمزجه به من سكَّر!

- اسمع يا «بكير»، أمامي يومان، وسأموت في الثَّالث، إياك وأن تدفنني.

بقايا واهنة من نور النَّهار المنقضي، ليست كافية لرؤية وجه «بكير»، وكيف صارت ملامحه وهو يسمع هذا الكلام من والده، لكنَّه صمت تماما.

- سمعت الكلام، أم أصاب الصَّمم أذنيك؟

- سمعت يا «حجيزي»، لكن كلام لا أدري كيف أعقله؟!

- وأنا لا أريدك أن تعقل كلامي، لأنك لن تستطيع، أنا أقول لك وصيتي، لا تدفنني.

أشعل «بكير» النَّار مرَّة أخرى ليعد الشَّاي، كانت أفكاره قد ارتبكت، نعم هو قد كبر في ظل تصرُّفات أبيه المغايرة لتصرُّفات النَّاس في «الوعرة»، لكنَّه لم يكن يوما غريبا لهذه الدَّرجة مثل ما هو غريب اليوم، يمكن وفاة صاحبه «سعدون» بالأمس تكون هي السَّبب! ربما!

مرَّة أخرى يرى «حجيزي» يميل برأسه ناحية قبر «سعدون» ويصيخ السَّمع.

- البكاء يعيب الرِّجال يا «سعدون».

- أنا قتلت «زليخة» يا «حجيزي».

- هي التي زوَّجتك!

- وأنا ما كان يجب أن أصدِّق إنها تريد تزويجي، لو كنت فاهما لما رضيت.

- كانت تريد تسعدك بذرية تعزّك.

- ومن قال إن السعادة في الذُّرية؟ من قال هذا أبله، لا يفهم، السَّعادة امرأة تحبُّك وتحبُّها.

اعتدل «حجيزي» مبتعدا برأسه عن القبر، ونظر إلى السَّماء التي غمقت تماما، وظهرت فيها بعض النُّجوم المستطلعة، كان «بكير» يقدِّم كوب الشَّاي لأبيه، الذي أخذه سارحا، بينما «بكير» يحاول متابعة تصرُّفات والده، كان «حجيزي» يخرج كيسا كبيرا من سيَّالة قميصه الطَّويل، أخذ منه شيئا ووضعه في كوبه.

- ما الذي وضعته في كوبك يا والدي؟!

«السعادة امرأة تحبُّك وتحبُّها، كلمة تشبه ما قاله الرَّاهب يوأنَّس: لو وجد أحدنا امرأة تحبُّه ما ألقى بنفسه في منافي الرَّب».

«يمكن لو أحبَّتني سريرة ما كنت فكَّرت في مواضيع الموت والدَّفن! لو كانت غمرتني بالحياة لما اهتممت بدفن أو غير دفن، كانت سريرة

دائمـا بعيـدة، وكنت أفشـل دائمـا في التقـرُّب إليهـا، وكانت هـي تجيد الابتعـاد، لو أنها حاولت من زمـان ما حاوَلته معي اليوم، لو دعتني بنفس الحب، والرَّغبة فيّ، كانت اختلفت كل هذه الحياة».

ابتسـم «حجيزي» بسـمة مغموسـة في الأسـى، كان الظَّـلام قد حل، والنَّار خبت، فلم يكن بإمكان «بكير» أن يرى هذه البسمة المريرة.

«وماذا كنت تنتظرين مني اليوم يا «سريرة»؟!»

..... دخـل «حجيـزي» الغرفـة مرتبـكا، وأغلـق بابهـا خلفـه، كانت «سريرة» قد تخلَّت عن عصاها، ووقفت بجوار السَّرير تستند على مرتبته العاليـة، نظـر «حجيزي» إليهـا نظرة خاطفة، اسـتجمعت أهـم ملامحها بالنِّسـبة إليـه، العينـان اللتـان ضاقتـا وغامتـا، الأنـف الـذي تهالك على مجموعة من الأخاديد حول فمها الذي انهار، لا شيء تبقَّى فيها يمكنه أن يثير شهوة، نداؤها هو الذي أثار شهوته، نداؤها الذي يشي برغبة ملتهبة، ينظر إليها مرَّة أخرى، كانت ترفع نفسها إلى السَّرير العالي وقد استعانت بكرسـي خشـب تضعه خصِّيصا لهذه المهمَّة، الصُّعود إلى الفراش، كان منظرهـا وهي تعاني من أجل الصُّعود مثيرا للشـفقة، إنها ليسـت أكثر من هيكل عظمي يرتدي ثيابا، جلسـت على السَّرير، ونظرت إليه وابتسمت، بسمتُها هي الشيء الوحيد الذي ما زال يحمل الكثير من بهجتها القديمة، ونظرتهـا الدَّاعية أيضا، رغم أنها تنبعث من عينين تغيمان بسـحب الزَّمن الطَّويل الذي انقضى.

تحرَّك نحو السَّرير، خطواته بطيئة، في عينيه حيرة، هذه أوَّل مرَّة يبدو فيها تصرُّف لـ«سريرة» مشحونا بكل هذا الجنون.

تذكَّر مرَّة قديمة، ربما من أربعين سنة، كانت مرَّة لا تنسى، عاش على ذكراها سنين، كانت «سريرة» قد استطاعت في هذه الليلة أن تنسيه الجثث المحنَّطة والموت، أخذته بسرعة وهو لم يزل جالسا على حافَّة السَّرير، لم تتمدَّد أمامه، وإنما أتته من الخلف وقبضت على ذكره، وصهرت روحه بأنفاسها السَّاخنة وهي تعض حلمة أذنه.

وصل إلى السَّرير، لم تكن قد تمدَّدت بعد، صعد هو الآخر على الكرسي الخشبي قبل أن يجلس على حافَّة الفراش.

«لو أنها أخذتني في كل مرَّة فجأة! طيِّب، وإذا كانت هي لم تفعل، فلماذا لم تطلب منها أن تفعل ذلك؟! أطلب؟! أنت جننت يا «حجيزي»؟! تطلب ماذا؟! تطلب الوساخة وقلَّة الأدب؟! هذه لحظات وتنقضي، يكون الواحد منا فيها مثل البغل، حيوان مطلوق، أطلب؟! من أجل لحظات أضيِّع هيبتي طول العمر؟!»

«لم تضيِّع هيبتك يا حجيزي، وإنما عمرك هو الذي ضاع».

شعر بيد «سريرة» قوية، تجذبه من رقبته لتلقيه ممدَّدا بجوارها، واضعا رأسه على ذراعها المقدود من عظام، قرَّبت رأسها من رأسه النَّاظر إلى أعلى مبهوتا، وهمست: «حجيزي».

أمال رأسه ناحيتها، ولم ينظر في عينيها، وإنما نظر إلى نور الضُّحى الذي يتدفَّق من بين أسياخ حديدية تقاطعت في طاقة ضيِّقة اقتربت من

السَّقف، نور يتدفَّق عفيًّا إلا أنه هادئ، يسكن جو الغرفة، ويجعلها مريحة للنَّفس، رغم قِدَم كل ما فيها، وشحوب ألوانه، ورغم الملابس المبعثرة هنا وهناك من غير ترتيب، كانت الغرفة مريحة للنَّفس.

- «حجيزي» كيف تموت وتتركني؟!

«ومتى كنت معك، حتى إذا مت أكون قد تركتك؟! أنتِ في آخر العمر يا سريرة تتصابين!؟»

- لن تموت يا «حجيزي».

- سأموت يا «سريرة»، عشت الحياة مع اثنين وماتا، «غنيمة» مات منذ أربعة أيام، و«سعدون» مات بالأمس، وأنا جاءتني الرُّؤيا بأنني سأموت بعد يومين من الآن.

- إذا كنت ستموت ودِّعني الآن.

ما الذي تفعله «سريرة»؟! لقد قامت من اضطجاعتها لتنام بكامل طولها فوق جسد «حجيزي»، الذي نفر الدَّم في عروقه، فركضت الشَّهوة تحت كل جلده، فتململ بالحركة.

كانت «سريرة» تلقي برأسها فوق رأسه، تبحث بشفتين منحوتتين غارتا نحو فراغ الفم عن شفتين محاهما تتابع قرن من الزَّمان، وكانت أنفاسها تخرج هرمة، تتّكئ على عظام صدرها، لكنَّه أحاط ظهرها بكفَّيه العجفاوين، يريد ضمَّها.

«ما عاد في جسدك غير عظام يا سريرة، وجلد ذابل، وأنا سكنني الثَّلج، أريد نارا تذيبني، وأنت الآن لست غير رماد».

انهار القائم، وارتخى المشدود، وهطلت الدُّموع من سحب عينيها الغائمتين.

دفعها لتنزل من فوقه، فارتمت بجواره، وقالت بإلحاح: ودِّعني يا «حجيزي».

«لماذا تريد البقاء بعد موتك بين الأحياء إذا كنت لم تستطع وأنت حي أن تعيش بينهم؟ الأفضل أن تبحث لك عن منفى من منافي الرَّب، وتبقى هناك حتى الموت، هل بعد كل ما حدث يمكن لسريرة أن تطل عليك وأنت مجرَّد جثَّة محفوظة في غرفة مغلقة؟ ماذا قدمت إليها لتطل عليك، وتمسح التُّراب عن أعضائك التي ستكون متيبِّسة، ماذا قدَّمت لها لتستطيع تحمُّل النَّظر إلى عينيك الميِّتتين».

- ودِّعني يا «حجيزي».

«حاول يا حجيزي».

مال ناحيتها، نظر في وجهها مرَّة أخرى نظرة سريعة، هذه امرأة يجب أن تكون الآن جثَّة محنَّطة، لا جسد يشتعل بالاشتهاء.

تغرس أصابعها الممصوصة في رقبته، وتهمس منتحبة: ودِّعني.

«حاول، حاول، حاول يا حجيزي».

تشعر بمحاولته، فتسحب عنها جلبابها، تخلعه وتلقي به جانبا، ويرى «حجيـزي» الجلد وقـد التصق بالعظـام التي زهقت من الجسـد فبرزت تريـد الهروب، ونهديـن صارا مجـرَّد ورمين مملوئين مرضـا، ورأى يدا تمتد لتشـق هذه الجثَّة، لا دماء تنبثق من الجراح، ولا دماء تزيِّن الجوف، ويد «شـديد» تُخرج أحشـاء باهتة، ويسـمع صوته قائلا: الأجساد الشَّابة ترحب بالتحنيط، نحن نعمـل التحنيط للمحافظة على الحياة الكامنة في الجسد، لكن هذا جسد مصّه الموت.

يرتد «حجيزي» كالملدوغ، وعندما تحاول «سـريرة» التعلُّق به لمنعه من المغادرة، يدفعها في جنبها، وينزل من السَّرير، ويغادر الغرفة.

..... - هذا مطحون الـ«قرض» يا «بكير».

- ولماذا تضعه في شايك يا والدي؟!

- لماذا يدفن النَّاس أعز النَّاس يا «بكير».

- قلت لك من قبل يا «حجيزي» لو لم يدفنوهم لتعفَّنوا، وأكلت الكلاب جثتهم.

- الـ«قرض» يا ولدي سينبت لحما مرا، لحما يقتل دود العفن، فيبقى الجسد إذا مات سليما لا يفسد.

- أنت تتكلم جادا يا والدي؟!

- ومنذ متى كنت أتكلم بهزر؟!

- لكن يا والدي أنت هكذا ستموت في منتصف طريق الذِّهاب!

- تعرف شجرة البرتقال؟

- نعم.

- سأموت هناك، اسندني جالسا إلى جذعها، وأكمل رحلتك إلى «موط»، بع التمور، واشتر ما يحتاجه البيت، واترك لي مكانا على النَّاقة، لتأخذني وأنت عائد.

- لن أستطيع تركك وحيدا في هذه الفلاة، ربما جاءت الذِّئاب يا والدي و... وانهار «بكير» باكيا، و«حجيزي» ينظر إليه ويبتسم.

* * *

عندما دخلت «بهيجة» المولِّدة خلف «سعدون» إلى غرفة «بثينة» اضطرب قلب «زليخة»، وعندما خرجت مبتسمة، وخلفها «سعدون» يكاد يطير من الفرح، سقط قلب «زليخة»، خرجت المولدة من الباب، وعاد «سعدون»، وقبل أن يدخل إلى «بثينة» أمسك بكتفي «زليخة» وهزَّهما فرحانا، وهو يقول: «بثينة» حامل يا «زليخة».

وهرول إلى غرفة «بثينة»، وكان وتد مدبَّب بحدة قد انغرس في قلب «زليخة»، وبدأ الدَّم يظهر نارا في ابيضاض عينيها.

«لماذا تتألَّمين الآن من مرارة كأس أنت التي قدَّمتها لنفسك؟».

ذهبت «زليخة» إلى عشَّة الحمام، وجلست على بابها، وأخذت تنظر إلى الأعشاش.

«كل عش فيه طائران فقط، حمامة ووليفها، عاشرتِ الحمام طوال عمرك، ولم تتعلمي منه شيئا».

طال النَّهار على «زليخة»، وهي قاعدة تسمع هديل الحمام، وضحكات مكبوتة هاربة من شقوق باب غرفة «بثينة»، الشَّمس لفحتها في الضُّحى والظَّهيرة، فترفع رأسها تنظر إلى عصافير تطير خلف بعضها في مناورة غَزَل، وقبل العصاري قامت، لما خرجت «بثينة» تعد طعاما لها ولـ«سعدون»، وهي تمضي إلى حجرة الخزين، نظرت إلى «بثينة»، وجهها متورِّد بالفرحة، الدِّماء تركض في خلاياه، وعيناها مبتهجتان، الأبيض فيهما أبيض كدفقة لبن، والأسود فيهما أسود مثل لقحة ليل مستبد، ورأت الولد يمرح في بطنها، يتقلَّب ويلعب، وينادي أباه، و«سعدون» سيأخذه في أحضانه، والولد سيكون عند أمه، و«سعدون» سيكون عند الولد، سيعمر عالم «بثينة» أكثر، لكن عالمها هي الذي سيحل فيه الخواء التَّام لا محالة.

مضت إلى حجرة الخزين، وفي قلبها حسرة شمَّت لها رائحة دخان.

- عدت بغنمي في المغارب يا «حجيزي»، كنت في المرعى أعذِّب نفسي من أجل أنها لم تستطع كبت فرحة ستصيب قلب «زليخة» بالكمد، كلَّما تذكَّرت حالها أشفقت عليها، «زليخة» التي كانت ملكة على كل بيتها، الحلوة بضحكها الذي يجلجل في الليل والنَّهار، تصير هكذا؟ يضيق عليها بيتها فتنام في غرفة الخزين؟ يهرب منها الضَّحك لتعشِّش في صدرها أسراب كآبة؟

عـدت بغنمي، فما دخلت عند «بثينة»، ولا غسـلت جلدي، ولا حتى شربت ماء، لم تكن في غرفتها، فعرفت أنها في غرفة الخزين.

دفـع «سـعدون» باب الغرفـة برفق كما اعتـاد، ضوء الشَّـمس الغاربة بالـكاد يبين ملامـح الغرفة، أجولة مـن غلال متراصَّة فـي أحد الأركان، وأجولـة تمر مجفَّف في ركـن آخر، وحبال من ليف سـميك، وأوتاد من خشـب ملقاة في ركن آخـر مبعثرة، وكانت «زليخة» ممـدَّدة على ظهرها فوق جوال الغلَّة الذي اعتادت أن تسـتلقي عليه، اندهش «سـعدون» من هيئة هذه النَّومة، نائمة مسـتلقية على ظهرها، رأسها محدوف إلى الوراء، وذراعاها انفرطا إلى جنبيها ليلامسـا الأرض في جمود، وسـاقاها تمدَّدا يخترقان الهواء المعتم.

- «زليخة».

ليـس من صوت إلا صوت حمحمة الغنم وهي تتلاصق في حظيرتها تستعد للهجوع.

- «زليخة».

ليس من صوت إلا أصوات طيور القرادين البيضاء، تضرب بأجنحتها ناحية أعشاشها في الأشجار المبعثرة على مدى الغيطان، تسبح في وهج شمس تغرب، فتطير بلون نحاسي فاقع.

* * *

قافلة كبيرة من سبعة جمال تقترب من «الوعرة»، جمال غريبة يركبها غرباء، يرتدون ملابس مثل ملابس النَّاس البندريَّة، قمصان قصيرة وسراويل طويلة، وقبَّعات رأس تشبه تلك التي يرتديها عساكر الإنجليز، يصطحب القافلة حداة عرب قادوها عبر الصَّحراء المتداعية، وعلَّموهم أصول التعامل مع أهل هذه الواحات، ألَّا يدخلوها إلا بعد استئذان مشايخ قبائلها، وأن يُنيخوا جِمَالهم خارج الواحة، وأن يمضوا في الطُّرقات فيلقوا السَّلام على من يلقاهم من رجال أهلها، وأن يحذروا مجرد الالتفات لأي أنثى، صغرت أو كبرت.

في الدِّيوان الكبير جلس الغرباء، خاصة الإنجليز منهم، ينظرون إلى أهل «الوعرة» نظرتهم إلى أناس من عالم قديم، تاريخي، ينبعث الآن أمامهم حيا.

قال الشَّيخ «زويد» وهو ينظر في وجوه الغرباء بتوجُّس: مرحبا.

قُدِّمت الأطعمة لمن أُعتبروا ضيوفا، وقُدِّم الشَّاي، وقال الشَّيخ «زويد» دون أن يتخلَّى عن توجُّسه: مرحبا.

رطن أحد الغرباء المصريِّين مع أكبر الإنجليز سنا، له شارب ذهبي يشتبك طرفاه بلحية مهذَّبة، وعيناه برَّاقتان باخضرار ماء بئر «الرَّاهب»، وأنف معقوف مثل منقار صقر، ورطن الإنجليزي بكلمات قليلة، ثم توجه المصري بالكلام إلى الشَّيخ «زويد»: مستر «سميث» يوجِّه لكم الشُّكر على كرم ضيافتكم، نحن وفد من مصلحة الآثار التَّابعة للحكومة المصرية، لدينا معلومات عن وجود أثر مهم في واحتكم، أثر عثماني،

معنـا في القافلة علماء سـيحدِّدون هذا الأمر لاتِّخـاذ الإجراءات اللازمة في حالة صحة هذه المعلومات.

نظـر «غنيمة» إلى «حجيزي» الجالس بجواره بين النَّاس المتواجدين في الدِّيوان، نظرة متعجِّبة، لكن «حجيزي» قلب شفتيه، وهمس «سعدون» في أذن «حجيزي»: يقصدون المسجد.

قال الشِّيخ «زويد»: أي أثر هذا، ما عندنا آثار.

- السِّجن، العثمانيُّون بنَوا هنا سجنا للمماليك الذين كانوا يقبضون عليهم بعد مطاردتهم.

اتَّسـعت الأحداق بالدَّهشـة، وقال الشَّـيخ «زويد»: سجن؟! ما عندنا سجون في «الوعرة».

- أنتم تصلَّون الآن فيه.

هتف الشيخ «زويد»: المسجد؟!

- نعم، كان معتقلا للتعذيب.

- المسجد؟

هز الإنجليزي «سميث» رأسه مبتسما، كأنَّه يفهم ما يُقال.

أحـاط الوفد بالمسـجد، ينظـرون إليه بعيون متفحِّصـة، بعضهم أخذ يتلمـس جدرانـه بأصابع مستكشـفة، بينما أخـرج أحد الانجليـز أدوات دقيقـة لامعـة من حقيبـة كبيرة، وأخذ يغرسـها فـي بعض الشُّـقوق ببطء وحذر، بينما تحلَّق رجال «الوعرة» حول ما يحدث، يراقبون بقلق.

- سجن!؟

قال «سعدون» بأسي: نعم يا «غنيمة»، المسجد لم يكن مسجدا، والعثمانيون لم يكونوا مؤمنين رحماء.

ثم استدرك الكلام بنبرة مكسورة، يلعب بها على أعصاب «غنيمة» الذَّاهل: كانوا قساة قلوب، عذَّبوا المماليك، و«شقمق» بيك علَّقوه من قدميه في هذه السَّلاسل المدلَّاة، كنَّا نظنّها سلاسل تعلَّق فيها المصابيح! لكن علَّقوا فيها «شقمق» بيك.

صرخ «غنيمة»: أغلق فمك يا «سعدون».

- ولماذا يغلق فمه يا «غنيمة»؟ يتكلَّم «سعدون» كلاما سليما، نحن البهائم، صدَّقنا أن أناسًا ليسوا أصحاب مكان يمكن أن يبنوا مسجدا، العساكر الغرباء يبنون سجونا لا مساجد، وصاحبك «شقمق» تعلَّق من قدميه في السَّلاسل.

انكسرت عينا «غنيمة»، وصوته كركب: حتى أنت يا «حجيزي»؟!

قهقه «سعدون» وهو يقول ساخرا: صلَّيت بينكم صلاة العشاء! كان يصلِّي وهو مدلَّى مقلوبا.

لكن شيئا رآه «سعدون» في وجه «غنيمة» جعله يتوقف عن الضَّحك، كانت عيناه تنطفئان.

* * *

مـن الذي لا يرى بزوغ القمر في آفـاق الصَّحراء المفتوحة ولا يرتعد قلبه برعشة خشوع، اعتاد «حجيزي» هذا البزوغ، آلاف الأقمار رآها تبزغ من الشَّـرق فلـم يرتعد قلبه، لكن هذا القمر الصَّاعـد الآن يرهج بالذَّهب يصـدِّع قلبـه ويفتِّتـه، هذا هـو القمر قبل الأخيـر، لـم يتبق غيـر قمرين في حياته، هذا أحدهما.

«متِّع عينيك يا حجيزي، لكن هذه المرَّة لن تسـتطيع أن تغسـل قلبك بنوره فتبتهج، لا يبتهج الذَّاهبون إلى الموت وهـم يعلمون».

فجـأة تتوهَّج فـي ذاكرته صورة طائر الإوز الذي غـرق في إناء الماء، في عشـة «سعدون»، لو أنه رضي بالماء الآسـن ربما عاش أطول وأمتع، لكنَّه بحث عن الماء الرَّائق في قعر الإناء، فانقلب فيه وغرق.

ألقى نظرة إلى الخلف، كانت ناقة «بكير» تسعى خلف ناقته، و«بكير» شـبح غامض يهتز على سنامها هزا رتيبا سـرمديًّا، بينما هناك الصَّخرات الأربع العملاقة تلتفح بظلام سينقشع حتما أمام ضوء هذا البازغ الصَّبور، وقبور تفترش الموات، حتى هذا يراه «حجيزي» الآن لآخر مرَّة.

17

المُعَزِّي

وقف «سـعدون» أمام الغرفة المغلقة بالقفل، غرفة «زليخة»، كم عامًا ظلَّت هذه الغرفة مغلقة؟ لا يتذكَّر، لكنَّها أعوام طويلة، أبقاها مغلقة، لأنه كان يحـاول أن يبقـى حيًّـا، الآن هو كما قال لـ«حجيـزي» منذ قليل «كره الموت»، فلم يعد يحب الحياة، ويا للسـخرية، على من لا يحب الحياة، لأنهـا صارت مؤلمة بدرجـة لا تطاق، أن يلوذ بالموت، وليس أجمل من الذِّكريات الحلوة وسيلة للانتحار.

تحرَّك المفتاح بصعوبة، فأصدر القفل تكَّة رشقت في قلبه، نزع القفل من مكانه، ضغط على الباب فلم ينفتح، تيبَّسـت ضلفتاه مع طول الغلق، لكنَّه بضغطة أخرى أشد قوَّة انفتح.

ضـوء الضُّحى ينسـل باهتـا من فواصـل ضلفتي النَّافذة، ومن شـبكة السِّـلك التي تسـد طاقـة ضيقة مفتوحة قرب السَّـقف، إلى بـراح الغرفة، فيكشف حالها كشفا هادئا.

لكـن قلب «سـعدون» ارتبـك، وتخبَّط فـي ضلوعه، الغرفـة اختفت تحت كومة من تراب، وشـعر كثيف من خيوط العنكبوت عشَّـش في كل مساحات السَّقف، وكل الأركان والزَّوايا، كانت الغرفة ميِّتة تماما.

خطا إلى الدَّاخل، فغاص نعل خفِّه في طبقة كثيفة من تراب ناعم مثل الدَّقيق، لم يمنعه هذا من إكمال خطوته، فصار داخل الغرفة بكل جسده، وأغلق خلفه الباب.

مباشرة تقدم نحو السَّرير العالي، كانت عمامته تصطدم بخيوط العنكبوت المدلَّاة، فتلتصق هذه الخيوط بها، ولم يكن حريصا على إزالة هذه الخيوط، وإنما لأجل صدره الذي بدأ يشعر به ينتفض مثل شاة تذبح، يكاد يفقده توازنه، كان حريصا على الوصول إلى السَّرير.

كان يشهق وهو يندفع مستندا إلى حافَّة الفراش العالي، وانبعثت سحابة غبار صغيرة غاضبة من المرتبة، رفع جسده الثَّقيل، واعتلى الفراش، فتوالت سحابات الغبار، واستمرت تنطلق من أسفل جسده وهو يحاول التمدُّد، رافعا رأسه على الوسادة العالية، وأخذ يسعل.

عندما ركدت سحب التُّراب، وذهب السُّعال، جال بنظره في الغرفة، وقال لنفسه: هيا أيَّتها الذِّكريات الحلوة، اقتليني.

«زليخة» تأخذ قميصه وسرواله اللذين خلعهما، وتعلِّقهما في شمَّاعة صنعها النَّجار على هيئة شجرة واقفة، وتقول: ما في مرَّة تخلع هدومك وتعلِّقها في العلِّيقة؟

فيرمي العمامة ناحيتها، ويقول: طيِّب خذي هذه علِّقيها.

ويضحك، وينظر إليها وهي تذهب إلى الخزانة، تفتحها، وهي تقول: متى سنسافر إلى «أسيوط»؟

أخرجت قميص نوم حريريًّا أصفر، وأخرجت زجاجة عطر تأخذ شكل أوزة، وقال: نَسيتي يا «زليخة»؟! الطَّبيب قال أرضك بور.

وأخذ يضحك، كانت تخلع جلبابها الذي أزاح طرحتها، وقالت: وقال بذورك ضعيفة.

مرَّت السُّنون الطَّويلة، وما مر ألق جسد «زليخة»، النِّساء يكبرن وهي تصغر، وأخذ يتأمَّل عُرى ذراعيها وصدرها وهي ترتدي قميص نومها الأصفر، المحاط بزيق نحيل ذهبيٍّ برَّاق، نهداها مشدودان، وحلمتاها تريدان ثَقب الحرير، عينا «زليخة» من غير كحل توهة، فلماذا تجلس إلى مرآتها وتكتحل؟!

- يا بنت النَّاس أنت طيَّرت عقلي من زمان، تكتحلين لتصرعي قلبي؟!

ويقهقه بضحكته الصَّافية، الضِّحكة التي تفجِّر منابع الحنان في روحها.

تترك تسريحتها، وشعرها مياس، غجري، يهز وجدان «سعدون»، وتتَّجه إلى السَّرير، تقفز إليه مثل غزالة الصَّحراء، وترمي جسدها فوقه فيغرق في فيضان عشق دافئ.

- نذهب مرَّة أخرى إلى «أسيوط»، وأخرى، وأخرى.

يحيط خصرها الممصوص بذراعيه السَّمينتين، ويهمس: ماذا تريدين من «أسيوط» يا روح «سعدون»؟

تُعرض بوجهها عن وجهه إعراض الدَّلال، وتقول: عيِّل.

- أنا عيِّل يا «زليخة»، حتى انظري، أنا جائع وأريد أرضع، واء، واء.

ويقهقه.

وتنظر إليه من فوق، تبتسم بوجه رائق، ثم تدنو برأسها منه، وحمرة النِّيران في شفتيها، وذراعاها يحيطان برقبته، وتهمس: ما تشبع من الضَّحك أبدا، ستموت يا «سعدون» وأنت تضحك.

فتح عينيه يتأمَّلها وهي تنسال بوجهها ناحيته، وجه يمنح الحياة بكرم، وابتسم.

* * *

- وجدناه يا «بكير» ممدَّدا على سريره ضاحكا، وعيناه تنظران إلى فوق، وفيهما لهفة، لكن «غنيمة» مات ووجهه متكدِّر، منكفئ على وجهه خلف باب بيته.

كان «بكير» يرتج فوق سنام ناقته، يسمع صوت أبيه القادم إليه رقيقا، فيه بحَّة كأنه يبكي، وناقتاهما تمضيان في نور صباح ابتعثته شمس مبهرة، رغم حرارة الصَّيف القائظ في «مسرى» إلَّا أن النَّسمات طريَّة، ترطِّب الصَّدر.

- الولد «سليم» سيعيش حياته، أعلن حبَّه للبنت، وها هو ينحت لها أضخم تمثال.

فتح «بكير» عينيه ليندهش، لكن عينيه انكسرتا بسرعة، لأن «حجيزي» ما توقف عن قول العجائب منذ خرجا من «الوعرة».

- كنت وعدت «سليم» إنني سأقول له عندما يكبر كيف يمكن للقصَّة غير الحقيقية أن تكون حقيقية في نفس الوقت، هو كبر الآن وصار يحب البنات، قل له جَدُّك يقول لك، الحكاية التي لا تجري في بلدك يمكنك أن تقول عنها إنها غير حقيقية، لكن الدُّنيا كبيرة، والنَّاس يملأون الأرض، والحكاية التي لا تجري تفاصيلها في بلدك، تجري حتما في بلد آخر، الحكايات دائما تكون حقيقية.

ثم هتف: وَلَد يا «بكير»، متى تنحت تمثالا أنت الآخر لـ«ثريَّا»؟!

كان كلام «حجيزي» هذه المرَّة مباغتا جدا لـ«بكير»، ففتح عينيه على اتساعهما، لكنَّه لم يجب.

- عندما تغيب شمس اليوم ستكون روحي قد غابت معها، اسمع كلامي جيدا، كلام المغادرين دائما ثمين وصادق، حافظ على امرأة تحبك، حتى لا تلقي بنفسك في منافي الرَّب.

«منافي الرَّب؟ وما منافي الرَّب؟!»

- الحزن يا «بكير».

الصَّحراء تتحرك ببطء، والمدق الضيِّق يتلوَّى بتثاقل شديد، مثل أفعى تلفظ أنفاسها الأخيرة، وبعد أن مالت الشَّمس بكل جبروتها الملتهب عن كبد السَّماء، بدا في سراب الأفق شبح شجرة يرتعش، شجرة البرتقال، وهمس «حجيزي»: النِّهاية.

* * *

الشَّجرة وارفة ومزهزهة رغم نار الصيف المشتعلة، وعندما وصلا إليها، أناخا ناقتيهما تحت ظلالها، رغت النَّاقتان بابتهاج، ونزل «بكير»، لكن «حجيزي» بقي جالسا على سنام ناقته، فقال «بكير»: تدَلّ يا والدي.

لكن «حجيزي» لم ينزل، بقي جالسا فوق السنام، صامتا.

تذكَّر «سعدون»، في أي منطقة تحت ظلال هذه الشَّجرة ركب «سعدون» على «زليخة» ونا..، وأين كانت تربض ناقتهما لمَّا ضبعت.

- ما تستطيع النُّزول، راحت قوَّتك يا «حجيزي»، ثلاثة نهارات وليلتان وأنت لا تشرب الماء، وتسف القرض، قلت لك إن هذا هو الذي سيميتك، وليست الرُّؤيا أبدا.

«الولد بكير لا يعرف شيئا، لا تُعجز قلة الماء المُصِر على بلوغ الهدف، لكنِّي الآن سأنزل من على سنام ناقتي النُّزول الأخير، لن أركب النُّوق مرَّة أخرى، وهذا السَّنام الذي ما ركبه غيري سيصير مشاعا، بالتَّأكيد أنا الآن ألفظ أنفاسي الأخيرة، وكل ما سأفعله في هاتين الساعتين القادمتين لن يكون بمقدوري فعله مرَّة أخرى».

أراد أن ينـزل فارتعشـت أعصابـه، وأحـس بوهن يسـيطر على عظام مفاصله، فنادى بصوت خافت: يا ولد، تعال ساعدني كي أنزل.

«لابد الآن من تناول ثمار البرتقال، أحب رائحته، علها تنبعث من جسدي بعد موته فيطاق بقاؤه بين الأحياء».

تخذله قدماه تماما، كان متعلِّقا برقبة «بكير»، و«بكير» يسحبه حتى أجلسه مستندا بظهره إلى جذع الشَّجرة، وعندما رفع رأسه لينظر في أغصانها باحثا عن ثمرة برتقال لم يستطع رؤية سوى جزء صغير من هذه الأغصان، فزحزح نفسه ليرتمي على ظهره، فتصبح كل الأغصان في مجال رؤيته.

- «بكير»، هات لي هذه البرتقالة.

رأى «بكير» صدر أبيه يعلو ويهبط بعنف، ورآه يُدخل يده في جيبه، يُخرج كيس «القرض» ويسف منه، فرأى عضلات وجهه تتقلَّص من قسوة المرارة، ونظر إلى الشَّجرة، فلم يجد بها أيَّة ثمرة من ثمار البرتقال.

- شجر البرتقال لا يثمر في «مسرى» يا «حجيزي».

قال «حجيزي» بصوت مخنوق: لكنِّي أرى واحدة هناك.

أخذ «بكير» ينظر إلى المكان الذي يذهب إليه بصر والده، فلا يرى شيئا: أين هي؟!

رفع «حجيزي» ذراعه بوهن، وأشار بسبَّابة مهتزَّة، وقال: هناك يا أعمى.

أخذ «بكير» يدقِّق النَّظر، وهو يلوي عنقه ويدور برأسه في كل نواحي أغصان الشَّجرة، ليس ثمَّة أي برتقالة.

صرخ «حجيزي» وهو يعتدل من رقدته، جاءته قوَّة، وقال: أنا سأصعد الشَّجرة وآتي بالبرتقالة.

وكان قد وقف على قدميه كأشد ما يكون الرَّجل، لمَّا رأى «بكير» ينظر إليه في غاية الاندهاش، قال هاتفا بحنق: قرِّب لي النَّاقة، ضَعها تحت هذا الغصن القريب.

ليس بمقدور «بكير» إلَّا أن ينفِّذ أوامر أبيه، فقرَّب النَّاقة، ليعتلي «حجيزي» سنامها برشاقة، ثم يتعلق بالغصن مثل قرد، والبرتقالة نصب عينيه.

«لن يضيع كل شيء هكذا ببساطة، الأعمى لا يريد أن يرى البرتقالة، وأنا أريد أن يصير جسدي بعد الموت فوَّاحة عطر، كي لا يلقون بي في الأماكن المعتمة المهجورة من البيوت، عندما أصير فوَّاحة عطور سيضعونني في جوارهم، في أماكن أنسهم، يأخذون من عطري، وآخذ من ونسهم، الولد بكير لا يفهم شيئا، سيضيِّع بعمى قلبه وبصيرته كل ما أسعى إليه طوال هذا العمر».

وفي قلب الشَّجرة شعر بالوهن يضربه مرَّة أخرى، كانت الشَّمس تتَّجه نحو المغيب، وكان ينظر إليها بعينين محمومتين، مع غروب هذه الشَّمس ستغرب حياته تماما، فنظر إلى البرتقالة التي كانت تتأرجح

باهتزاز الغصن المعلَّقة فيه تحت ثقل حركة «حجيزي»، برتقالة كبيرة، صفراء برّاقة، تنضح بمرح ليس هذا الوقت أوانه.

لم يكن بينه وبين البرتقالة سوى أقل من ذراع واحدة، لكن الجهد الذي بلغ منه، جعل المسافة أبعد ترامِيًا من آفاق الصَّحراء، كان يحارب الآن كل عجزه، وليس من المعقول أبدا أن يعمل لهذه اللَّحظة امتداد عمره، ثم يفشل في الذراع الأخيرة منه.

كان «بكير» يراقب والده من أسفل، ودموعه تنساب من عينيه، لم يكن يتخيل أن حال أبيه سيسوء هكذا، لم يكن «بكير» يعتقد أبدا أن «حجيزي» سيموت فعلا، كل ما هنالك، اعتقد أن أباه قد أصابه الخرف أخيرا.

ما هذا الغبار الذي ينبعث في الأفق، ويتعالى نحو الشَّمس الغاربة؟!

ثم بدت في وسط الغبار نقطة سوداء، نقطة تكبر وتكبر.

كان فرسا ينسكب على الرِّمال مثل فيضان هادر، يأتي من قلب الصَّحراء المهجورة، وفوقه فارس يجلس عليه جلسة الصَّناديد.

وتعلَّق بصر «حجيزي» به، وشعر بقلبه يحن، وهتف هاتف في وجدانه: إنه المُعزِّي.

«لو صدق المسيح في وعده لي فلابد وأن يكون هذا الفارس هو المُعزِّي، وإلا متى سيجيء إن لم يأت الآن؟».

توقَّف الفرس تحت أغصان الشَّجرة، أسود غُرا محجَّلا، عليه فارس ربعة، هامته كبيرة، وشعره سيَّاحا من أسفل عمامة خضراء يندلق على

كتفيه، وعيناه واسعتان سوداوان، فيهما ألق الرَّاحة، تحيط خصره بذراعيه امرأة وجهها يسكب دما أحمر، غاية في الجمال والفتنة، وشعرها يتضوَّع من النِّسمة الخفيفة مثل مسك دافئ، وعيناها تنضحان العشق.

«مال بكير لا ينظر إليهما؟! أعمى هذا؟!».

سمع «حجيزي» صوتا رائقا مثل ماء النَّبع يناديه: يا «حجيزي».

التفت إلى الفارس، كان «حجيزي» متمدِّدا فوق الغصن متشبِّثا به يحاول الثبات فوقه، بينما الفارس ينظر إليه باسما، والمرأة التي خلفه ما زالت تحيط خصره بذراعيها، تضع رأسها ما بين كتفيه وقد أسبلت عينيها، والفرس يحمحم، رقبته معقوفة، ينقِّل أقدامه كأنه يرقص في مكانه.

- إذا صرت فوَّاحة عطور، ستفتح طريقا واسعا لمهانة الإنسان يا «حجيزي»، وما أراد اللّه للإنسان أن يكون مُهانا حتى بعد موته.

«عندما تتحوَّل الأجساد الميتة إلى فوَّاحات عطور، ولا يكون حولها من الأحياء إلا أحفاد، سيتبادلون الجثث الفوَّاحة فيما بينهم، سيتعاملون معها كما يتعاملون مع أي فوَّاحة عطور جامدة، وعندما تمتلئ البيوت بهذه الفوَّاحات، سيحطِّمونها بأيديهم ليتخلَّصوا منها وهم يشربون الشَّاي، لا مكان للموتى بين الأحياء وإن صاروا فوَّاحات عطور».

- من هذه المرأة التي تجلس خلفك.

ابتسم الفارس وقال: هذه أسيرتي، أسرتها بالحب، وأنا مليكها، ملكتني، بالعشق، هذه التي سألتُ اللّٰه أن يقبض روحي بين سحرها ونحرها، وأن يكون آخر ماء يدخل جوفي رضابها.

- تحبُّها كل هذا الحب؟!

- وهل كان ممكنا أن أبلِّغ رسالتي من غير حب امرأة؟!

- وما رسالتك؟! من أنت أيها الفارس؟

- المجد للإنسان الذي يعرف قيمة نفسه، ربُّ هذه الأرض، والعزَّة للّه، الذي خلقه ليكون خليفة، وأوَّل ما علَّمه سر أسماء مفاتيح الرُّبوبية، أنا الذي قلت للإنسان أعظم كلمة: اقرأ، وأيقظ العقل، لتعرف كم أنت عظيم. أنا الذي قال لك «المسيح» انتظره.

- إذًا أنت المُعزِّي.

نظر الفارس إليه بعينين حانيتين، بينما يربت على ركبة المرأة التي كانت تريح صدغها بين كتفيه، تمسح وجهها بدلال في شعره الذي ينساب ميَّاسا من تحت عمامته الخضراء.

«كم هو جميل ورائق هذا المُعزِّي، ما اسمه؟!»

- يا «حجيزي»، القبر منبع الذِّكرى، والدَّفن حياة، يبقى الإنسان حيا في ذاكرة الأحياء بكامل هيئته وصورته طالما هو مدفون في قبر.

- تريدني أترك الدُّنيا التي عمرتها، وأروح في طي النِّسيان؟!

- ارجع إلى الوراء، وانظر لحال الجثث التي عاشرت مواتها، هل تحب أن تعيش حيا بجوارها حتى وإن فاحت منها العطور؟، لذلك اسمع كلامي، الدُّنيا التي عمّرتَها بحياتك لا تخربها بموتك، ولن يستطيع النسيان أن يقترب من رجل ظل عمره يحاربه، لقد قتلت النِّسيان يا خليفة اللّٰه.

كان «حجيزي» بائسا وهو يقول: كيف وأنت تريد لي الدَّفن؟!

شارفت الشَّمس على المغيب، ولم يعد بينها وبين حد الأفق سوى طول رمح، وسكون الصَّحراء ناصع، وينبثق صوت المُعزِّي: حتى وإن دُفن جسدك، فلن تُدفن ذكراك، فأنا أعلم اليوم الذي سيوحي فيه بقصتك إلى قلب كاتب ملهم، سيكتبها سفرا مفصَّلا، تضرب الرَّوعة في أطنابه، فيذيع خبر هذا السِّفر في كل الأرض، ليعلم النَّاس في كل أزمان العالم القادمة قصة «حجيزي بن شديد الواعري»، خليفة اللّٰه الحق، الذي صام عن الحياة ليعيشها أبدا، وحارب النِّسيان مائة عام، ففاز بالذِّكر ما دامت الدُّنيا تحيا.

ابتسم «حجيزي»، بسمة مرتاحة، ما ابتسم مثلها من قبل، وهدأت روحه.

«كاتب مُلهم، وما كاتب مُلهم، وما السِّفر؟!»

- السِّفر الخلود، والكاتب المُلهم هو واهب الخلود، كأني أراه يمشي بين النَّاس مهموما بك، يحمل روحك التي أضناها هم الفناء، يريد الهروب معك إلى دوام الحياة، حيث بقاء أبديا.

وبينما يركن رأسه إلى الغصن، رأى الفرس يتحرك وهو يحمحم، ورأى المرأة تقبل المُعزِّي بين كتفيه، وخطر خاطر في وجدانه: يا لسعادة هذا الفارس بهذه المرأة العاشقة.

وعندما طرقت هذه الخاطرة عقله، كان الفرس قد تحوَّل إلى نقطة سوداء تزحف نحو قرص أحمر ضخم، يقترب جدا من رمال الأفق البعيد: ما اسم هذا المُعزِّي الذي هدَّأ روعي، لو كنت حكيت لـ«غنيمة» عنه كان أخبرني باسمه، ابن كلب دار في البلاد وعرف.

وابتسم: اسمه ليس مهمًّا، المهم أنه قد جاء وعزَّاني، والمهم أن «المسيح» لم يكذب عليّ.

رفع رأسه وأخذ يزعق: يا «بكير»، يا ولد.

وأجابه «بكير» مفزوعا من صراخه: نعم يا «حجيزي»، ماذا تريد؟

- احفر قبرا، احفر قبرا، احفر قبرا.

هذه الصَّحراء المفتوحة عادة تمتص الأصوات، ومهما علت لا تسبب ضجيجا، لكن صراخ «حجيزي» تردَّد مثل صدى ضارب، أرعب قلب «بكير»، وفجَّر طبلتي أذنيه، فزعق هو الآخر مدهوشا: يا والدي!

لم يكن هذا صوت «حجيزي»، ولكنَّه كان رعد السَّماء يخبط الأجواء: احفرررر قاااااابر.

مثل مجنون، جرى «بكير» ناحية ناقته، وسحب المسحاة من سرير الخشب الذي يحيط بسنامها.

- هنا، احفر هنا.

أخذ يحفر في المكان الذي كانت ذراع «حجيزي» تشير إليه، أسفل الغصن الذي يتمدَّد عليه "حجيزي» وقد خارت قواه.

أخذ «بكير» يحفر بكل قوته، وقد التاث عقله، كان الغبار يرتفع ويرتفع، والشَّمس تتدنَّى وتتدنى، وقد أوشكت أن تختفي بتمامها عندما انتهى «بكير» من الحفر.

في هذه اللحظة التي اختفت فيها حافَّة الشَّمس الأخيرة خلف رمال الأفق، شعر «حجيزي» برائحة ماء بحر «العلمين» تتسلل إلى صدره، وتربت على قلبه فيهدأ، ثم رأى طيورا بيضاء تهاجر بسكينة في عمق سماء بعيدة.

ظلَّت عينا «حجيزي» تتابعان حركة السرب المرفرف، لتثبتا في مراقبته.

ثم جحظت عيناه فجأة، كأنه فوجئ بمشهد مذهل، روَّع عقله إلى حد التخلِّي عن السيطرة على الجسد، ليميل ببطء فاقدا ارتكازه على الغصن.

أخذ جسد «حجيزي» يميل، ويتزحزح، ثم يهوي من فوق الغصن.

عندما تخلَّى الجسد عن الغصن اهتز بعنف، وتراقصت البرتقالة مثل نهد فجَّره عشق، فتضوّعت رائحة البرتقال، بينما انطلقت جثَّة «حجيزي» متَّجهة إلى القبر، كأسرع ما يمكن لجثَّة أن تتَّجه إلى قبرها.

تمت

صدر للكاتب:

الجبريلية/ مجموعة قصصية/ 1995

الصنم/ رواية/ 1999

الفرس ليس حرا/ مجموعة قصصية/ 2011

السكاتة/ مجموعة قصصية للأطفال/ 2013

منافي الرب / رواية / 2013

انحراف حاد / رواية / 2014

كان كلام "حجيزي" هذه المرَّة مباغتا جدًا لـ"بكير"، ففتح عينيه على اتساعهما، لكنَّه لم يجب !

- عندما تغيب شمس اليوم ستكون روحي قد غابت معها، اسمع كلامي جيدًا، كلام المغادرين دائمًا ثمين وصادق، حافظ على امرأة تحبك، حتى لا تلقي بنفسك في منافي الرَّب.

"منافي الرَّب؟.. وما منافي الرَّب؟!".

"... ولي فيها مآرب أخرى"!.

حياتنا على الأرض ليست رحلة مقدسة، واحدية الهدف في عمارة الأرض؛ باعتبار تلك العمارة هدفًا مقدسًا حين ارتكب آدم عليه السلام خطيئة التفاحة، وقرر أن تهجره الراحة، ويلقاه الموت في آخر رحلته..

إن حياتنا أو رحلتنا المقدسة على الأرض لها أبعاد أخرى، تبدأ منذ لحظة رحيلنا ولا تنتهي عندها كما يعتقد الكثيرون.. تحدث رؤيا لـ"حجيزي بن شديد الواعري"، تقوده إلى رحلة جليلة على مدى اثنتين وسبعين ساعة.. يستشرف منها عظمة الخالق، وكيف الوقوع في براثن الموت، وكيف تكتحل العين.. ولِمَ كان الصليب مكسورًا، وما الذي تفعله روح الوليف في مسيرة الرحلة، وأن المجد لله في الأعالي، كما أن للعشق مدارج وسطوة.. ثم يلتقي بطلنا بـ"المعزّي" مثيرًا فينا الإعجاب والتعاطف.. الزهو والترح، لنعرف بوضوح شديد المقصود بـ"منافي الرب"...!



أشرف الخمايسي روائي مصري وعضو باتح
بالجائزة الأولى في مسابقة "أخبار الأدب" للقص
اختيرت روايته "منافي الرب" للقائمة الطويلة
وصلت الرواية نفسها للقائمة الطويلة لمساب
الصينية" 2014. صدر له ثلاث مجموعات
روايات.





للشراء عبر موقعنا
store.almasriah.com

الدار المصرية اللبنانية